الكتاب الثاني

حضارة روما الجمهورية

الشعوب الغربية الاخرى قبل الرومان

لننتقل دون إبطاء الى روما .

مهما يكن من شأن الاتروسك (*Etrusque*) والقرطاجيين والغاليين فان هـــذه الشعوب الثلاثة وحضاراتها لم تُغمَط الغرب بكليته قبل الرومان . وعلى الرغم من تلميحاتنا في سياق البحث، حول شعوب ايطاليا الوسطى والليغوريين والإيبيريين واولئك الليبيين الذين ليس اسمهم الحالي « بربر » سوى امتداد خفيّ لاسمهم القديم الواسع الانتشار، « برابرة » ، وسكان الجبـــال في جزر المتوسط الكبرى وسلسلة الالب ، والجرمانيين الذين اعرض الاباطرة عن إخضاعهم بعد مجزرة « جوقات فاروس » والبريطانيين الذين أخضعوهم حتى مختنق الجزيرة البريطانية عند سكوتلندا الجنوبيـــة ، فالشعور بما تفتقر اليه اللوحة التي رسمناها عن الغرب في الفصول الثلاثة السابقة لا جدال فيه ولا يختلف عليه اثنان .

ولكن كيف لا نتراجع امام هذا التقسيم الكبير الذي هو نتيجة محتومة لعرض أكمل وأكثر شمولاً ؟ اضف الى ذلك اننا لا نعرف هذه الشعوب معرفة تامة . ولكن بين النواحي العديدة التي يجب على مؤرخ الحضارت القديمة ان يعترف بجهلها، ليس ما يتعلق منها بهذه الحضارات ما يحمله على الاسف الاشدّ . واذا كان هناك من فائدة في دراستها ، فان الفائدة الرئيسية ليست في الوقوف على ما كانت عليه هذه الشعوب ابّان استقلالها او ما كان يمكن ان تبلغه لو انها حافظت على هذا الاستقلال . ولكن من شأن تشتتها وتنوعها وصبغتها التي لا تزال مخشوشنة ان تظهر بالمقارنة عمل الوحدة والتربية الذي قامت به روما خير قيام . غير ان عظمة هذا العمل ظاهرة للعيان دونما حاجة الى هذه الايضاحات .

روما التي تؤدي اليها كافة طرق العصور القديمة

وهكذا فان روما هي المحور ابداً . ويتضح هنا مرة أخرى ان الكلام عن شعوب اخرى يؤدي اليها حتماً . فهي انما تتسلط على كل من يريد رسم تطوّر المجتمعات على شواطىء المتوسط او في جواره . وفي كلامنا عن الشرق الادنى وعن الغرب على السواء، قليلة جداً هي الفصول التي اختتمت دون ان نأتي على

ذكرها ، وبالحاح احياناً . ولم يكن القصد من ذلك الإنباء بالمستقبل القريب او البعيد بل تفسير نهاية حضارة ما او زوالها او ديمومتها جزئياً . والواقع هو ان روما كانت الوريث المباشر او غير المباشر لشعوب لا يحصى لها عدّ انصهرت جميع مصائرها في مصير روما . فبعد تعداد شتى التركات المادية والادبية التي ضمتها الى تراثها الخاص ، يجدر بنا ان نرتـــد اليها وننظر اليها كما استطاع ان يكوّنها عمل معقد أسهمت فيه الطبيعة والبشر والاحداث .

لن نتوقف عنـــد نشأتها ومطلع عهدها ، فهي مدينة بوجودها وجوهر تنظيمها الاول الى الاتروسك . وقـــد بقيت دون تميز يذكر حتى بعد زوال وصايتهم عليها : مدينة ذات ملامح ريفية ظاهرة ، شأن العديد غيرها من مدن ايطاليا آنئذ ، كما نرجح . وقد يجدر بنا ، مع ذلك، ان ندرسها كما وصفناها لو ان لدينا المعلومات الصحيحة عما كانت عليه اذ ذاك . ولكن صورة ماضيها كما نقلها الينا تقليد تحدّد بعد ذلك بزمن طويل — اي في القرن الثاني قبل الميـلاد ، في خال ان التاريخ المسلم به لتأسيس روما كان متأرجحاً حوالي منتصف القرن الثامن — ، وهي تكاد تكون خالية من الالوان المختلفة التي تفسح المجال للمقارنات المجدية ، مردها الى تفسيرات شوهتها تشويهاً لا يرتق فتقه لا بل الى تركيب تحكمي صرف . فمنذ السنة ١٧٢٩ استطاع احد المؤرخين ان يتكلم عن الشكوك التي تحوم حول القرون الاولى من تاريخ روما ؛ ويجدر بنا ، حتى في يومنا هذا ، ان نحفظ هذه المسائل التي لا تزال مطروحة ، لجهود علماء الاجتماع وعلماء الآثار وذوي الاطلاع الواسع .

الفتح والحضـــارة في روما الجمهورية

هنالك شيء آخر يسترعي الانتباه في ما يستهدفه هذا الكتاب . عنينا في الدرجة الاولى توسع رومـــا ونموه ووسائله وطرائقه ، وفي الدرجة الثانية ، وبنوع خاص ، نتائج هذا التوسع .

اما النتائج التي تتناول الشعوب المغلوبة على نفسها والمعلنة خضوعها فليست اذ ذاك بالنتائج الاكثر اهمية لانها لا تزال سلبية . فحتى اوائل العهد المسيحي تقريباً ، واذا ما استثنينا ايطاليا، نرى ان روما تهدم دون ان تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليـه . وتقتل او اقلّه تخنق حضارات لا تهتم لاقامة حضارات اخرى مكانها . وتسلب وتفقر وتستثمر دونمـــا اعتبار الى انها تعرض حياة ممتلكاتها للإخطار . وتقتطع دون تعقل من مال اصبح مالهـــا فتستنزفه وتعرض مستقبلها نفسه للخطر . ولن يظهر عملها الايجابي كوصية على العالم ومنظمة له ، وكمربية ايضاً في اكثر من منطقة من مناطقه ، الا بعد ذلك ، في عهـــد الامبراطورية وبفضل الامبراطورية .

ولكن نتائج الانتصارات ، منذ قبل الامبراطورية بزمن بعيد ، قد بدا اثرها على المنتصرين. فاذا ما تتلمذوا لبعض المغلوبين ووسعوا ادراكهم لمفهوم الانسان وايقظتهم مشاغل فكرية وجمالية جهلوها حتى ذاك العهـــد واوجدوا لانفسهم ادباً وفناً ؛ فان كل ذلك ، على الرغم من عظمة

اهميته المطلقة ، لا يمثل مع ذلك ، نسبياً ، سوى نتيجة لا قيمة لهـــا . فلا ينجو في الحقيقة اي مظهر من مظاهر حياتهم من ردة الفعل . ويكفي للقضاء على هذه المظاهر ان تدوم الحروب التي تقتلع المواطن من بيئته وتثنيه عن المهام المنتجة . يضاف الى ذلك ، في هذا الافتراض ، اقتناء ونقل ثروات طائلة ، والاتصال بشعوب اعظم تطوراً وبحضارات على قسط كبير من التفخل ، والسيكولوجيا الجديدة التي كيّفها النجاح والسيطرة . فانفجرت من ثم ثورة متعددة الاشكال ، مادية وادبية ، لم ينج منها صقع من الاصقاع . واذا ما بدا التنظيم التقليدي مستمراً هنا او هناك فان واقعاً آخر يتسرب اليه يرسخ اندفاعه بقوة مطردة .

فاتحون يواجهون المعاضل التي اوجدها اثر الفتوحات في ظروف الحياة الفردية والجماعيـة ، وحضارة مدينة ريفية تصبح قسرا حضارة عاصمة في امبراطورية ، وانتصار النظم الاقتصادية الجديدة والاضطراب الاجتماعي الذي يسببه ، وازمة النظام السياسي القديم الذي مضى زمانه ، وتراخي الانظمة القديمة ، وتعذر وضع غيرها ابان اضطرابات الصراع بين مقاومة قوى الماضي وفورة قوى الحاضر : ذلك هو المشهد الذي تقدمه لنا روما الجمهورية والذي ينطوي معنـــاه الحقيقي على قوة مستقلة عن احداث هي اشبه بالمآسي احياناً . وقد يغري بعضهم ان يطيلوا الكلام في موضوع المعاضل التي اوجدتهـــا الانتصارات للمنتصرين . ولكننا سنقتصر هنا على استنتاج نظري : ان المؤرخ قد يبحث دون جدوى عن حالة اخرى يظهر فيها تضافر العوامل العديدة ، في حضارة ما ، على مثل هذا الالحاح وهذا الجلاء ، عن طريق الخلـل الذي يحدثه انهيار احد هذه العوامل ، شيئاً فشيئاً ، في كافة العوامل الاخرى ، وحتى في ضمير المجتمع .

الفصل الأول

الفتح الروماني

بعد ان حددنا قبلة هذا البحث ، نرى من واجبنا ان يتناول الفتح الروماني في الدرجة الاولى: فبدون هذا الفتح يستحيل فهم حضارة روما الجمهورية .

١ ـ التوسع الجمهوري

خلق عالم متوسطي

غير ان اهمية هذا الحدث التاريخي العظيم لا تنحصر في المدينة التي حققت هذا الفتح . فهي انما تقرر لقرون عدة مصير العالم المتوسطي . ولعل ابسط ملاحظة ، بهذا الصدد ، تفرضها نظرة الى الخريطة ، تقودنا ايضاً الى ابعد استنتاج : فان روما قد خلقت هذا العالم بفعل احتلالها اياه .

لم يسبق قط ان قام حتى ذاك العهد في اطار وحدة سياسية لم تدم طويلاً او خارج مثل هذا الاطار ، سوى عالم واحد هو عالم الشرق الادنى الذي تجاذبت مركز الثقل فيه بلاد ما بين النهرين حيناً وبحر ايجه حيناً آخر . ولعل الاسكندر هو الوحيد بين قدامى الفاتحين العظام الذي يغلب على الظن انه وضع تصميماً يقضي ، بعد فتح الامبراطورية الفارسية حتى تركستان والهندوس ، بفتح الغرب المتوسطي حتى جبل طارق . ولكن الوقت قد اعوزه للشروع بتنفيذه . فبقي الغرب من ثم في عزلة متروكا لشعوب متخلفة لا تربط بينها رابطة ، يعيش كل منها لنفسه في نطاقه الاقليمي ، ولا تقوم بينها صلات متبادلة او بعيدة سوى تلك التي احتكرت مكاسبها بعض المستعمرات الاجنبية المقيمة هنا او هناك على الشواطىء ، ولا تتأثر سوى تأثر محلي وبطيء بحياة اقل بداءة تتصف بالانكماش ، ولا تسهم اي اسهام بنجاحات الشرق الادنى ومنازعاته .

ولم يضع حداً لهذه العزلة سوى روما . فبعد ان اصبحت سيدة ايطاليا ، بين حوضي المتوسط ، لم يكن من سبيل امامها للوقوف موقف اللامبالاة منهما. فقامت فيهما، في آن واحد ، بحملة توسعية موازية . فاخضعت البلدان الغربية لعلائق عديدة وادخلتها ، في الوقت نفسه ، في

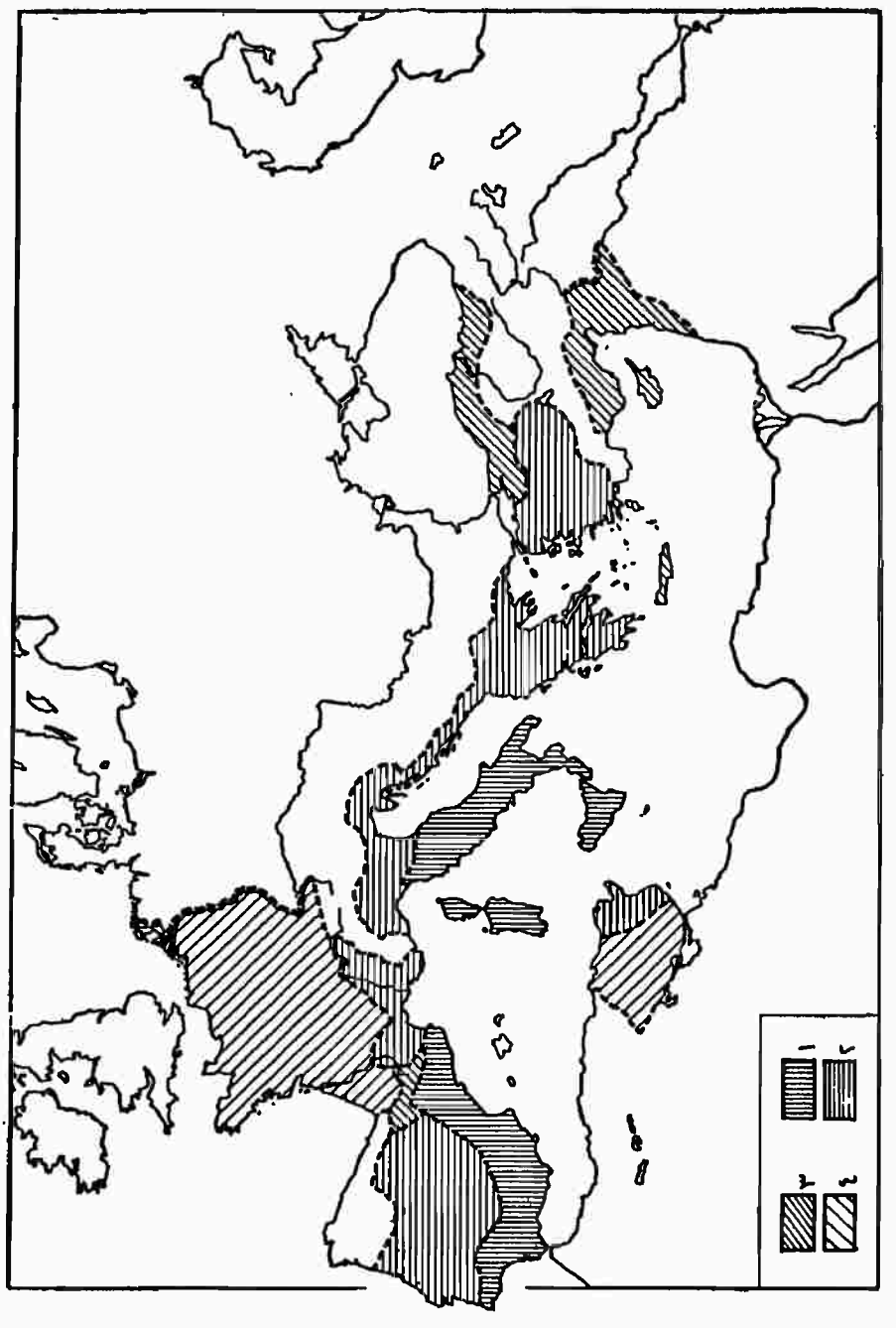

الشكل ٦ – الفتوح الرومانية في عهد الجمهورية

١ – مقاطعات خضعت لروما في أواخر القرن الثالث او الحروب البونيقية الثانية؛ ٢– فتوح القرن الثاني ؛ ٣– فتوح القرن الاول تحيل قنصلية قيصر (٥٩)؛ ٤ – فتوح قام بها قيصر وعرف اوغسطس ان يحافظ عليها.

وحدة اعظم اتساعاً . وهي ، اذ اخضعت لشريعتها هذه الاراضي المختلفة الكثيرة المحرومة حتى ذاك العهد من اي اتصال فيما بينها ، قد اوجدت الظروف الاولية لوحدة متوسطية . وستتعهد الامبراطورية فيما بعد تنفيذ هذه الوحدة . وقد اتاحت الجمهورية ، منذ الآن ، بالفتح الذي حققته ، تطور معطية جغرافية الى واقع بشري .

بيد انه يصعب عليها جداً ، في تحقيق عملها العسكري ، الا تسمح بخسارة شيء من عالم الشرق الادنى القديم . فهي لم تنجح في التوسع الى ابعد من نهر الفرات . وهي لم تتوقف راضية عند هذا النهر . فان ذكرى مجد الاسكندر تراود مخيّلة اكثر من رئيس بين رؤسائها . وهي لا تجهل خصب بلاد بابل وواقع انتهاء كثير من طرق تجارة الشرق الاقصى اليها . اضف الى ذلك ان خبرتها قد اتاحت لها تقدير الخطر الذي يمثله ، لممتلكاتها في سوريا ، قربها من الفلوات والصحاري التي تظهر فيها ، بصورة مفاجئة ، جماعات غفيرة من الفرسان النبالين . بيد ان إرث الملكية السلوقية ، حين وضعت يدها عليه ، كان قد أنقص انقاصاً ملحوظاً : فايران قد فقدت بكليتها ، وكذلك بلاد ما بين النهرين حيث اقام الفارتيون ، بينما استعاد سلاليو ارمينيا استقلالاً تاماً . وقد اجرت روما عدة محاولات ، منذ عهد باكر ، لتوسيع هذا الارث المصغر . فكان بومبيوس بصيراً واكتفى بالمساومات ، وكان كراسوس مغامراً فقاد جوقاته الى المجزرة في سهل كار (*Carrhes*). واقدم بعض الاباطرة على المغامرة بدورهم فاحرزوا نجاحات متفاوتة سريعة الزوال . وهكذا لم يستطع الرومان يوماً اعادة وحدة الشرق الادنى المقوضة منذ قبل وصولهم : فقد افتقرت امبراطوريتهم الى اجزاء عريضة جداً من الامبراطورية الفارسية وامبراطورية الاسكندر .

ولكن فتوحات جديدة كثيرة ، ايطاليا ودلماتيا وغاليا واسبانيا وافريقيا ، قد عوضت الى حد بعيد ، اقاليم وسكاناً ، عن هذا التخلي الذي قبلت به غير راضية . ولكن نتائج هذا التخلي الحقيقية اكثر من ان تحصى . فبفضله نجت روما من الاندفاع نحو الشرق البعيد وسهلت عليها المهام الملقاة على عاتقها . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار المشاغل التي سببها لها الفرسان الفارتيون في فلوات ما بين النهرين ، هان علينا تصور تلك التي كان عليها مواجهتها في محاربتها بني جنسهم في فلوات تركستان . وهي لم تحتفظ من الامبراطوريات التي سبقتها سوى بالبلدان اليونانية حقاً وبتلك التي رسخت فيها الحضارة اليونانية بعض الرسوخ : فأفادت فيها من رصيد ثقافي ثابت ومن تيار صاعد . فيتضح من ثم ان فقدان مناطق ما بعد الفرات ، هو الذي اطلق ايديها في الغرب ، وأتاح لها أن تشيّد ، عوضاً عن عالم الشرق القديم ، على غرار أسلافها ، عالم البحر المتوسط بكليته .

ان الشكل الجغرافي لهذا العالم لكافٍ لإعطائه ميزة الجدّة . أضف الى ذلك ان هذا العالم سيستمر حتى اليوم الذي ستنتزع منه انتصارات العرب جميع المناطق التي تحيط ببحره الداخلي من الجهة الجنوبية .

الفتح الروماني عمل بطيء

ان ما يلفت النظر ، اذا ما نظرنا الى حركة هذا التشييد ، هو البطء الذي تسير فيه . وتبدو المضادة عظيمة بينه وبين السرعة النافذة التي اعتمدها اعظم فاتحي الشرق الادنى ، أمثال قوروش الفارسي والاسكندر المقدوني بنوع خاص . فالاندفاع التوسعي الذي نهضت به الشعوب الايرانية ، الميدية والفارسية ، حتى اذا ما نظرنا الى هذا الاندفاع في مجموعه ، لم يدم سوى قرن وبعض القرن فقط ، منذ احتلال أشور في السنة ٦١٤ حتى سلامين في السنة ٤٨٠ . اما اندفاع المقدونين ، حتى اذا ما ضممنا ملك فيلبوس الى ملك ابنه ، فقد كفاه ست وثلاثون سنة لبلوغ حدوده القصوى. وعلى نقيض ذلك، فإن التوسع الروماني يتطلب زمناً اطول الى حدّ بعيد ، إذ ان الحروب الاولى ضد الجيران الايطاليين تبتدىء منذ فجر القرن الخامس، بُعيد انهيار الملكية الاتورية ، وان ايطاليا نفسها، عند وفاة قيصر ، في السنة ٤٤ قبل المسيح ، لما يستتب الامر للرومان في شماليها الشرقي بين ايستريا والدانوب .

من الجلي ، ان الخطوات الاولى ، في مثل هذا التطور ، هي في الغالب تلك التي تصطدم بأشدّ العراقيل صعوبة . وليس من المستغرب ، على كل حال ، اذا ما اعتبرنا نقطة الانطلاق روما ، واضطرارها لمحاربة مدن مماثلة لها وسكان جبال الأبنين الوسطى والجنوبية المشهورين بقوة شكيمتهم وتوقفها أحياناً في نجاحاتها بفعل الغزوات الغالية ، كتلك التي خربتها في أوائل القرن الرابع ، ألا تتوصل ، إلا بعد أحداث طويلة ، لإخضاع ما درجوا ، حتى قيصر ، على تسميته بـ « ايطاليا » أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم شبه الجزيرة الايطالية . بيد ان هذا الاخضاع لا يصبح أمراً ناجزاً، بعد فتح تارنتا *Tarente* في السنة ٢٧٢، وفتح آخر مدينة أترورية في السنتين ٢٦٥ — ٢٦٤ ، إلا قبيل النزول الى صقليا في السنة ٢٦٤ : أي ما يناهز القرنين ونصف القرن ، لاحتلال شبه الجزيرة ، في حال ان احدى وعشرين سنة كانت كافية لأن يبسط فيلبوس السيطرة المقدونية على اليونان البلقانية !

واذا لم يسر التوسع خارج ايطاليا ، فيما بعد ، بمثل هذا البطء ، فإنه لا ينتهي في الغالب الى ضم المناطق الا بعد المواعيد المقررة لهذا الضمّ . وتؤلف الحروب البونيقية ، في سلسلة الحروب الطويلة التي نشبت ما وراء البحر ، شذوذاً يلفت الانظار ، لانها تنتهي على الفور الى مكاسب اقليمية : الاولى الى كسب صقليا والثانية الى كسب اسبانيا والثالثة الى كسب اقليم قرطاجة. ولكن المجازفات في الشرق الهليني تتأخر في اعطاء ثمارها . فقد تدخلت روما في اليونان منذ السنة ٢١٢ ، وهزمت فيها الجيش المقدوني شر هزيمة في السنة ١٩٧ ، وقضت عليه نهائياً في السنة ١٦٨ ، ولم تنشىء ولاية مقدونيا ، على الرغم من ذلك ، الا في السنة ١٤٨ . ولا حاجة بنا لأن نقدّم الامثلة الكثيرة ، بل يكفينا ان نستشهد بمثل مصر الفريد : فقد بُسطت حماية روما عليها عملياً منذ السنة ١٦٨ ، على الاقل ، وثقلت عليها يوماً بعد يوم كما يتضح من تكرر تدخل الجيوش الرومانية في منازعات البلاد الداخلية ، ولكن ذلك لم يحل دون احتفاظ

الملكية اللاجية باستقلالها النظري وحق العملي أحياناً ـ فان كليوباترا قد استخدمت انطونيوس بمقدار خدمتها له على الأقل ـ حتى السنة ٣٠ قبل المسيح .

وجماعي

تفوق هذه الملاحظات في اهميتها مجرد التوقيت الزمني . اجل ان تاريخ الفتح الروماني ينطوي على احداث سريعة ، كبسط السيطرة على غاليا المستقلة التي حققها قيصر في ثماني حملات عسكرية . ولكن مثل هذه الاحداث ، بصرف النظر عن ان واحداً منها لا يرتدي طابع الصاعقة الذي ترتديه حملة الاسكندر اذ ضم في ثلاثة عشر سنة الامبراطورية الفارسية الواسعة الارجاء الى الملكية المقدونية ، لا تخرج عن كونها استثنائية . ويبدو بناء العالم الروماني على الصعيد العسكري ، الذي يمتد عدة قرون قبل الميلاد ، والذي سيتكامل بعده ايضاً ، وكأنه في الحقيقة عمل اجيال عديدة جداً .

يستدل من ذلك ان هذا البناء لم يكن ، او لم يكن الا جزئياً ، عمل افراد بارزين . اجل ، لم تفتقر روما الى مثل هؤلاء . وهي لم يعوزها المجد العسكري الذي يقترن عندها باسماء معينة كما عند غيرها . وتفسر مؤهلات العديد من زعمائها الشهرة التي نعموا بها . لا بل ان بعضهم قد لعب دوراً شخصياً حاسماً في توسع الامبراطورية . فقد تصرف بومبيوس في آسيا مثلاً وقيصر في غاليا كما طاب لهما التصرف دون ان يستشيرا احداً : فاختارا على هواهما من يهاجمان وعقدا احلافا وقررا ضم الاقاليم ، ممارسين بذلك في كماله ، باسم روما ، ودون اغفال اهدافهما ، قانون الحرب والسلم . بيد ان هذه الحرية لا يمكن ادراكها الا في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهي انما تمثل — وسنعود فيما بعد الى هذا التطور — مظهراً من مظاهر الاضطراب الذي خلقه الفتح نفسه في سير نظام الحكم . فلم يكن القواد ، زمناً طويلاً ، قبل ان يتحرروا رويداً رويداً ، سوى منفذين تسند اليهم مهمة عسكرية معينة . وهكذا فان اكبر واشهر مؤسسي العظمة الرومانية ، كشيبيون الافريقي وبولس اميليوس وشيبيون اميليانوس لم يأخذوا على انفسهم امر اعلان الحرب ، واذا هم ابدوا رأيهم ، المسيطر غالباً ، في شروط الصلح المفروض على العدو المغلوب على نفسه ، فانهم لا يملون ، مع ذلك ، هذه الشروط دون اشتراك غيرهم في الرأي ، اي دون رقابة .

يبدو هذا القول وكأنه حقيقة بديهية ، اذ ان روما ، في ذاك العهد ، كانت جمهورية وكان عليها بهذه الصفة ، الا اذا رضيت بالدكتاتورية ، ان تحدد مدة القيادات العسكرية ونطاقها الجغرافي وان تنقد سياستها الخارجية ، ما امكن الانقاذ ، من القرارات الفردية . ولكن كل ظاهر ابتذال يزول اذا ما فكرنا ان تاريخ الانسانية جمعاء لا يقدم لنا اي مثل آخر عن جمهورية تتابع طيلة اجيال عدة ، بمثل هذا الثبات وهذه الوحدة في النتائج ، ان لم يكن دائماً في الاساليب ، سياسة تؤدي الى فتوحات على مثل هذا الاتساع . ففوق الاحداث الطارئة والتحولات الفجائية في الاتجاه وانتهازية الغفلات والجهود ، يؤلف هذا الاستمرار في التوسع

وهذا التقدم شبه المتواصل في القوة والسيطرة ميزة الجمهورية الرومانية . وقد يستهوينا اللجوء الى تفسيرات شتى اكتفى بها اكثر من مؤرخ قديم : حظ روما ومصيرها الذي اعدت بموجبه لان تصبح امبراطورية. ولكن معاصرين كثيرين يعتقدون ان هذه التفسيرات انما تخفي عجزنا عن تبيان تسلسل الاسباب والنتائج تبياناً منطقياً . ويجب الاعتراف بان واحداً لا يستطيع التباهي بايضاح حدث تاريخي على مثل هذا الاتساع كما يجدر الايضاح ، وان المجازفة في الاشارة الى بعض الاسباب العامة التي ادت الى هذا النجاح تقود خصوصاً الى وعي عدم كفايتها . ولكن هل يجب ان يثنينا هذا الاعتراف الضروري عن محاولة التحليل ؟

التنظيم التقني للسياسة الخارجية

ليس واقع الجمهورية الفاتحة بالظاهرة النادرة : فقد اعطتنا المدن اليونانية اكثر من مثل عن ذلك . ولكن جمهورية تكرس في سبيل الفتح جهوداً بمثل هذا الاستمرار ، رافضة التنازل ابداً عن مكسب حققته ، وعاندة بنجاح، باستثناء الهزيمة النكراء التي انزلها بها الفارتيون في «كار »، في تدارك الهزائم التي تمنى بها، لشذوذ تاريخي هو اقرب ، في الحقيقة ، الى المغالطة السياسية .

قبل الشروع بتحديد الميزة الحقيقية للنظام الجمهوري في روما ، يجدر بنا ، بغية الاقلال مما يثيره هذا النشاط الذي لا يعرف الكلل من دهشة وحيرة ، ان نلفت النظر دونما ابطاء الى ان السياسة الخارجية لا تقررها في الواقع جمعية المواطنين ، واذا كانت استشارة الجمعية امراً واجباً لاعلان الحرب وفاقاً للانظمة ، واذا كان قرارها نافذاً ، فان الحكام يعرفون كيف يديرونها . فحين رفض الشعب ، بعيد نهاية الحرب البونيقية الثانية ، ان تعلن حرب جديدة على الملك المقدوني ، احالوا القضية للمناقشة مرة اخرى وحصلوا هذه المرة على اكثرية الاصوات . وليس هذا كل شيء : فبعد الاقتراع على اعلان الحرب ، رأت الجمعية نفسها محرومة من الصلاحيات حتى اليوم الذي دعيت فيه للموافقة دون مناقشة على معاهدة الصلح التي وضعت نصوصها على غير معرفة منها ؛ وليس لدى الشعب في هذه الاثناء سوى وسائل غير مباشرة ، وغير حاسمة على العموم ، كانتخاب القضاة الجدد مثلاً ، للاعراب عن اشمئزازه .

تعود ادارة السياسة الخارجية في الحقيقة الى مجلس الشيوخ ، أي الى هيئة مختصرة انتخابها ابعد من ان يتصف بالديموقراطية . يستقبل هذا المجلس السفراء الأجانب ويملي عليهم الأجوبة التي يتلقونها ؛ ويعين السفراء الرومانيين ويعطيهم التعليمات . ويتدخل في توزيع القيادات على القضاة ، ويحدّد أهمية القوى العسكرية او البحرية والمبالغ التي توضع تحت تصرف كل قاض من القضاة . وأثناء العمليات الحربية يتلقى تقاريرهم ويبلغهم مقرراته . يناقش مشاريع المعاهدات ويوفد محلياً ، لأجل تطبيقها ، مفوّضين يشتركون في ذلك مع القائد المنتصر .

ليس من ثمّ ما يشبه الوضع في كل من الجمعية الشعبية والمجلس في الديموقراطيات اليونانية . فبدلاً من أن تخضع السياسة الخارجية لمقررات ، غالباً ما تكون مرتجلة ، يمليها حماس الشعب

ويأسه وهواه، تتعلق هذه السياسة بجهاز يسهل على أعضائه الذين يناهزون الثلاثمائة ان يديروها بطريقة فضلى . ولا ينتمي هؤلاء الى مجلس الشيوخ إلا بعد تلقي تربية معينة . ومن حيث انهم يحتفظون بعضويتهم مدى الحياة ، فانهم يوسعون خبرتهم ويستطيعون السير بموجب فكرة أو تقليد . ولما كانت المعلومات الضرورية تتوفر لديهم ، فإنهم يتمكنون من التوفيق بين المشاريع ووسائل العمل . هذه كلّهـــا امتيازات تقنية جلية عن تنظيم الديموقراطية اليونانية ؛ وهي تتيح أن ندرك ادراكاً أفضل أمتن ادارة للسياسة الخارجية .

بديهي على كل حال ، ان هذه اللوحة تفتقر الى تصحيح في مراحل العهد الجمهوري المختلفة . ثم ان القوانين أبعد من ان تطبق زمناً طويلاً تطبيقاً كلّي الانتظام ، ولا تبقى ، على الأخص ، قروناً عديدة دون ان تتطور . ولا يبرز سلطان مجلس الشيوخ المطلق حقـاً الا إبّان الحروب الحاسمة ضد دول مـــا وراء البحر الكبرى ، قرطاجة والملكيات الهلينية في القرنين الثالث والثاني . وقد يحدث في هذه الظروف نفسها ، ان تصرف الآلة ، وعلى الرغم من ان التقليد الذي وصل الينا بصدد العهود القديمة غير جدير بالثقة نفسها ، فان توزييـع الكفاءات في السابق لا ينطوي ، على ما نعتقد ، على فروق جوهرية . ولن تحدث تبديلات هامة الا في عهد لاحق ، ابتداء من اواخر القرن الثاني . فتقوم إذ ذاك جمعية المواطنين ، بتأثير قادة حازمين ، حتى في حقـل السياسة الخارجية ، بمبادهات يضطر مجلس الشيوخ ان ينحني أمامهـــا . وقد حدث خصوصاً ان استثمر بعض قادة الجيش حظوتهم لدى الشعب او أقله لدى الجنود ، فشقّوا عصا الطاعة على مجلس الشيوخ . فسار التوسع الروماني من ثم سيراً أشدّ اضطراباً لأن من شأن تهوّر الشعب وحرية العمل التي يحصل عليها القادة ان يدفعا بهذا التوسع الى الامام .

الأسباب العميقة للاستعمار الروماني

مهما كان من فاعلية إحكام وسير النظم السياسية لتنسيق وايضاح التوسع ، فإن المعضلة الحقيقية التي يثيرها هذا التوسع تتخطاها كليها . وان ما يهمّ تبيانه في الحقيقة هو الأسباب التي وجّهت الحكّام نحو فتح يبدو انهم لم يضعوا له حداً حتى اواخر الجمهورية ، لا بل بعدها بقليل أيضاً . والمقصود هنا هو غير الأسباب التي أدت الى كل من الحروب المتعاقبة التي جروا إليهـا روما جراً : وكلّما بدت هذه الأسباب بوضوح ، بدا أنهـــا مرتبطة الى حدّ بعيد بالمكان والزمان وبعض الرجال . لا بل ان مـا يستهوينا اكتشافه ، بالنسبة لهذه النزعة المستمرة ، أو بالنسبة لما يجب اطلاق اسم «الاستعمار» عليه بعد ان نتزع من هذا التعبير المستلزمات التي أضافها اليه تطور العالم المعاصر ، هو الاسباب الدائمة ، بما فيها ، وربما في الدرجة الاولى ، تلك التي لا يعيها الممثلون الزائلون وعيـاً كاملاً . بيد ان المؤرخ يشعر ساعتئذ بكثير من التواضع بنقص وركاكة ما لديه من وسائل تحليل .

ان بعض التفسيرات التي قد تقنع في حالات اخرى يجب اقصاؤها في الحالة التي تعنينـــا . فمستنداتنا لا تجيز لنا البتة مثلاً التفكير بضرورة ملحة اوجدتها كثافـة السكان ؛ ولا يبدو ان

روما قدّ لمست وجوب توسيع « نطاقها الحيوي » ، وان تأسيس مستعمراتهـــا الاولى ، وهو متأخر نسبياً على نقيض ما جاء في التقليد ، انما كان استجابة لاهدافها العسكرية قبل ان يكون معالجة لمعضلة تزايد السكان . وليس كذلك ، طيلة القسم الاكبر من هـــذه القرون الخمسة ، من معضلة اقتصادية او من معضلة اجتماعية من شأنها ان تحمل روما على البحث عن حلها بواسطة الفتح : فلم تبرز مثل هذه الاسباب الا بعد ذلك بزمن ، اي بعد ان اثارتها الحروب السابقـة . وليس ايضاً من نظام سياسي او اجتماعي يحل في المرتبة الاولى طبقة يؤلف المحارب فيها نموذجاً مثالياً ويتلقى تربية ادبية وطبيعية توجه بالتفضيل الى الحرب : وقد نبحث دون جـــدوى في عهود روما الاولى ، باستثناء بعض الاشخاص النادرين ، عن بطل الملحمة الهوميروسية الذي ينزع الى المجد وملذات الحياة المادية ، او النبيل المغامر — الذي عرفته اليونان في عهدها القديم ايضاً — المستعد لكل شيء في سبيل ارضاء طموحـه الى السلطة . وليس هنالك اخيراً اي اثر لحرب عقائدية : فان رومـــا لم تفرض يوماً لا تنظيمها ولا ديانتها . وقد جاز لها الاعتقاد احيانا ، كجمهورية ، بان الملوك يمقتونها بسبب ذلك ويستهدفونها باحـــلافهم . ولكن شيبيون لم يكن كاذباً حين اعلن باسمها انها ليست ساعية لقلب الملكيات . اجل لقـــد اظهرت ، كجمهورية محافظة ، مزيداً من العداء المستحكم للنظم الثورية ، ولكنها قد انتهت راضية اكثر من مرة الى الاتفاق معهم ، مكتفية بمحاولة اتقاء العدوى .

بيد ان هذا الاستعمار لا ينجو بالكلّية من الاسباب العامة التي خلقت قبـــله أو بعده ، أسباباً أخرى عديدة . ولن يعترض أحد على ذكر الطمع بينها : فمن حيث أن الشعب الروماني شعب فلاحين فانه قد طمع في أراضي جيرانه لا سيما حين تكون اكثر خصباً او افضل استثماراً . ومن حيث انـه استوطن اقليماً تمر فيه بعض الطرق ، فإنه قد صمّم عـلى الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها وعلى زيادة هذه المكاسب . وقد صمم أيضاً على الحصول بسهولة على بعض المواد الخام . ولكن لهذا الطمع البدائي حدوده ؛ ويبدو ان مثل رومـــا لا يجوز معه التراجع أمام تفسير لا تحلّه عادة في المركز اللائق به . فيبدو في الحقيقة ان رومـــا لم تخضع لجاذب المكاسب الفورية خضوعها للخوف الذي أثار في كل زمان حروباً يفسّرها كل من الخصوم ، بسلامة طويّة تامة ، كحروب دفاعية حيث يعتبر وجوده بالذات مهدداً ، وحيث غالبـاً ما يشكل هذا الوجود ، في الواقع ، الهدف الحقيقي . واننا نلمس ، في رومـــا الجمهورية ، هذا الشعور المتزايد والحـــاد جداً في اليونان — الكلام عن العصور القديمة — بأن سلامة دولة من الدول تعرّض للخطر بمجرد قيام دولة أخرى مجاورة اذا ما بدت قواهـــا متعادلة أو بمجرد احتمال تحالف لا تكون هي أحد اطرافه ، اذ ان حرصها على المحافظة على استقلالها يدعوها الى القضاء على استقلال غيرهـــا . فالحروب ، من ثمّ ، والفتوحات ، اذا أمنت الحروب النصر ، يستند بعضها الى بعض ، لأن توسعه يمتلكاتها يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع .

فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه باطراد الى آفاق أبعد ، بحيث لا يكون له حدود بالتالي سوى حدود الأرض المأهولة .

الأسباب الثانويـــة

ليس من المناسب هنا التبسط في هذا التفسير . واننا نسرع الى القول ، بالاضافة الى ذلك ، انـه اذا كان تاريخ الفتوحات الرومانية ، حتى آخر الجمهورية وأبعد من ذلك ، غنياً بالأمثلة الخليقة بتأييد هذا التفسير ، فإن عوامـل أخرى تفعل فعلهـا أيضاً ، مطردة القوة والتنوع ، لا سيما انطلاقاً من القرن الثاني . ولكنها عوامل ثانوية .

فهنالك التيه الروماني ، وهو راسخ في القدم ، أو غير حديث العهد على كل حال ، ويسفر عن نتائج متنوعة جداً . أجل انه لا يدفع دفعاً مباشراً الى التوسع حين يسهم في الهـام ذاك العناد الجموح الذي أعطى عنه الحكام والشعب بكلّيته البراهين الكثيرة في وجه أشد الصعوبات تعقيداً ، أمام الغاليين وأمـام هنيبعل على السواء . ولكنه بعد ذلك بزمن ، ازداد بفعل الانتصارات المتواصلة العظيمة فأدخـل في نفوس الجميع – أو في نفوس الاغلبية ، إذ ان شيبيون اميليانوس الذي فكر في انه ليس من قوّة دائمـة وان وطنه سيعرف يوماً من الأيام المصير نفسه ، فبكى على أطلال قرطاجة التي كان قد هدمها – ثقة لا حدّ لها في مصير روما ، هي الكفيل بنجاح جميع مشاريعها . ولو جـاز للمؤرخ نسيان المعنى الخاص الذي ينطوي عليه التعبير في تاريخ اسرائيل ، لأمكن القول ان الشعب الروماني انتهى الى الاعتقاد انه الشعب المختـار أيضاً . وان هو لمس انه الأقوى ، فلا يثير فيه ذلك أية دهشة لأنه يعتبر نفسه أعظم الشعوب عدلاً وفضيلة وتقوى . وهذه كلها افضليات تبرر في نظره الهبـات التي تغدقها عليـه الآلهة . ولكنها كلها دوافع لإقناعه بأن أي شعب آخر لا يستطيع ولا يجب ان يقف في وجهه . وقد أصبحت روما « المدينة » بالذات ، التي ألقيت على عاتقها رسالة اخضاع العالم والتي تخضعه بالاقتصاص دون شفقة من العصاة بممارسة حق المنتصر بكماله في هدم قرطاجة وكورنثس في السنة ١٤٦ ، ونومانس (*Numance*) في السنة ١٣٣ .

وهنالك ايضاً ، في الوقت نفسه ، شهوة الذهب ، والبؤس ، وكلاهمـا قد زادهما أو أوجدهما الفتح الذي قلب الاقتصاد والمجتمع . فان رجال الاعمـال الجشعين يبتغون استثمار نطاقات جديدة ، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمن لهم الغنائم والمكافآت . وبفعل مصادرة ثروات العدو وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين وأعطيات الحلفـاء المتملقين الى القوة والجزى السنوية التي تدفعهـا المقاطعات ، بلغت أرباح الاستعمار درجة حصلت معهـا عامة الشعب على قسطها من سخاء الدولة ، وساندت بحماس سياسة تؤمن لها مثل هذا الكسب . وقد تجاوز بعض رجـال الدولة أنفسهم من ذوي الشأن هذه الأنانية ، فارتأوا أحياناً ان الحرب والفتح قد يساعدان عـلى معالجة صعوبات داخلية ، اما بخلق عملية إلهاء وإمـا بزيادة الموارد المالية .

وهنالك اخيراً انفلات الأطماع الفردية . استحق النصر أبداً للقائد ، اذا كان حاسماً في نظر مجلس الشيوخ ، مجد « موكب النصر » ، وهو احتفال موروث عن الاتروسك ، يرتدي فيه الرئيس المنتصر الحلّة البرفيرية المطرزة بالذهب ، ويصبغ وجهه بلون أحمر ، ويحمل تاجاً ذهبياً ، ويمسك بالصولجان ، ويمثل جوبتير نفسه ، ثم يصعد الى عربة يتقدمها موكب المغانم المستولى عليها ، ويسير وراءها جنوده مدججين بالسلاح حتى معبد جوبتير الكابيتولي . ولكنه عند نهاية الاحتفال يبرهن عن خضوعه للأنظمة الجماعية ، ويعود الى صفوف أمثاله متحلياً بسمعة خادم الدولة الأمين . بيد ان عدوى الأفكار والعادات الهلينية ، من جهة ، والامكانات التي توفرت للرجل الماهر والقوي بفعل انقصام التوازن الاجتماعي القديم وتخلخل النظام السياسي ، من جهة ثانية ، قد اعطت قوة فائقة للجاذب الذي توحيه القيادات العسكرية الكبرى . فان ما تستطيع ان توفره منذ الآن هو المجد الذي يسحر الجماهير ، وهي الثروات التي يشترى بواسطتها التفاني ويتزايد عدد الزبن ، وهم الجنود الذين يرون فيه حبيب الالوهة ويقررون له « موكب النصر » قبل ان يبدي مجلس الشيوخ رأيه ، ويتخذون المبادهة — ويعود اول مثل أكيد عن ذلك الى السنة ٢٠٩ — ويعلنونه امبراطوراً في ساحة الوغى ثم يصبحون مستعدين ، بعد انقضاء قرن ، لأن يسيروا وراءه حتى في الحرب الاهلية . فخلق الفتح الظروف المادية والادبية للفوضى الداخلية ودفعت الفوضى بدورها الى الفتح . وأعلنت بعض الحروب ، دونما تقيد بالاصول الدستورية ، سعياً وراء النصر ووسعت الامبراطورية سعياً من القائد وراء ربط اسمه باخضاع أقاليم جديدة .

مقاومات سريعة الزوال ودون جدوى

لم تحدث طفرات الاستعمار هذه دون ان تصادف مقاومة . ولكن المقاومة ، بعد كل حساب ، كانت هزيلة ودون جدوى . فقد حارب كاطون(*Caton*)القديم فساد الاخلاق الذي جرّ اليه مثل الشرق اليوناني ، كما حارب تحرر زعماء الجيش واختلاساتهم . ولكن عمله الشخصي ، العسكري او الدبلوماسي ، في اسبانيا واليونان على السواء ، وعناده في محاربة قرطاجة ، يبرهنان ، بما فيه الكفاية ، مع ذلك ، انه لا يذهب من المعلول الى العلّة لاقناع مواطنيه بالاعتدال . وحين ذرف شيبيون اميليانوس ، في السنة ١٤٦ ، الدموع السخية امام اطلال قرطاجة المحترقة ، لم يحمله ذلك قط على كبح غضبه وعنفه ، اذ انه قد برهن بعد ثلاثة عشر سنة عن عزم مماثل لا يعرف للشفقة معنى في حصار وهدم « نومانس » في اسبانيا ، اما التقليد الذي يعزو اليه قوله « ان وضع الشعب الروماني سليم وعظيم » والذي يفترض فيه الخشية من توسع لا حد له لم يبرز الى حيّز الوجود إلا بعد ذلك بزمن ، حين نزل الامبراطوران الاولان ، اوغسطس (***Auguste***) ثم طيباريوس (*Tibère*) ، عند الضرورة الملحة باعتماد سياسة دفاعية فقط .

اتخذ مجلس الشيوخ ، حتى في النصف الاول من القرن الثاني ، تدابير عنيفة حقاً وغريبة عن كل تصميم متلاحم ضد اساءة استثمار رجال المال للفتوحات . ففي السنة ١٦٧ مثلاً ، حينما شعر

بعجزه عن مراقبة سوء تصرفهم في ممتلكات الدولة ، اذا ما ثبتوا اقدامهم فيها ، آثر ان يحظر كل عمل في هذه الممتلكات ، اعني بها مناجم المعادن الثمينة والاملاك الريفية والحرجيـــة التي انتقلت الى روما، بعد سحق الملك « بيرسا » (*Persée*) ، في مقدونيا . ولكن اشمئزازه الظاهر من بروز طبقات اجتماعية جديدة لا يمنعه من ان يوعز ، او اقله من ان يقبل بالنزاعـات العظمى التي تفتح امام مستقبل روما آفاق الامبراطورية المتوسطية . ولسنا نلمس اي اعتبار اقتصادي له وزنه في اسباب الحربين البونيقيتين الاولين او الحروب ضد الملكيات الانتيغونية والسلوقية . وعلى الرغم من ذلك فان هذه الحروب قد اندلعت واعطت ثماراً طيبة : فقد كسبت رومـا في الاولين ، منذ القرن الثالث ، صقليا وسردينيا واسبانيـا ، كما أسفرت الحروب الاخيرة ، في ثلاثين سنة ، من السنة ١٩٧ حتى السنة ١٦٨ ، عن بسط سيطرتها على الشرق الايجي .

وقد اعار مجلس الشيوخ نفسه ، من جهة ثانية ، اذناً اكثر اصغاء الى نداء المصالح . فان رؤوس الاموال الموظفـة في افريقيا في ايام جوغورتا *Jugurtha* ولا سيما في الشرق في ايام ميتريدات *Mithridate* ، رومانية كانت ام ايطالية ، اعظم واكثر تفرعـاً ايضاً ، حتى بين مجلس الشيوخ ، من ان يقدم هـذا الاخير على اهمالها . ولكن اين يقف الدفاع عنها واين تبتدىء المساعـدة المقدمة للمشاريع الجديدة ؟ فقـد اصبح محتومـاً على التوسع العسكري ، في القرن الأخير من العهـد الجمهوري ، وباعتراف مجلس الشيوخ ، ان يخدم اكثر من مرة التوسع الاقتصادي .

وكذلـك فان الشكوك الطبيعية التي يثيرها الرجال « المتفوقون » في ارستوقراطية مجلس الشيوخ قلمـا توصلت الى شل عمل هؤلاء الرجال. فمنذ عهد مبكر ، اي منذ الحرب البونيقية الثانية ، لمست هذه الارستوقراطية الخطر الذي يشكله الزعماء المنتصرون ، المتمتعون بتعلق الجماهير المتحمسة والواثقون من اخلاص جيوشهم ، على الانظمة الجمهورية ، اي عليها هي بالذات. ولكنها لا تتوانى ، حتى بالانتقاص من الشرعية ، في اللجوء الى مواهبهم حين تدعو الحاجـة الى ذلك ، سعيدة جداً اذا ما استطاعت اذ ذاك وضع ثقتها في شيبيون اميليانوس مثلاً. وكثيراً ما ترتكب الاخطاء ايضاً ، بفعل الكلل او العمه ، كما حدث لها حين اسندت الى قيصر ، الذي كان لها عليه اكثر من مأخذ ، ادارة غاليا النار بونية ، بالاضافة الى غاليا مـا وراء الألب التي اسند الشعب ادارتها اليه لمدة خمس سنوات ، فقد اتاح هـذا القرار المفاجىء ، لقيصر ، ان يحصل ، باخضاعه ما تبقى من غاليا ، على كل ما كان مفتقراً اليـه حتى ذاك التاريخ ، اي المجد والثروة والجوقات . اما السياسة التي غالباً ما اعتمدت في الواقع فتقوم على خلق التنافس بين ذوي الطموح ، وعند الحاجـة على تسهيل بروز منافس بغية رفعه الى مصف غيره ؛ فان اختيار ت. كوينكتيوس فلامينينوس مثلاً ، في السنة ١٩٩ ، وهو ضِلٌّ بن ضل قبلاً ، لادارة شؤون الحرب ضد المقدوني فيلبوس الخامس ، وابقاءه في اليونان حتى السنة ١٩٤ ، يستجيبان دونما ريب للرغبة في ايجـاد منافس مجيد لشيبيون المنتصر على هنيبعل في السنة ٢٠٢ . ولكن

مثل هـــذه المنافسات ، التي لا مخرج لهـا احياناً سوى الحرب الاهلية ، — ماريوس وسيلا ، وبومبيوس وقيصر مثلا — تؤدي الى السرعة في التوسع لا الى الحد منه ؛ امـــا مثل مصر فمثل شاذ اذ ان ضمها ، الناضج منذ زمن بعيد ، لم يتحقق في ايام الجمهورية لان من شأنه ايقاظ المزيد من المطامع وجعل من يحققه على جانب كبير من القوة .

تناقض ورهن

بديهي ، في مثل هـذه الظروف ، ان السياسة الخارجية لروما الجمهورية لا تنطوي ، اذا ما نظرنا اليها في جزئياتها ، على استمرار العظمة الذي توحيه الينا نظرة سطحية . ويبدو مغرياً ان نعزو اليهـا المخططات العميقة المدروسة والاساليب التي يحسن فيها تعيين مقدار العنف والحيلة. فقد طاب لبوسّويه (*Bossuet*) مثلاً التأكيد بأن الرومان « أرادوا ان يخضع لهم كل شيء ، وهدفوا في الحقيقـة الى اظلال جيرانهم اولاً والعالم كلّه ثانياً في فيء شرائعهم » . ويطيب لأكثر من مؤرخ معاصر ، في كلامه عن دبلوماسيتهم التي قـــد يستهدفها « الخطاب حول التاريخ العام » من زاوية مرتفعة جداً ، والتي يفرض احترام وقائعها على علماء البحث فحصاً أكثر دقـــة ، ان يفكر بصددها بكلمة « ماكيافيلية » . ولكنه يصبح من العبث حينذاك تبيـــان المنعطفات والمنعرجات ، المدهشة في أغلب الاحيان ، التي تصفها ، اذ ان تأثيرات جماعية وفردية كثيرة تفعل فيها فعلها .

والحقيقة هي ان الحكام الرومانيين يخضعون احياناً للاقدام والمجازفة ويستسلمون احياناً أخرى الى كل تراخ مخز . وقد يرتكبون اخطـــاء جسيمة في التقدير لأنهم لم يحصلوا على نعمة العصمة في إدراك الامور قبل وقوعها من أية عناية إلهية ، وقد يخشون شيئاً تافهاً او يقلّلون من أهمية الاخطار التي يسهل اليوم ، بعد ان عرفنا ما صاروا اليه ، تبين نشأتها والظروف المؤاتية ، المهملة ، لازالتها دون كبير جهد . يتوجب عليهم توزيـع امكانات عنايتهم بين مصالحهم الشخصية الكثيرة والمخطط العام لسياستهم الداخلية والخارجية والحوادث اليومية التي تعرقلها او تنهكها. ويتطورون تطوراً لاواعياً ، من جيـــل الى آخر ، ولا يتوصلون ابداً الى تحقيق التضامن الكامل في جيل واحد . فهم بالاختصار رجال كسواهم ، وهم ، اذا حصرنا الكلام عن الهيئـة التي تنهض بأثقل مسؤولية واطولها مدى ، جمعية مؤلفة من ٣٠٠ رجل يمتـــد عملها الى عدّة قرون ، ولا يجوز إهمال ما تستلزمه هذه التحاديد من انهيار وتناقض وتردد وتقصير .

بيد ان عملهم حقيقـــة واقعة ، ولن يرضى أي رجل عاقل بنسبته الى المصادفة فحسب . فيجب بالتـــالي الاقرار بصفات الاداة العسكرية التي توفرت لروما ، وهي في الحقيقة صفات نادرة تحلى بها بعض القادة وبرزت في بعض العهود .

٢ ـ الشؤون العسكرية

الكوارث العسكرية

من الاعتباط ان نحقر اعداء روما . فدونما حاجة بنا للعودة الى نشأتهـا الوضيعة ، يجب علينا التذكير بانها ، حتى بعد ان تجمعت لديهـا الوسائل

الكثيرة والقوية ، غالباً مـــا واجهت اعداء لا يستهان بقوتهم .

ولعل من المغالطة الظاهرة القول إن اسهل هذه الحروب الهامة عليهـــا تلك التي واجهت فيها اكثر الاعداء اجـــاداً ، اي الملكيات التي تأسست بعد فتح الاسكندر ؛ فاذا ما ابدى الجيش المقدوني القومي مقاومة تذكر ، اقله في العمليات التي سبقت معركتي «سينو سيفال» و« بيدنا »الحاسمتين ، فقد انهارت سلطة السلوقي انطيوخوس الثالث « الكبير » في مغنيزيا بعد حملة لم تكن للجوقات الرومانية سوى مسيرة طويلة انطلاقاً من شواطىء الادرياتيك حتى بلاد ليديا.وفي الواقع فان الجيوش الهلينية التي لم يكن على رأسها قادة من امثال فيلبوس الثاني او الاسكندر قد اصيبت بالجمود منذ قرن ونصف . فقد كانت تعيش على امجاد ماضيها .

بيد ان اعداء آخرين كثيرين ، بفضل نجابة احـد القادة او عناد الشعب ، قد صمدوا صموداً طويلاً امام روما وانزلوا بها هزائم مدوية كان من ضروب المعجزة احياناً ان تستعيد قواهـــا بعدها . وليست هزيمة كانا *Cannes* سوى اخطر هذه الهزائم بسبب فداحة الخسارة فيها ، التي تقدر ، وفقـاً لافضل ما لدينا من مصادر بـ ٧٢٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠٠ اسير من اصل ٨٦٠٠٠ جندي اشتركوا في المعركة تقريباً . وكانت« كانا »، في اقل من سنتين انتصار هنيبعل الرابع ! واذا ما رجعنا الى تاريخ الجمهورية العسكري واستعرضناه من اوله الى آخره ، يتضح لنـــا انه يقدم لنـــا لائحة طويلة من النكبات كان بعضها مخـــازي حقيقية كما حدث في اسبانيا امام « السلتيبير » في « نومانس » ، وفي افريقيـــا امام « جوغورتا » ، وفي « اورانج » امام « السمبر » و« التوتونز » .

التكيف الدائم

اما ما يدعو الى الاعجاب ، بقدر ما يدعو اليه التصلب ، فهو المرونة وقابليـة التكيف التي يبرهن عنها هـــذا التاريخ . فمن النادر ان تبتدىء حرب بانتصارات صاعقة : قـد تكون روما غير مستعدة في الوقت اللازم ، وقد تكون تأخرت في نقل قواها الى ساحة القتال او أسندت قيادتها الى قائد ضعيف او أخذت على حين غرة بأساليب عدو او بلاد لم يسبق لها ان خبرتها خبرة كافية . ولكنها بسرعة متفاوتة ، تحسّن تنظيم مجهودها وتكتشف الرجل الكفء وتدخل الاصلاح على تسلحهـــا وتبتكر وتعتمد ستراتيجية او خطة جديدة : والفارتيون هم الوحيـدون الذين سدوا عليها جميع هـــذه الابواب — ولم تنجح الامبراطورية نفسها ، بعد الجمهورية ، في فتحها .

ابدى بوليب ، الواسع الاطلاع وذو الاختصاص .والشغف بالفن العسكري ، الملاحظـــة التالية : « تفوق الرومان على كل شعب آخر في معرفة تغيير عاداتهم واستبدالها بافضل منها ». وقد قصد بذلك الاقتباسات التي كانت في الواقع كثيرة ومتنوعة : كاقتباس الترس المحدب على استطالة عن الغاليين ، واقتباس « البيلوم » عن « السمنيين » ، وهو قطعة حديد ضامرة مثبتة في ساق من الخشب خفيفة الوزن بحيث يستطيع كل جندي ان يحمل منها اثنتين ، ومتوازنة ، على

الرغم من طولها البالغ مترين تقريباً ، بحيث يمكن القاؤها باليد على جيش الاعـــداء ، واقتباس الخنجر القصير ، الصالح للاستعمال حـــداً وشفراً ، عن الايبيريين ، واقتباس اسلحة الفرسان ، الرمح ذي الحدين المعدنيين والدرع والترس المتين عن الاغريق ، واقتباس الآلات الحربية الثقيلة عن الاغريق ايضاً وعن القرطاجيين . ولما كان الرومان يجهلون في البـدء كل شيء عن شؤون البحر ، فقد طلبوا الى نجاريهم ، في اول الحرب البونيقية الاولى ، ان يمتثلوا صناعة مركب كبير من مراكب الاعداء وقع في ايديهم . وقـــد استخدموا ، على غرار الجيوش القرطاجية والهلينية ، وحدات من المرتزقة والحلفاء الذين يحتفظون باسلحتهم واساليبهم القوميـة في المعركة : فرساناً نوميديين اتاحوا لشيبيون التغلب على هنيبعل ، ونبالين كريتيين وباليـاريين استخدمهم قيصر حتى في شمالي غاليا ، وفرساناً غاليين ، ثم فرساناً جرمانيين ابان انتفاضة فرسنجيتوريكس *Vercingétorix* الكبرى . لا بل انهم غامروا ، دونما افادة كبرى على كل حال ، بان احضروا الى اليونان وآسيا فيلة حرب تسلموها من قرطاجة المغلوبة على نفسها .

ولكن بوليب قد شدد ايضاً ، في البحث الشهير الذي كرسه للجيش الرومـاني ، على بعض صفاته المميزة . فامتدح بنوع خاص روح التنظيم التي كانت تتجلى في عمليتي التجنيد والتعبئة ، والحرص على ان لا يتوقف الجيش ، حتى ليلة واحدة ، دون ان يشيّد له معسكر نظامي ويحاط بخندق ومنحدر وحباك ، واليمين التي يقسمها الجنود في بدء كل حملة ، وقوة النظام التي تعززها العقوبات الصارمة بما فيهـــا القرع والموت ، حتى النصف الاول من القرن الثاني ، والمكافآت ، تيجاناً واوسمة واسلحة شرفية ، التي تبرهن للمواطنين ان حاملهـا قد اتى مأثرة من المآثر . وكم كنا نود في الحقيقة معرفة ما اذا كان كل ذلك ينسب الى الرومان ام يعود الى عـــادات مشتركة بين شعوب كثيرة من شعوب ايطاليـــا الوسطى ، ولكن رغبتنا ابعد من ان تلقى اجابة اكيدة .

بيد ان تأكدنا يزداد بصدد التحسينات التقنية التي تكفي بعض الامثلة عنها للدلالة على ان الرومان لم يقتصروا على الاقتباس من شتى الجهات . فقد استطاعوا مثلاً اكتشاف علاج مؤقت لتلافي سوء خبرتهم البحرية الذي حال دون قيامهم ببناء سفن خفيفة وسهلة القيادة على الرغم من اقتباسها عن سفن قرطاجة : فابتكروا ، لهذه الغاية ، « الغربان » ، وهي كلاليب كبيرة تؤلف جسراً ضيقاً ، وتجمد سفينة العدو بسقوطها عليهـــا وتحول المعركة البحرية ، بفعل اقتراب السفينتين الواحدة من الاخرى ، الى معركة برية . وهكذا ايضاً فانهم قد مارسوا فن حصار نظامي وثابت كثيراً ما انطوى على اجهزة هائلة للإحاطة بالمدينة المحاصرة ، وليست عمليـات حصار قرطاجة ونومانس على يد شيبيون اميليانوس وحصار « أليزيا » على يد قيصر سوى اشهر الامثلة المعروفة فقط : فالهجوم النهائي بالتالي ، حتى اذا ما بدا ضروريا ، لا يقرر الا بصورة مضمونة النتيجة على محاصرين انهكتهم المجاعة . وهكذا ، وبنوع خاص ، فانهم قـــد كيفوا وحدتهم العسكرية التقليدية ، اي الجوقة .

أداة الانتصارات الحاسمة : الجوقة في اوائل القرن الثاني

بفضل « بوليب » و « تيت – ليف » ، نحسن اليوم معرفة الجوقة في اوائل القرن الثاني . المرونة هي صفتها الاولى ؛ ويقوم النجاح الذي جعل من الجيش الروماني اول جيش في العالم ، في انه حصل على هذه المرونة دونما إضرار بالصلابة .

تبرز هذه المرونة في ضآلة مجموع افراد الجوقة ، ـ ٤٥٠٠ رجل في ظروف التجنيد العادية ، و ٥٣٠٠ عند الحاجة ـ مما يسّهل قيادتها ، في حال ان ليس هناك ما يمنع ضمّ هـــذه الوحدة الاساسية الى وحدات أخرى .

وتبرز في تنوع الجوقـــة الداخلي . فهي تؤلف جيشاً صغيراً قادراً على المحاربة مستقلاً عن غيره . ويمثل مشاة الهجوم فيها ، ويتراوح عددهم بين ٣٠٠٠ و ٣٨٠٠ رجل ، قوّة القتـــال الاولى . ويستخدم المشاة ، المسلحون بأسلحة خفيفة والبالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، في المناوشات الاولية ، فيحاولون زعزعة قوة العدو قبـــل الاصطدام الذي يتوارون عند حصوله . وتضم الجوقة اخيراً ٣٠٠ فارس يشكل عددهم الضئيل ضعف الجوقة الوحيد .

وتبرز في تجزئة وحدة المشاة الحقيقية . اجل لا شك انها قد حاربت في البدء مؤلفة كتيبة متراصة . ولكنها توزعت الآن الى ثلاثة خطوط . وحل الرمح في أسلحة جنود الصف الثالث محل « البيلوم » ، وهؤلاء اقل عدداً من جنود الصفين الآخرين ولكنهم أكبر سناً وافضل تمريناً ويلعبون دور الاحتياط .

وتبرز في تقسيم كل من هذه الخطوط الى عشرة افواج وعشرين كتيبة . اجل قد يكون هذا التقسيم قديماً ، بيد ان المؤرخين المعاصرين يذهبون اليوم الى التأكيد ان تنظيم الافواج قـد تحدّد نهائياً ابان الحرب البونيقية الثانية . تحتل الافواج مراكزها محتفظة بمسافات معينة بين بعضها في الخط الواحد وتنتظم في الخطوط الثلاثة مؤلفة ما يشبه رقعة الشطرنج ، فيدخل كل صف المعركة في الوقت اللازم ، دونما تشويش ، ويتصرف كل فوج وفقاً لمقتضيات الظروف وينتقـل لمساندة جيران يبدو عليهم الوهن او لاستثمار شجون ساحة المعركة ونقاط الضعف في جبهة العدو .

وتبرز اخيراً في الفرد نفسه الذي ينتمي الى الجوقـــة . ويشدد بوليب ، في صفحة شهيرة أخرى يفسّر فيها تفوق هذه المجموعة الحسنة التوزيع على الكتيبة المقدونية الجامدة ، على سهولة الحركة وعلى المبادهة المتروكتين لكل جندي . فانتصارات الجوقـة هي في الحقيقة انتصارات كل من جنودها ايضاً الذين أثراهم تعدد الحروب وتعاقب الحملات بخـــبرة مباشرة شخصية او بخبرة رفاق السلاح . ولم يحقق أي جيش قديم ، في وحداته او في رجاله ، وبالقدر نفسه الذي حققه الجيش الجمهوري في القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ، ذلك التحالف الوثيق بين الصفات المتوسطة في جيش ممتهن والصفات نفسها في جيش المواطنين المستعدين للتضحية الكبرى دفاعاً عن الوطن وحفاظاً على أمجاده . ولكن هذا التحالف ما كان ليدوم ابداً .

النواقص : الاسطول

أضف الى ذلك انه يجب الاشارة الى بعض النواقص حتى في هـــذا العهد العظيم .

من هذه النواقص ما لا تبرز خطورته إلا بين الحين والحين . فلا يخلو من المغالطة مثلاً ان روما قـد استولت وحافظت على امبراطورية المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حقيقي . فأوجدت هذا الاسطول، بفضل الحزم الذي تتحلى به والاستعانة خصوصاً بمدن ايطاليا الجنوبية التي أخضعتها ، حين لمست الحاجة اليه ، في حربها ضد قرطاجة مثلاً . ولكن عليها ، منـــذ صراعها ضد الملكيات الهلينية ، ان تبحث – وغالباً ما تجد – عن أكثر من عضد في الشرق نفسه ، لدى بعض الحلفـاء كأطّال او اومينوس البرغاموسي وكرودوس بنوع خاص . اضف الى ذلك انها لا تتعهد هذا الاسطول بعد زوال الحاجة التي فرضت بناءه . لذلـــك فقد تتعرض لمفاجآت مؤلمة كتلك التي دبرها لهـــا ميتريدات بالهجوم الذي شنه في السنة ٨٨ . وكثيراً ما تتغاضى ، حتى بتعريض تموينها للخطر احياناً ، عن تعاظم عمليات جريئة تنهض بهـــا قرصنة تشجع ظهورها الظروف الطبيعية والبشرية في حوض المتوسط الشرقي ، كلما تراخت قوى الامن في الدولة المسيطرة . ولكنها لم تستفد من أية أمثولة . فهي تعلم ان لديها وسائل المقاومة ، وهي تقاوم فعلاً ، ولكن في فترات متقطعة ، لأنهـــا ترفض بذل جهد مستمر . فهي إنما تتكل على جيوشها قبل كل شيء آخر ، على الرغم من التأخير الذي اتصفت به بعض اعمالها العسكرية ، ومن اكتفائها ، طيلة ثمانـين سنة ، بتحالفها مع مرسيليا للاتصال بممتلكاتها الاسبانية ، ومن ان سيادتها على قناة «اوترانت» قد بدت لها ، طيلة فترة اطول ايضاً، كافية لاحتلال اليونان البلقانية والسيطرة ، عن طريقها ، على الشرق البعيد . اما الاسكندر فقد كانت له اعذاره الاخرى في إهمال الناحية البحرية في ستراتيجيته وادارته الامبراطوريتين .

القيـــادة

ينطوي تنظيم القيادة على سيئات كثيراً ما تكون نتائجهـــا ملموسة . ولسنا نعني هنا صغار الضباط بمن فيهم قواد المئة الذين يقودون الكتائب ويقود واحد من اثنين منهم الفوج الذي تؤلف كتيبته جزءاً منه : فكلهم مختارون بين افضل الجنود . ولكن ضمانات الخبرة المماثلة لا تتوفر في كبار الضباط . فالشبان من طبقة الاشراف يخدمون في وحدة الفرسان او في الاركان العامة ، لا في وحدة المشاة ، ومع ذلك فمن بينهم ينتقى كبار الضباط العسكريين الذين ينتخبهم الشعب او يعينهم القائد بمعدل ستة في كل جوقة . والرؤساء بنوع خاص مدينون بقيادتهم لانتخابهم قضاة .

والكلام هنا عن الرؤساء حتى في جيش واحد : فقد قضى التقليد وروح النظام السائد بان يكونوا دائماً اثنين ، كالقنصلين فيما يعنينا ، يستلمان القيادة مناوبة يوماً بعد يوم. هـــذه كانت الحال حتى في معركة « كانا » في السنة ٢١٦ ولم يستند الا في وقت لاحق ، وبصورة منتظمة ، الى حجة العمليات الحاصلة على جبهات متعددة في آن واحد لتلافي محاذير النظام القاضي باسناد

قيادة كل جيش الى رئيس مستقل . ومهما يكن من الامر فان هذا الرئيس ، مبدئياً ، يستبدل كل سنة . اجل ان مجلس الشيوخ يسهر ويوجه الانتخابات ويقول كلمته في توزيع القيادات و « يمدد » اكثر من سنة ولاية القاضي الذي يرضى هو عنه ، الخ . ولكن هذه التدابير ليست سوى تدابير مؤقتة . فلما كان غريباً عن المعقول ان يسند هذا المركز اكثر من مرة الى الرجل الواحد ، حتى بعد امد طويل ، اصبح من الواجب اكتشاف قنصلين جديدين ، كل سنتين ، يتحليان بما يجعلهما قائدين جيدين ، وهذه لعمري معجزة تفوق امكانات اي مجتمع من المجتمعات ، حتى ولو لم يكن للعوامل الاخرى اي ضلع في تعيينهم . ولا مهرب لروما من هذا القياس ذي الحدين : فأمّا تعاقب رؤساء سريعي الزوال ، وقليلي الخبرة غالباً ، وعاجزين تماماً أحياناً ؛ واما خطر الموت الذي يتمثل ، لنظمها الجمهورية ، ببعض القادة الذين يضطرها إلحاح الظروف لأن تحلّهم مركزاً ممتازاً أو لأن تسمح لهم باحتلاله .

التجنيد وعدد الجنود الحقيقي

ليست معضلة عدد الجنود ، والتطور الذي يدخله على التجنيد بأقل خطورة من هذه الظاهرة .

كل شيء في منتهى السهولة نظرياً . فإن القانون المرتكز على ما جرت عليه عادة قديمة في تسريح الجيش أثناء فصل الامطار ، ينصّ على ان كل مواطن ، ابتداء من السابعة عشرة ، يمكن دعوته الى الخدمة للاشتراك في ستة عشر حملة اذا انتمى الى إحدى وحدات المشاة ، وفي عشر حملات اذا انتمى الى احدى وحدات الفرسان : فيختار القناصل على هواهم — وترتبط كلمة « جوقة » اشتقاقاً بمفهوم الاختيار — الرجال الذين ستتألف منهم جيوشهم . أضف الى ذلك ان روما قد احتفظت لنفسها بحق طلب المجندين من جماعات الايطاليين المرتبطين بها وفاقاً لأنظمة مختلفة دون ان يتمتعوا بحقوق المواطنية الرومانية ؛ وبعد التحاقهم بالجيش ، يولّى عليهم رؤساء من الرومان ، فيحاربون الى جانب الجوقات دونما انضمام فعلي إليها . أجل هنالك نصوص تحدّد ، فيما يتعلق بعددهم ، متطلبات روما المحتملة ؛ ولكن المصلحة العامة ، في حال تعرّض ايطاليا لغزو مثلاً ، تسمح لها بتجاوزها . لذلك ، فان مبدأ الخدمة العسكرية الاجبارية ينوء بثقله على كافة الرجال الأحرار في شبه الجزيرة . ففي السنة ٢٢٥ ، أي سبع سنوات قبل اندلاع الحرب البونيقية الثانية ، بلغ مجموع الرجال الممكن تعبئتهم ٧٠٠ ٠٠٠ رجل ، منهم ٢٥٠ ٠٠٠ مواطن روماني تقريباً .

بيد ان هذه الاعداد الضخمة نظرية ، لأن لواقع الواجبات المالية أثره كما في المدن اليونانية ، وللأسباب نفسها : فعلى الجندي ، من جهة ، أن يتحمّل نفقات سلاحه الشخصي ، أقله بتسديدها من مرتب أُقرّ في عهد باكر وجعل متساوياً لجميع المشاة ؛ ويرى الاغنياء لزاماً عليهم ، من جهة ثانية ، ان يدافعوا عن ممتلكاتهم التي تعرّضها الحرب للخطر ، أو انهم يبدون جزيداً من الاندفاع ، كما يسود الاعتقاد ، في الذود عنها . ولذلك فان الفقراء لا يخدمون

إلا في الاسطول ، حين يكون هنالك اسطول ، باستثناء حالة واحدة ، تقرّ فيها التعبئة العامة التي يوجبها الاضطراب ؛ وقد واجه المسؤولون هذه الحالة ، دون ان يحققوها ، لآخر مرة ، في السنة ٢٢٥ ، حين بلغ الخطر الغاليّ الذروة . اما الآخرون فيقدمون ، بحسب ثروتهم ، مشاة الوحدات الخفيفة ومشاة الخطوط الهجومية ، بينما يؤمن الأثرياء جنود وحدات الفرسان . ولكن لما كان الاثرياء يستطيعون ايضاً الخدمة في الاركان العامة او القيام بوظائف عامة تعفيهم من التجنيد ، فان عدد الفرسان المواطنين يبقى على الدوام ناقصاً . وتقع معظم الاعباء العسكرية ، في الواقع ، كما في اليونان الكلاسيكية أيضاً ، على الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها الفلاحون الملاّكون .

ومن البديهي ان هذه الطبقة ليست معيناً لا ينضب .

في الظروف العادية ، تجمع أربع جوقات سنوياً ، أي ١٨ ٠٠٠ مواطن ، يُضمّ اليها ايطاليون أكثر عدداً بقليل ، لا سيما في وحدات الفرسان . ولكن الحاجة قد ازدادت ابتداء من الحرب البونيقية الثانية . فبلغ عدد الجوقات ، إبان هذه الحرب ، خمساً وعشرين جوقة ؛ وليس من النادر ، بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، وحتى السنة ١٦٧ حيث يؤلف نص « تيت ليف » آخر مستنداتنا ، ان تجمع أربعة عشر أو خمسة عشر جوقة ، غالباً ما يتجاوز أفرادها الخمسة آلاف رجل ، بينما تزداد نسبة الايطاليين حتى تبلغ ثلثي العدد الإجمالي . ولا يعني ذلك ان القوى التي تشترك في المعارك تتجاوز ، في ساحة القتال ، الاعداد التي توصلت اليها من قبل الملكيات الهلينية في النزاعات التي قامت بينها ، حيث يبلغ الجيش ٠٠٠ ٧٥ كحدّ أعلى . ولما كانت روما حائزة على النوعية فقد اعتبرت من العبث ان تتفوق على خصومها عددياً : فليس من ريب مثلاً في ان الامبراطورية الفارسية كانت قد جمعت كتلاً تتجاوز هذه الاعداد تجاوزاً بعيداً . ولكن تعدد مشاريعها هنا وهناك وهنالك ، قد اضطرها الى أن تحارب على عدة جبهات . وليس ما حظي بالمزيد من عناية روما هو نفسه ما قد يغرينا ان نعتبره اليوم أعظمها أهمية . وهكذا فانها تبقي في اسبانيا وايطاليا جيوشاً اعظم منها في الشرق الايجي في الوقت نفسه الذي تبسط فيه سيطرتها على هذا الأخير : ولا يأتيها العضد اللازم سوى من الحلفاء الذين تتوفق اليهم محلياً ، لأن اقتصادها الكلّي في القوى أشبه بالتقتير أحياناً . ولكن ليس تحت ذلك كبير أمر : فالمجهود الاجمالي ثقيل ، والخسائر ثقيلة ايضاً حتى ولو لم نستطع احصاءها .

أضف الى ذلك ، ان تحليل المعضلة الكامل لا يخضع للطرائق الحسابية لأنه ينطوي على مظاهر أخرى كثيرة . واخطر هذه المظاهر هو تلك الصفة القاسية التي يتسم بها الواجب القاضي على الطبقة الوسطى بالاشتراك في حملات وراء البحار تدوم سنين عدّة ، دونما عودة الى البيت العائلي في فصل الامطار . وسنبيّن في مكان آخر نتائجها الاقتصادية والاجتماعية . وقد

استفاد منها الحكام للحصول على بعض النتائج العسكرية . فقد نظم احدهم ، بعد « كانا »جوقتين من ارقاء متطوعين قدمهم اسيادهم للدولة يعتقون اذا ما برهنوا عن سلوك حسن : وهذا تجديد لم يسمع به من قبل ولن يعاد اليه بعد هذه الحرب على الرغم من ان نتائجه لم تخيب الآمال . فقد أوثر فيما بعد الاستعانة بمزيد من الايطاليين وحلفاء ما وراء البحر والمرتزقة . وقبل ان ينظم العهد الامبراطوري الدفـــاع عن الامبراطورية بواسطة سكان الاقاليم ، فتحت روما الجمهورية هذه الامبراطورية ، على غير يد الرومان .

اصلاحات ماريوس

ولكن هذه العلاجات لم تكن كافيـــة . وقد نقل الينا التقليد الفكاهي حوادث ذات مغزى : في اليونان ، منذ اوائل القرن الثاني ، طلب بعض افراد الجوقات تسريحهم بالحاح ، كما اثار التجنيد للحرب المقدونية الثالثة تشكيات حـــادة من اختيار الرجال انفسهم اكثر من مرة . وكانت الاغريقيات يفكرن بالجيش حين حاولن ايجـاد طبقة جديدة من الريفيين الملاكين . وعندما اخفق مجهودهن ، لم يبق امامهن سوى حل واحد. وهذا الحل هو الذي طبقه ماريوس في قنصليته الاولى في السنة ١٠٧ .

اعرض ماريوس في هذه السنة عن تعيين مجنديه بفعل سلطته وقرر قبول كافـــة المواطنين الذين يتقدمون للانخراط في الجيش دونما نظر الى ثروتهم او الى فقرهم . فصادفت هذه الطريقة لدى جميع الطبقات الاجتماعية نجاحاً منقطع النظير بحيث انها غدت القاعـــدة فيما بعد : واذا بقيت الخدمة العسكرية الاجبارية واردة في القانون ، فانها لم تطبق الا في حالات استثنائية ، في الحروب الاهليـــة بنوع خاص . ولا مكان لمغالاة في اطراء النتائج المختلفة التي اعطاهـــا هذا الاصلاح .

وقد تحققت اصلاحات تقنية ايضاً . فاصبح من الممكن رفع عدد الجوقـــات وسهل على روما الى حد بعيد تنظيم عدة جيوش في آن واحد لا سيما وانها انتهت بعد ذلك بوقت قصير الى منح حق مواطنيتها جميع الايطاليين . وفقدت الفروق في تسلح الجنود اسباب وجودهـــا فاضمحلت ولم تعد تعكس وضعهم المالي . وامن الحلفاء والمرتزقة دون غيرهم جنود فرق الفرسان وفرق المشاة الخفيفـــة ، وسيخدم جميع المواطنين منذ الآن في فرق المشاة الثقيلة حيث زال التمييز القديم بين الصفوف الثلاثة ايضاً . واصبح من الضروري اضافة شعبة داخلية جديدة الى هذه الوحدة التي رفع عدد افرادها الى ٦٠٠٠ رجل : فاحدثت السرية يجمع الافواج ثلاثة ثلاثة واصبحت قادرة، بعد ان جهزت تجهيزاً كافياً، على ان تقوم بعمل مستقل، حتى ولو عزلت عن الجوقة . فغدت جوقة ماريوس ، بعد هذا التنظيم ، جوقة قيصر نفسه ، وقد كانت في الحقيقة جوقة كراسوس في « كار » ايضاً ، لانها وجدت نفسها دونما منعة امام نبالين يتطون صهوات الخيول : ولكن هل كان من الممكن لسابقتها ان تبدي منعة اجدى ؟

الجندي والرئيس

بيد ان التبديل الرئيسي كان اجتماعياً ترافقه انعكاسات اخلاقية وسياسية عميقة .

لم تجند الجموقات منذ ذلك الحين ، باستثناء بعض المغامرين ، الا بين الفقراء الذين يستهويهم المرتب وامل الغنيمة بنوع خاص؛ ومن حيث ان الحياة العسكرية قد اقصت عنهم الهموم المادية، فانهم قد رضوا بخدمة اكثر تواصلا خارج ايطاليا . فاصبحوا ، بعد افتراقهم عن مواطنيهم ، جنوداً محترفين ممتازين ، ولكن دون احترام للشرائع والنظام القائم ، مستعدين لان ينفذوا بانقياد اعمى كل مهمة تطلب منهم ، حتى قلب الحكم ، لا يتعرفون الا الى الرئيس الذي خدموا تحت امرته واقسموا اليمين امامه يوم انخراطهم في الجندية والذي قادهم الى النصر .

ولكن يتوجب على هذا الرئيس ، من جهة ثانية ، ان يكون قادراً على اكتساب اخلاصهم. فقد اخفق بعض الرؤساء ، كلوكولوس مثلاً ، اخفاقاً مزريا ، بسبب حرصهم الصارم على احترام النظام وبعدهم عن مرؤوسيهم وتشبثهم بسلطتهم . وبرهن غيرهم فطريا عن الصفات التي تثير حماس القساة والبسطاء او عرفوا كيف يتحلون بها بعد اكتشاف سرها : الحزم عند الحاجة في تنفيذ المهام العسكرية ، مع التساهل المقصود ، والتغاضي عن الوساوس التي تحاصر الحيوان البشري بعد المعارك وخلالها ، وشجاعة القائد وطول اناته الشخصيان ، اذ يتحمل قسطه من المخاطر والمتاعب ، والانتباه الذي يعيره الاعمال الفردية والعدل في توزيع العقوبات والعفو والمكافآت ؛ وفن التفوه في الوقت المناسب بالالفاظ التي تشدد الهمة او تثير الحماس ؛ والقدرة على الجمع بين البساطة العائلية ، وحتى الالفة ، في اوقاتها ، وبين العظمة التي تفرض نفسها على الغير ؛ والسخاء والعدل في توزيع الغنائم ، والتأثير والمهارة السياسية اخيراً اللذان يحملان الحكومة ، عند تسريح الجيش ، على اقطاع الجندي ارضاً يؤمن له استثمارها شيخوخة هانئة ينصرف فيها الى تربية اولاده . اجل لم تكن روما ، حتى ذاك التاريخ ، لتجهل مثل هذا الانسان ، ولكنها عرفته على غير اكتمال ، او مثل شيبيون الذي انخرط في مجتمع ورئس جيشاً لم يبلغا كلاهما من النضج ما يتيح له فرض نفسه . اما من الآن فصاعداً فكل شيء يساعد على تفتحه .

يمثل اصلاح ماريوس من ثم حدثا عظيماً في تاريخ روما ، وفي عالم كامل عن طريقها . اوجدته ظروف الساعة الملحة ، فعدّلها هو بدوره وانضم الى اسباب اخرى ليحدد المستقبل . اعطى الجمهورية جيشاً افضل انطباقاً على حاجاتها ومواردها فاعطته هي مثلاً جديداً للرئيس كان ماريوس نفسه احد نماذجه وكان من المحتم ان يؤدي طموحه ، تساعده القوة المادية والسحر الآخذ من الجنود ، الى الكارثة او الدكتاتورية في هول الحروب الاهلية .

عدم الانطباق على المهام الاستعمارية

ان معضلة القيادة التي كانت في البدء عسكرية فقط ، اخذت بالتالي تزداد خطورة لانها اصبحت في آخر المطاف معضلة سياسية ايضاً . وليست هذه بين الضرورات التي خلقها الفتح، الضرورة الوحيدة التي جهلتها روما .

اجل لا يسعنا ان نعزو اليها عدم انجاز الفتح الذي نهضت به اقليمياً : فقد بدأت مرحلة الاضطرابات الكبرى اكثر من سنة بقليل بعد حملات «غاليا» ، وغدت مهمة الخلف انجاز العمل المتوقف . ولكن ما كان محققاً منه قد استلزم ، للمحافظة عليه ، جيشاً دائماً لم تفكر الجمهورية يوماً في تأمينه لنفسها .

كان من الواجب المفروض عليها ، على نهر الرين وفي البلقان وعلى نهر الفرات وفي افريقيا نفسها ، ان تكون في وضع يمكنها من مراقبة جيرانها الاقوياء او المزعجين على الاقل . وكان من الواجب عليها ، في الداخل ايضاً ، في اكثر من منطقة ، ان تفرض احترامها على سكان اخضعوا حديثاً ، او ما زالوا في حالة هيجان احياناً ، ويزيد في استعدادهم للثورة انهم تحت رحمة استثمار اميري واقتصادي لا يعرف حداً ولا يعرف للرحمة معنى . ولم يكن من حاجة ، على ما نقدر ، لبلوغ هذه الغاية المزدوجة ، لاحتلال شامل يستهدف عرض القوة . ولكن كان مفروضاً في الحكام ، على الاقل ، ان يلشئوا جهازاً عسكرياً ويبقوا بعض الحاميات في حصون قائمة في نقاط حساسة ، او وحدة على بعض الاهمية في قلب مجموعة اقليمية .

لم يحدث شيء من ذلك . فقد اهملت روما هذه الواجبات ، الا بصورة عرضية . وان قبضة الرجال التي وضعتها في الظروف العادية تحت تصرف حكام الولايات تمثل قوة رمزية اكثر منها واقعية ، اي العنصر البشري اللازم لموكب ابهة او السند الضروري لعمل بوليسي . ومن حيث هي تنكرت لمبدأ بذل جهد عسكري دائم ، فلم ترض بتجنيد جيش الا للقيام بتنفيذ مشروع معين ، كفتح جديد او هجوم معاكس او قمع ثورة . وحين تنتهي العملية وذيولها ، اي حين تضم الاقاليم او تعقد الصلح او تعيد الهدوء ، لا تتأخر قط في اعادة جنودها الى ايطاليا بغية تسريحهم معرضة نفسها بالتالي الى اخطر المفاجآت . ويمكن القول انها بعد سيادتها على امبراطورية واسعة الارجاء تشبثت بسلوك الطريقة التي سلكتها حين كانت مدينة صغيرة لا يقع على عاتقها سوى الدفاع عن اقليم محدود يسهل الوصول الى جميع اجزائه في وقت قصير جداً ، في حال ان الطرق الكبرى التي شرعت في انشائها او شقها – وهي نادرة ، على كل حال ، خارج ايطاليا : الطريق الاغناسية بين ديراخيوم وتسالونيك ، والطريق الدومسية بين نهر الرون وجبال البرانس (البيرينيه) – لم تلغ المسافات ولم تمنع البطء . فلم تع الواجبات الجديدة التي فرضتها على نفسها ، ولم تلق عليها اختباراتها نفسها اي درس لانها درجت ابداً على تفسيرها كامور عارضة .

ولو فرضنا جدلا انها وعت هذه الواجبات وفتحت اعينها جيداً ، لتوجب عليها بالمقابلة مزيد من المال ومزيد من الرجال . ولو اوجدت لنفسها ادارة ، لتوجب عليها ايضاً الاعراض عن اعتماد الوسائل المرتجلة لتموين جنودها لانه اذا صح ان الحرب قد تغذي الحرب فان وحدة مستقرة للاحتلال والحماية لا تستطيع العيش طويلاً باعتمادها على الغزو دون غيره . ولو وعت

واجباتها لتوجب عليها اخيراً تنظيم ادارة مركزية قادرة على فرض هيبتها على القـــادة وعلى تنسيق المساعدة المتبادلة . ولكن واحداً لم يتصور كل ذلك تصوراً اذ ذاك . فعوضـاً عن ان يكون لروما الجمهورية جيش واحد ، كان لها على التوالي جيوش لا تلبث عاجلاً او آجـــلاً ان تبسرحها ، مع ما يستلزم هذا التعدد المتقطع من ارتجال وتشويش وفردية في شخص الرؤساء ، وبالتالي من مخاطر عسكرية وسياسية .

وسنرى في سياق البحث ايضاً ان روما قد امتلكت اقاليم دون ان تجعل منها امبراطورية متراصة ، فكان لهذا النقص نتائجه ايضاً . ونشأت كل هـذه الشوائب من السبب نفسه . فقـد بقيت المدينة الجمهورية مدينة في فتوحاتها ، دون ان تكيف أنظمتها وفاقاً لحاجات دولة كبيرة. وكان من المقدر لها ان تموت بسبب فتوحاتها وتترك للنظام الذي سينتقل إرثها اليه أمر تنفيذ المهمة التي تنكرت هي لها .

الفصل الثاني

المدينة وفشلها

عرف العالم القديم كثيراً من المدن الاخرى . وليس من النادر في التاريخ ان تصبح المدينة جمهورية ايضاً . غير ان الأهمية الحقيقية لهذه الظاهرة تكمن في غير مكان : في تطور أنظمتها الجمهورية ، أي الاختلال الذي أدخلته عليها اسباب تسهل معرفتها . فان المدينة الجمهورية اليونانية التي طابقت ، فوق تنوع الحالات المحسوسة ، مثالاً حضارياً معيناً ، قد عرفت الانهيار بفعل انهزامها امام الملكية المقدونية . اما نجاحات الجمهورية الرومانية ، على نقيض ذلك ، فقد خلقت الازمات التي لم تفلح في التغلب عليها .

١ ـ المدينة *LA CITÉ*

المدينة اليونانية والمدينة الرومانية

ولكن يبدو ، بعد كل اعتبار ، ان هذه المدينة كانت افضل استعداداً للتوسع من مدن أخرى كثيرة . اجل لا تسمح لنا معلوماتنا حول المدن الفينيقية والاتروسكية مثلاً باجراء مقارنة ما ، ولكن المدن اليونانية ، في العهد الكلاسيكي ، التي نعرفها معرفة أوفى ، ترتدي طابعاً لا وجود له في روما : واذا كان إيضاح الفرق امراً دقيقاً في جوهره المثالي ، فانه يبدو اساسياً في نتائجه العملية .

تنكرت المدينة اليونانية لتوسيع حدودها البشرية . وقد ذهب المواطنون الذين يؤلفونها ، احياناً ، الى اقصاء أبناء الزنى وأبناء الأمهات الاجنبيات ، فلم يقبلوا برضاهم ، في صفوفهم ، سوى أبنائهم . اما اولئك الذين لم يمنحهم نسبهم هذا الحق ، فلم يحصل عليه منهم ، في أغلب الاحيان ، سوى اشخاص معينين صدرت لمصلحتهم قرارات خاصة . ويقفل باب هذه المواطنية حتى في وجه اليونانيين الذين تربطهم بهم وحدة يطيب لهم الاعتراف بها أثناء الاعياد اليونانية الجامعة ، كأنهم يحرصون ، على ما يظهر ، على إبقاء نقاوتهم العنصرية وعلى حصر التمتع بالحقوق السياسية في إطار ذوي هذه الحقوق من الشرعيين .

لا يسعنا التأكيد بأن روما لم تشعر يوماً بمثل هذه الأثرة . بيد ان تصرفها يبرهن ان هذه

الاثرة لم تسيطر فيها قط سيطرة مستمرة . وفيما يلي ناحية قانونية تدل ان هنالك اكثر من فارق بسيط . ففي اليونان ـ وفي اثينا بالتدقيق ، ولكن هذه المدينة مثال الديموقراطيات اليونانية ـ يخضع عبد المواطن الذى يعتقه سيّده لنظام هو اقرب الى نظام الاجنبي المقيم ، ولا يستطيع حفدته ان يتفلتوا منه إلا في حالة استفادتهم من تدبير فردي . اما في روما فيستفيد العبد نفسه من نظام المواطن مع بعض قيود تفرض عليه شخصياً ولا تلبث ان تزول عن حفدته ؛ ولم يكن هذا الامتياز نظرياً لأن عدد المعتقين قد تزايد باطراد . فلا مجال من ثم للدهشة امام السخاء ، المنقطع النظير في عالم المدن القديم ، وقد ميز عالم الامبراطوريات نفسه بين الرعايا ، حتى ولو جهل المواطن الذي حمل روما على منح حق مواطنيتها كاملاً ، دون ربطه بأي واجب ودون الحصول منه عَلى أية منفعة ، لرجال احرار أجانب : ولعلّ اعداءها بالأمس ، اذا كان خضوعهم على شيء من الصدق ، يحصلون على هذا الحق قبل حلفائها المتمسكين بطابعهم الخاص ، اذ ان المخضعين يستطيعون بواسطته تحسين مصيرهم .

بدأت المجموعة البشرية الاولى هذا التوسع منذ عهد باكر جداً . فمنذ القرن الرابع قبل المسيح ظهرت أسماء عائلات من الاتروسك والفولسك والكمبانيين في لوائح ارفع القضاة الرومانيين مرتبة . ولم تقص الطبقات الاجتماعية الدنيا : فان إيجاد القبائل الجديدة ، انطلاقاً من توسع الاقليم الروماني ، يرفع عدد القبائل الى خمس وثلاثين ، بينها إحدى وثلاثون قبيلة ريفية ، ويضمّهم الى المدينة . لا ريب في ان التجنس القانوني الكامل تفيد منه الارستوقراطيات والبورجوازيات النائية افادة أسرع . ولا ريب ايضاً في بروز مرحلة توقف ابتداء من منتصف القرن الثالث ، وهو التاريخ الذي يحدّد التقليد فيه بـ ٣٠٠ ٠٠٠ تقريباً عدد المواطنين البالغين ١٧ سنة على الاقل ، في حال انه يرفعه في اواخر القرن الثاني الى ٤٠٠ ٠٠٠ فقط بعد إنزاله الى اقل من ١٥٠ ٠٠٠ . ولكن « الحرب الاجتماعية » ، في اوائل القرن الاول ، تقود روما الى فتح ابوابها لجميع الايطاليين : فأصبح عدد مواطنيها ٩١٠ ٠٠٠ في السنة ٧٠ . وازداد التوسع بعد ذلك ازدياداً مطرداً سريعاً ، حتى في مصلحة سكان الاقاليم ، اما بفعل الانعامات المتفرقة التي لجأ اليها القادة في بلدان هدّأوها ونظموها ، كما فعل بومبيوس منذ السنة ٧٢ في قلب البرانس (البيرينيه) وكرر فعله في الشرق في السنوات ٦٧ ـ ٦٢ ، واما بفعل الانعامات الشاملة التي استصدر قيصر قراراً بها في السنة ٤٩ لمجموع « غاليا » الواقعة وراء جبال الالب .

هل ينمّ ذلك عن تدبير اناني ام عن سخاء؟ لا شك في ان روما تخضع لما ترى فيه مصلحتها. فهي تزيد بذلك مواردها البشرية لتجنيد جوقاتها وتأسيس مستعمراتها : في اواخر القرن الثالث استشهد احد الملوك المقدونيين بها وبالفائدة التي تجنيها من أساليبها كي يطلب الى إحدى المدن التسالية استقبال مواطنين جدد. وهي تدرك ايضاً انها تقلل بعملها هذا من مرارة الشكاوى التي قد تدفع الى الثورات ، ويثبت اخلاص سواد الايطاليين الاعظم في أسوأ ساعات الحرب ضد هنيبعل ، انها لا تتعامل دائماً مع ناكري الجميل . وليس من شك ايضاً في انها تستوحي ،

ومنذ عهد مبكر ، نظرة أكثر شمولاً منها في المدينة اليونانية ، اذ انها تزيل الحدود البشرية التي علقت المدينة اليونانية على الاحتفاظ بها أهمية كبرى . وهي فخورة باسمهـــا ، وليس حق مواطنيتها باللقب الباطل ؛ ولكنها تتحاشى ان تجعل منه احتكاراً محصوراً في طبقة وراثيـــة ضيقة . وقد اعتمدت ، منذ عهد مبكر جداً ، ودون ان يضطرهـــا الى ذلك شيء ، سياسة لم تتراءَ اثينا الديموقراطية امكان اعتمادها إلا ساعة انهيار امبراطوريتها . وينطوي مجرد هـــذا التجديد على أهميـــة عظيمة : فالمرة الاولى في التاريخ يرفع المنتصرون المغلوبين الى مستواهم ويدخلونهم في شراكتهم . وكم يؤثر في النفس مدى تطبيق روما لهذا التجديد الذي أخذ يتسع شيئاً فشيئاً حتى شمل عالماً بأكمله .

غير ان روما لا تسير قدماً في التجديد . فقد تنكرت لمثـــال المدينة المحصورة كما نادى به افلاطون وارسطو وأبقت على نظم أصبح من السخرية تطبيقها على توسعها البشري والاقليمي . وقد سبق لارسطو ان أكّد انه « لا يبقى هنالك من مدينة اذا بلغ مواطنوها الـ ١٠٠ ٠٠٠ » . بيد ان روما قد تجاوزت هذا العدد تجاوزاً كبيراً وبقيت ، على الرغم من ذلك ، منظمة كما لو كان مواطنوها ١٠ ٠٠٠ او ٢٠ ٠٠٠ . وغني عن القول ان نظمها قد تطورت ، اذ لا شيء يبقى جامداً طيلة خمسة قرون . ولكن تطورها زاد من خطورة المعاضل بدلاً من ان يحلّها .

الاقليم واقسامه القانونية

ان تتبع مراحل هـــذا التطور يتجاوز امكانات بحثنا . فمع اسفنا للتضحيات الضرورية ، نكتفي بالنظر الى الدولة الرومانية في آخر القرن الثالث والنصف الاول من القرن الثاني . كان اقليمها اذ ذاك منبسطاً جداً .

فهناك في الدرجة الاولى مدينة روما نفسها . ان الارض القائمة داخل اطار مكرس وفاقاً للطقوس تكوّن المدينة بالذات . هنا يجب تنفيذ كافة الاعمال الهامة في الحياة الدينية والحيـاة السياسية . ولا مكان في هذه الاعمال لفكرة القوة : فـلا وجود اذن للسلطة العسكرية في هذا الاطار ؛ ويتوجب عـلى مرافقي القضاة ، حين دخولهم اليـه ، ان ينزعوا فؤوسهم من حزمة القضبان ؛ ولا يجوز لاحد ، باستثناء الاحتفال بموكب النصر ، ان يظهر فيه باسلحته او ببزته الحربية . وبديهي من جهة ثانية ان المساكن مالبثت مع الزمن ان تجاوزت هذا الاطار ، فكان ان بعض الانظمة ، المطبقة فيـه فقط ، — بصدد حقوق الضباط ، مثلاً — قد اصبحت تطبق في دائرة اوسع .

ولكن روما هي « المدينة » ايضاً كما طاب لمواطنيها حينئذ وكما سيطيب لهم اكثر فاكثر ان يدعوها : والمقصود بذلك المدينة الكبرى والاقوى من كل مدينة سواها ، التي يشع مجدها وسلطتها بعيداً .

بين بحرين ، وباستثناء بعض النواحي الصغرى ، يؤلف اقليم المدينة نفسهـا ، الذي يكون فيه السكان الاحرار مواطنين عادة ، معيناً كبيراً يبلغ ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً : وهو لا يشمل سوى منطقة صغيرة جداً من الاتروسك ، بحيث ان زاويته الغربية لا تبعد عن مصب نهر

التيبر الا مسافة قليلة . ويبلغ مجموع مساحة هذا المعين ٢٥ ٠٠٠ كيلومتر مربع ، روما هي المدينة الوحيدة فيه ، وبالتالي المركز الوحيد لكل حياة رسمية . ولا تحتل المجموعات السكنية الاخرى سوى مرتبة القرى ، وتحمل اسم « البلديات » او « المستعمرات » احياناً حين توطن روما فيها رجالاً تقطعهم بعض الاراضي . ولهذه المجموعات انظمتها المحلية ، ولكن استقلالها الداخلي يبقى محدوداً جداً بفعل خضوعها لاوامر ورقابة الحكومة المركزية .

لروما « حلفاؤها » ايضاً ، وتنطبق هذه التسمية الرسمية على ما تبقى من شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص . ولكن بعض المدن الايطالية تؤلف « الحلفاء ذوي الاسم اللاتيني » ، وليس لهذا التعبير مدلول جغرافي بل قانوني فقط . فالمقصود بهذه المدن تلك التي يتمتع مواطنوها بحق شخصي شبيه بحق المواطنين الرومانيين . وان هذا النظام الذي ابتكر في الاساس لمدن الحلف اللاتيني المنضمة الى الاقليم الروماني منذ عهد قديم ، قدطبق على مدن اخرى بعيدة وعلى « المستعمرات اللاتينية » المؤسسة على صورة « المستعمرات الرومانية » ولكن لمنفعة غير المواطنين . اما « الحلفاء » دون تحديد فقد عقدت معهم روما معاهدات تنطوي بنودها على تنوع كبير : تخلت على العموم عن كل حرية في نطاق سياستها الخارجية . ولكن جميع هذه التمييزات ، في الحياة العملية ، تفقد الكثير من اهميتها . وتدرك روما انها على جانب من القوة تستطيع معه ان تتخطى الحدود التي يضعها العرف وحتى النصوص امام سلطتها : وليس من رادع ضميري يحول دون تصرف حكامها تصرف الاسياد ، قولاوفعلا ، في علاقاتهم مع « الحلفاء » ،لا فرق اذا كان هؤلاء « ذوي اسم لاتيني » ام لا .

ماذا نقول بالتالي عن الولايات ، غاليا ما وراء الالب ، صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، اسبانيا ؟ كل شيء فيها ، سكان وممتلكات ، ملك لروما بفعل الحق الذي يعطيه النصر : ويعود لها وحدها أمر تعديل « قانون الولاية » . واذا ما بقيت ، داخل اقليم الولاية او في جواره ، مدن او شعوب تدين بلقب « الحلفاء » بسبب سلوكها ابّان الفتح ، فان روما تميل الى عدم الاكتراث ، شأنها في ايطاليا ، بالمعاهدات التي أحسنت بها على هذه المدن وهذه الشعوب .

فهنالك اذن ، منذ هذا العهد ، أقاليم واسعة الأرجاء ومصائر وحياة ملايين عدّة من البشر تتصرف بها الحكومة الرومانية .

جمهورية ذات دستور « مختلط »

اننا لحسن الحظ نعرف هذه الحكومة معرفة حسنة في تنظيمها وسيرها على السواء . فروما جمهورية منذ آخر القرن السادس، وهو التاريخ الذي يعينه التقليد لنفي تاركوينوس الثاني ، ويحدّد فيه انهيار الملكية وتحرير السيادة الاتروسكية . وقد قضت بعض الموجبات الدينية بالابقاء على « ملك للضحايا » لا يستطيع ان يمارس أية وظيفة عامة أخرى . وفي حال شغور مراكز القضاء العليا ، يلجأ احياناً الى « ملك مؤقت » لا تتجاوز مدّة سلطته القصوى خمسة ايام ، ويخلفه ملك مؤقت آخر اذا

استمر الشغور مدة اطول . فقد مقتت روما لقب الملك في مفهومه العادي ، وسيهلك قيصر بخناجر المتآمرين لأن نفسه قد سوّلت له ان يحمله .

ولكن هنالك أكثر من مثال للجمهورية . وترتدي الجمهورية الرومانية نفسها أكثر من شكل. فقد بدا تنظيمها للاغريق الذين حاولوا اذ ذاك معرفتها معرفة جيدة كصورة الدستور المختلط الذي سعى واضعو النظريات عندهم ، منذ زمن بعيد ، لتحديد مثله الاعلى : دستور يستفيد في آن واحد من حسنات الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ، لأنه يقتبس بعض العناصر عن كل من هذه الانظمة ويعدّل الواحد بالآخر فيتجنب بذلك تجاوزاتها وإفسادها . وبوليب هو أشهر هؤلاء الاغريق وأكثرهم إعجاباً ، وقد وصلت الينا نبذ هامة من البحث الذي كرسه ، في اواسط القرن الثاني ، للأنظمة الرومانية ، تكوّن الاساس الذي لا غنى عنه للدرس الذي قد يحاول هذا او ذاك القيام به اليوم . ولكن الواجب يقضي في الحقيقة تصحيح استنتاجاته : فاذا اعتبر بوليب نفسه ان التوازن في طريق الانهيار ، فانه لا يرى او يتظاهر بأنه لا يرى ان التوازن الذي يغالي في اطرائه ليس في الواقع إلا ظاهراً .

١ ـ الظاهر الملكي

مناصب القضاة

منصب القاضي ، « السلطان » والدولة

يرى بوليب الملكية في القنصلية . والافضل ان يقال بمعنى اوسع ، انه يراها في مفهوم منصب القاضي . فمع ان الدكتاتورية منصب قضاء استثنائي ، فانها تنطوي على طابع اكثر ملكيـــة منه في القنصلية نفسها ، وليس القضاء ، اقله في بعض مظاهره ، ببعيد عن هذه الحقيقة ايضاً . ويستلزم التمييز بين مناصب القضاة العليا مقياساً لهذه الغاية . فما هو هذا المقياس ؟ هل هو « السلطان » *Imperium* ام السدة العاجية ، ام اهمية الوظائف الدينية ؟ ان لكل هذه المقاييس اهميتهـا . ولكن اعتماد كل منها ينتهي الى اختلاف في التصنيف : وقد تردد الرومان انفسهم معتمدين هذا المقياس تارة وذاك تارة اخرى . وخليق بنا ان نستغني عن هذا التوزيع ونقتصر على الفكرة العامة . فالقنصلية في الحقيقة هي التي تعطينا افضل مثل عنها لانها خير حافظ على وحدتهـــا الاولى ، اذ انها حلت محل القضاء بظهورها بعده . ولكن مناصب قضاة اخرى مختلفة ، وان احدثت دون منطق ، بحسب الحاجـــات او الظروف ، تعكس ايضاً ، في بعض الاحيان ، المثال الاول .

ومما يزيد في اهمية هذه الفكرة انها مبتكرة . ولا يوجب القول بذلك ، على كل حال ، ان يعود الفضل في احداثها الى روما : فان معلوماتنا الاولية حول المدن الاتروسكية والايطالية لا تسمح لنا بنفي الاقتباس عن إرث جماعي . اما الواقع الذي يجب التشديد عليه ، فهو انه ليس ما يوازي ذلك عند الاغريق .

تشتق كلمة *Magistratus* ، التي تطلق في آن واحد على الوظيفة والقائم بهـــا ، من كلمة

Magister « المعلم ». ثم ان *Magis* تعني « اكثر » ؛ لذلك فالقاضي هو « اكثر » من مواطن . فهو ، من حيث تعريفه ، ليس بخادم الجماعة ، او منفذ لقراراتها او خاضع لرقابتها واوامرهـا أو قابل العزل بإرادتها : هذا هو القاضي في الديموقراطيات اليونانية ، أو بالأحرى مـا يضطرنا فقر المفردات التاريخية الى تعيينه بهذا الاسم الذي احتفظت اللغة الفرنسية ، مـــع ذلك ، باطلاقه على القاضي (*Juge*) ببعض مفهومه اللاتيني . واذا مـا عين القاضي الروماني وفاقاً للأنظمة ، يتسلم بالوقت نفسه ، بمعزل عن الجماعـة ، وفوق الجماعة ، سلطاناً مستقلاً ، يجعل منه تجسيداً للدولة ، وممثلاً ومستعملاً لسلطتها . سلطان وسلطة : وهنـا ايضاً يردّ التضايق الى غموض المفردات العصرية ، وعدم انطباقهـا على الوقائع التي ليست مجرّد فوارق ، على الرغم من مرتكزهـا المثالي . كان الرومان يتكلمون عن الـ بوتستاس *Potestas* التي لهذا المنصب أو ذاك ، فنترجم نحن *Potestas* « بقوّة » ، في حال ان ما كان يقصد بها هو إمكانات العمل الخاصة بمنصب مـــا ، بحيث يمكن تطبيق هذا المفهوم على الأنظمة اليونانية . ولكنهم كانوا يميزونها نظرياً عن « السلطان » ، وهو مفهوم اوسع وأرفـع ، وخاصية لمناصب قضاء عدّة وللدكتاتورية ، والقنصلية والقضاء : فكان يعني ، في حال المحافظة على وحدته ، السلطة العليا في الدولة ، وحق القيادة في الحياة المدنية (« في البيت »)والحياة العسكرية . وهذا بالضبط ما جهله الاغريق .

أمام هذا الخلاف الاساسي، بين الاغريق والرومان ، يستهوينا كثيراً ، ان نربطه بالخلاف الذي بدا لنا سابقاً . فعلى نقيض روما التي تمنح حق مواطنيتها بسخاء ، تضن المدن اليونانية به ، وليس لديهـا ، عوضاً عن القضاة ، سوى موظفين فحسب : ولا شك في أن هذين التناقضين يعكسان ، على مستويين مختلفين ، تناقضاً واحداً أعظم عمقـاً . فالمدينة في نظر الاغريق هي قبـل كل شيء ، في جوهرها ، جمهور المواطنين : جمهور له فرديته ، وطـدت وحدته الوراثة الطبيعية والاتحـــاد الروحي ، الذي تتيح هذه الوراثة تفتحه ، وبالتالي جمهور معادٍ لانضمام عناصر أجنبية ، يمثـل في نظره تنازلاً وإفساداً يفقده مزايا أصله ، واخيراً، جمهور ذو سيادة في وحدته المحكمة الإقفال يجهل ، باستثناء الآلهة الذين يحمونه ، كل مـا هو سواه . أما الأساس الروحي للمدينة الرومانية فغير ذلك . فالمواطنون يقرون بأن لروما وجودها بدونهم وبأنها ، اذا ما تجسّدت في الكائن الجماعي الذي يؤلّفونه عندما يجتمعون ، تتجسد أيضاً ، في بعض الرجال الذين يمنحون بعض الضمانات . وحين يتكلم هؤلاء الرجـــال ويعملون باسم المدينة ، يمارسون حيال المواطنين سلطة ينحنون أمامهـا . فمن الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، أن يشعر جمهور المواطنين ، وهو أقـل تفاخراً بسيادة لا يحتكرها ، بأقل كراهية لانضمام الغرباء اليه . ولكن الديموقراطية الرومانية ، على كل حال ، لا تتمتع بمـلء حريتها لكي تتفتح ، إذ انه يتوجب عليهـــا ، أقله نظرياً ، وعمليـاً ايضاً في غالب الأحيان ، أن تحسب حساباً لسلطات اخرى .

الرواسب الملكية

تمثل مناصب القضاء إحدى هـــذه السلطات ، وليس من شك ، باستثناء المناصب الخاصة « بعامة الشعب » ، في ان اصولهـا ملكية . وان في بعضها استمراراً للملكية في كمالها تقريباً ، لا سيما حين تمارس قيادة عسكرية . ولم ترث مناصب أخرى عن الملكية سوى قسط محدود من خاصّياتها وسلطتها . بيد انهـــا كلها ، باستثناء المنصب المحصور دوره في التنفيذ والادارة المالية ، تتمتع بسلطة مستقلة لا يفوقها ، في حال المنافسة ، إلا سلطة منصب أرفـع . ويكفي ان نجمع بعض الخطوط ، باستعارتها خصوصاً من المناصب المنعم عليها بالسلطان ، لإظهار شأن هذه الرواسب الملكية .

ان القاضي الروماني ، وهو الوسيط الطبيعي بين المدينة والآلهـــة ، يتولى تقديم القرابين العامة ، ويعرب عن التمنيات التي تلازم رومـا ، ويدشن المعابد الجديدة ، وينظم الاعياد ، ويشرف على الاحتفال بها . وعليه ، وله وحده ايضاً ، قبل أي عمل يقوم به باسم المدينة ، ان « يستشير الطالع » ، أي ان يحاول بطرق مختلفة ، لا سيما بملاحظة طيران الطيور ، معرفة مـا اذا كان الآلهة عاطفين على المشروع .

والقاضي هو مطلق السلطة كقائد جيش . يتمتع وحده ، في رومـــا وفي الحياة المدنية ، بحق دعوة الشعب ومجلس الشيوخ اللذين لا يستطيعان بدونه أن يجتمعا أو ان يدرسا قضية لا يطيب له عرضها عليهما . يوزع العدل وفاقاً لنظم وقواعد يحددها هو نفسه ، شريطة ان يعلن عنها . ينشر القرارات . يفرض أقسى العقوبات ، وقد درج على ذلك زمناً طويلاً ، عـلى الذين يخرجون على أوامره العامة والخاصة . لا يمكن ان يعزل أو يحمل على التنازل او يلاحق عدلياً طيلة مدة ولايته .

ان في مثل هذه السلطة ما يبرر الاحترام اللائق به والشارات الخارجية التي تلفت الانظار إليه . يرتدي الحلّة المحشّاة باطار من الارجوان ويستبدله في الجندية بمعطف قائد الحرب ، وهو من الارجوان الخالص . يجلس في الاحتفالات العامة ، بينما يقف المواطنون أمامه ، ومن حقه أن يجلس ايضاً على السّدة العاجية السهلة النثي . يتقدمه في تنقلاته جنود يحملون حزماً من القضبان تتوسطها فأس ، وترمز هذه وتلك الى قدرته على الإكراه ، أي على القسر والعقاب .

التقييدات الواقعية

ولكن هذا المنصب المثالي لا وجود له في الواقع ، حيث يحزئه ويحـد منه عدد من الاعراف والمبادىء الدستورية .

فهنالك ، في الدرجة الاولى ، مناصب قضاء عدة ، ويمتلك أحدها ، منصب المحامي عن حقوق الشعب ، أسلحة كافية لشلّ كافـة المناصب الأخرى . وهنالك أخيراً اكثر من قاض أصيل لكل من هذه المناصب . ولم ينج من مبدأ هذا التعدد الشامل سوى الدكتاتورية ؛ ولكن مدّتهـا لا يمكن ان تتجاوز ستة أشهر .

ولا تدوم المناصب الاخرى طويلاً ايضاً ، من جهـــة ثانية ، على الرغم من تعدد شاغليها

الأصيلين . وهي تدفع الى الشك والتنافس بفعل مـا هي عليه ، وما تخلقه من آمال : من هنا كان الحرص عـــلى ان لا يستمر فيها أحد زمناً طويلاً . فاذا حق لمراقبي الإحصاء والأخلاق العامة أن لا يستقيلوا إلا بعد سنة ونصف ، فان القضاة الآخرين يتنازلون كلهم ، بعـد مضي سنة ، عن مراكزهم لخلفائهم . أضف الى ذلك ان الاحتياطـــات تتخذ للحيلولة دون تجديد انتخابهم أو إعادة انتخابهم في موعد قريب : فبينما استطاع بريكليس ، بطريقة شرعية جدّاً ، ان ينتخب قائداً في أثينا طيلة خمسة عشر سنة متواصلة ، فرض في رومـا ، منذ اواخر القرن الرابع ، فاصل عشر سنوات لإعادة الانتخاب للقنصلية ، الوحيدة بين المناصب التي قد يبدو دوام التربّع فيها مغرياً ، الى أن ارتأى الاخوان غراكوس وساتورنينوس ان منصب المحامـاة عن حقوق الشعب قد يكون مغرياً ايضاً . ويحول قانون صادر في أواسط القرن الثاني دون قنصلية ثانية ، ولن يجيزها مجدداً سوى « سيلاّ » باعادة فرض فاصل السنوات العشر . واذا ما شاب هذا التشريع المتقلب ، عمليـــاً ، بعض السيئات ، فانه يوحي مـع ذلك بالروح التي يستلهمها النظام .

ومن المهم ايضاً تبيان المدى الحقيقي لتعدد الشاغلين . فعـلى نقيض المدن اليونانية ، حيث يعقد القضاة الاجتماعات ، عادة ، ويتخذون مقرراتهم بالأكثرية ، نرى ان احترام روما للسلطة المستقلة التي ينعم بهـــا كل منهم ، أعظم من أن تنزع عن اعمالهم الطابع الفردي ، ولكن هذا الاستقلال الخدّاع يحدّ من حريتهم في العمل ولا يسهم قط في زيادتها . فهنالك حق النقض الذي لا يعود فقط للقاضي الأعلى بالنسبة لقرار مَن هو أدنى منه ، بل لقضاة متساوين بحيث يكفي تشبث الواحد منهم فقط لإبطال ما يقرّ عليه رأي عدد من زملائه . وليس للقاضي الفردي في الحقيقة سلطة اخرى ممتنعة سوى هذا النقض فحسب .

فهل السلطة القضائية وحتى اصدار البراءات أعظم استقلالاً ؟ ولكن القاضي مرغم على احترام القوانين ، واذا ما جعلته وظيفته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه ، فان هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطناً عادياً : فهو معرّض إذ ذاك ، دون أن يتوجب عليه تأدية الحسابات كما في أثينا ، لأن تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعي ، لأن المدّعين الجسورين كثيرون . وعليه ايضاً ، ان يحسب للعرف وللرأي العام حسابهما : فبينما يتمتع القاضي « المدني » بحق نظري يتيح له ، بنشر بيانه حين تسلّمه العمـــل ، ان يقلب ، رأساً على عقب ، القوانين والقواعد المرعية في الدعاوى التي سيبتّ بهـا ، فانه لا يحدث شيئاً الا بحكمة ويقتصر عمليـــاً ، في اكثر الأحيان ، على اعادة بيان سلفه . ولا يستطيع القاضي بنوع خاص الاستغناء عن العمـل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنوية والعملية سلطة القاضي الى حد بعيد كما سنرى ذلك في سياق البحث .

وما القول عن حق القسر ؟ يقابله حق العودة الى الشعب . ان هذا الحق الاخير لقديم حقاً ،

ويسبق التقليد تاريخ الاعتراف به بارجاعه الى عهد الملكية . وهو يوحي المزيد من الاعتزاز الى الرومان الذين يرون فيه « سور » و « حصن » حريتهم الفردية ، وللمقارنة بينه وبين قانون *Habeas corpus* البريطاني ، على هذا الصعيد ، ما يبررها كل التبرير . فهو يفتح في الواقع ، امام كل مواطن روماني ، امكان العودة الى جمعية الشعب اذا ما حكم عليه القاضي بعقوبة جسدية : فلا يبقى امام القاضي والحالة هذه سوى فرض الغرامة المالية ضمن حدود معينة . اجل لم يكن لهذه الحماية من وجود في البدء سوى على ارض الاقليم الروماني . ولكنها تمتد رويداً رويدا حتى تشمل ايطاليا والاقاليم الاخرى ؛ لا بل ان بعض القوانين جعلتها تشمل الجيوش في اوائل القرن الثاني .

لا شك في ان بعض القضاة ، لا سيا في ظروف معينة ، تصرفوا بحرية حيال هذه الاوامر : ويكفي لذلك ان نذكّر باعتراض بوبليوس غافيوس المؤثر — *Civis romanus sum* ، « انا مواطن روماني » — اثناء ضربه بالعصي وموته بعقوبة الصليب المخزية الخاصة بالعبيد ، تنفيذاً لامر « فيريس » قاضي صقليا . وفي مستنداتنا امثلة اخرى كثيرة ، دون هذا المثل شهرة لانه اعوزها فن شيشرون وحمّياه لابرازها ، ولكنها ليست دونه تعبيراً . وقد اصدر القنصل شيشرون نفسه — محتميا في الحقيقة برأي ابداه مجلس الشيوخ — قراراً بخنق شركاء كاتيلينا في المؤامرة ، في سجنهم . وأي نظام يذهب في احترام شرعيته نفسها الى حد الامتناع عن الاعتقاد بان « السلامة العامة هي القانون الاخير » ؟ واذا لم يجب فيريس على خطاب شيشرون حول العقوبات ، الذي لم يلق قط على كل حال ، فقد استطاع احد المؤرخين اخيراً ان يقدم لتبرئته اكثر من حجة لها وزنها .

بديهي ان الجيوش هي التي حصلت فيها اكثر واخطر التجاوزات على القوانين التي تحمي « ظهر » وحياة المواطنين من تعسف القضاة : فقد امر « كراسوس » و « قيصر » بالاقتراع على تعيين واعدام رجل من اصل كل عشرة رجال بين الفارين او العصاة . اجل ان للنظام العسكري موجباته التي لا يستطيع اكثر الناس تساهلا ان ينكرها — ولم يشتهر الكثير من قادة الرومان ، لا سيا العظام والمجيدون بينهم ، بفعل حنو مصطنع غريب عن التقاليد الوطنية — ولكن ما لا شك فيه ، اذا ما وضعنا هذه الضرورات جانباً ، ان سلطة القاضي وسلوكه الملكيين هما بلا مراء ، من حيث القانون والواقع ، اكثر بروزاً خارج روما منهما داخل روما والاقليم الروماني بالذات . فهو وحده في الخارج لا زميل الى جانبه يقف في وجهه : فحين يجتمع جيشان يرأسهما قاضيان متساويان ، القنصلان مثلا ، للقيام بعمل مشترك ، يتولى القيادة كل من الرئيسين يوماً واحداً بالمناوبة . ثم ان بعده يخفف من الوصاية التي يستطيع مجلس الشيوخ ممارستها حياله . وهو ، اخيراً ، يمثل روما ويتصرف بالقوة المادية التي امّنته عليها ويتعاظم بالقوة المعنوية التي تتجسد في شخصه : فلا يكون رجلا اذا ما تهرب على الدوام من النزعة الى اساءة استعمالهما .

وقد اعترف الرومان انفسهم بان الحاكم ، اي القاضي ، ملك في اقليمه : وسنرى ان ذلك لم يعد بالخير لا على الاقاليم ولا على روما .

مناصب القضاء

ليس من الضروري لعمري ، بعد هذه النظرة العامة ، ان نستعرض بالتفصيل مناصب القضاء المختلفة .

الدكتاتور قاض استثنائي يختاره ويعينه احد القناصل ، بنـاء على دعوة مجلس الشيوخ في الواقع . ومن حيث انه لا يخضع لأية رقابة او نقض ، فان له سلطة مطلقة على القضاة والمواطنين على السواء . فيتضح من ثم ان أمر تعيينه انما يتقرر لمواجهة الاخطار القصوى ، كتهديد أجنبي مداهم او فتنة خطيرة . ولكن آخر دكتاتور من هذا النوع قد عين في السنة ٢١٦ ، غداة معركة «كانا» وقد عيّن البعض منهم بعد ذلك، وكلّفوا القيام، في غياب القاضي الاصيل، بطقس ديني او سياسي ؛ ولكن ذلـك لا يخرج عن مجرد حيلة في الاجراءات الرسميـة . ثم انقطعوا نهائياً عن اللجوء الى هـــذا المنصب . اما دكتاتورية « سيلاّ » و « قيصر » فليس ما يجمع بينها وبين الدكتاتورية الرسمية القديمـــة سوى الاسم فقط : فهي تصديق شرعي لاستبداد أقيم بقوة السلاح .

وتتوج وظيفة مراقب الاحصاء والاخلاق العامة المناصب التي يتألب فيها كبـــار رجال السياسة مقاماً ، ولكنها لا تستلزم امتياز « السلطان » . وقد درجت العادة حتى اوائل القرن الاول ، تاريخ انتشار الفوضى ، على انتخاب مراقبين اثنين كل خمس سنوات . وتنطوي مهمتها ، التي تنتهي باستعراض عام يرافقه احتفال يشتمل على ذبيحـة كبرى وتطهير ونذور ، على تنظيم الشعب في سبيل حاجات المدينـة العسكرية بنوع خاص . فيقومان ، تحقيقاً لهذه الغاية باحصاء الاشخاص والممتلكات؛ ويوزعان المواطنين طبقات ووحدات تضم كل منها مائة شخص ويضمان بنوع خاص لائحـة بالشيوخ ولائحة بالفرسان يستطيعان ان يقصيا عنها اولئك الذين يبدو لهما سلوكهم ، حتى الخاص ، موضع انتقاد وشبهة . ويحدّدان ، لمدة خمس سنوات ، قيمة الضريبة ويلزّمان الواردات والنفقات العامة .

ولكن ما قيل عن منصب القضاء بصورة عامة ينطبق بنوع خاص على القنصلية ، وريثـة الملكية الزائلة . فالقنصلان اللذان ينتخبان لسنة واحـدة يطلق عليها اسماهما ، يمنحان ملء « السلطان » أي «سلطان البيت» و « سلطان الجندية » . لا ينقطعان عملياً الى الشؤون المدنية ، حتى خلال القرن الثاني ، إلا في فصل الامطار ويقضيان ما تبقى من السنة في احد الاقاليم على رأس جيش من الجيوش . بيد ان هذا الحل الفاسد ، الذي جاز اعتماده حين كانت الحروب تدور على مقربة من روما ، ينطوي اذ ذاك على مساوىء خطيرة . وسيقتضي مع ذلـــك انتظار « سيلاّ » في اوائـــل القرن الاول لاعتماد حلّ آخر كان لا يزال مطبقاً في اواخر الجمهورية . فالقناصل منذ ذاك التاريخ يبقون في روما طيلة سنة ولايتهم ويتولون فيها الحكم المدني فقط . ثم

كلّفوا ادارة شؤون احـــد الاقاليم باسم « بروقنصل » الذي اطلق من قبل عليهم حين كانوا يحتفظون بقيادتهم الى ما بعد الاجل القانوني لوظائفهم .

وكان القضاة العدليون ، في اول عهد الجمهورية ، هم القضاة الرئيسيين . ولكن خلق مناصب القناصل قد أنزلهم الى المرتبة الثانيـة . بيد انهم استمروا في استلام « السلطان » . وأسند الى اثنين منهم القضاء المدني : الاول ، « قاضي المدينة » ، للنظر في الدعاوى بين المواطنين ، والثاني ، القاضي « المتنقل » ، للنظر في الدعاوى التي يكون احد الاطراف فيها أجنبياً . ومنذ نهـــاية الحرب البونيقية الثانية التي استولت فيها روما على صقليا ، عين قضاة عدليون آخرون كي تسند اليهم ادارة اقليم او قيادة اسطول او جيش صغير . وطبق عليهم سيلا اخيراً ، الذي رفع عددهم الكامل من ستة الى ثمانيـــة ، القانون المفروض على القناصل : فأصبحوا جميعهم يقضون سنة في روما متمتعين بصلاحيات عدلية ، ثم يعيّنون حكاماً في احد الاقاليم .

ويشرف نظار الابنيـــة الاربعة على شؤون الامن وصيانة الشوارع والابنية العامة وتموين الاسواق . وما كانت هـذه المهام التقنية لترتدي أهمية تذكر لو لم يضف اليها تنظيم الالعاب في مواسم الاعياد الدينية : فاستطاع النظار بذلك ، حتى ولو كان الثمن تصدّع ثروتهم الشخصية ، اكتساب شعبية تؤمن انتخابهم لمناصب القضاء العليا .

ليس ما يشبّه هـــذه الاستعاضة عند القضاة الماليين — وكان عددهم ثمانية اذ ذاك ثم ارتفع الى عشرين في ايام « سيلا » والى اربعين في ايام قيصر — . فهؤلاء يكتفون بتأمين الادارة المادية لصناديق المال العامة ، بعضهم في روما بحسب مقررات مجلس الشيوخ ، والبعض الآخر ، بمعدل واحد في كل اقليم او جيش ، بحسب اوامر القاضي الذي يخضعون لسلطته .

منصب المحاماة عن حقوق الشعب

يجدر بنا ، دون ان يشمل هذا الاحصاء المناصب الدنيا ، ان نفسح مكاناً خاصاً لمنصب المحاماة عن حقوق عـامة الشعب . فجميع مميزاته ، باستثناء بعضها مما تتصف به مناصب النظار المنتمين الى عامـة الشعب ، كالقدسية مثلاً ، تفصله عن مناصب القضاء الاخرى ، وهو يلعب احياناً دوراً اولياً في الحيـــاة السياسية الرومانية . ولا ريب في انه ، بصورة عامة على الاقل ، تجديد مبتكر يفسره وضع المدينـــة الداخلي في القرن الخامس قبل المسيح وحدّة الصراع القـــائم آنذاك بين عامة الشعب وطبقة الاشراف المسيطرة على كافة مناصب القضاء .

ان « لقدسية » المحامي عن حقوق الشعب ، التي تؤمن له الحرمـــة ، قيمتها الدينية : نجس وملعون كل من يجرؤ على ان يمد اليه يداً او ان يقف في وجهه . كان في الماضي يدفـــع المجرم بنفسه من اعلى الصخرة « الطاربية » ، واذا ما اكتفى ، حتى في القرن الاول ، بالتهويل بخطر هذه العقوبة القديمة ، فقد حدث له ان ضرب المجرم بيده والقـــاه في السجن ، حتى ولوكان احد القناصل . فمن البديهي ان توفر له هذه الامتيازات الهـــائلة كل حرية في ممارسة صلاحياته .

ليست اكثر هذه الصلاحيات بالايجابية . وليس لمهامـــه نطاق خاص به . ولا يستلم « السلطان » . ولا يمثل روما ولا عامة الشعب نفسها التي تنتخبه ، ولكن لديه كافة الوسائل المفيدة للدفاع عن افراد عامة الشعب ، فرديا ام جماعيا ، ضد كل معتد ، باستثناء الدكتاتور الذي يقضي تعيينه بتعليق حقوق هذا المحامي. وانهذه الحقوق التي يمارسها على هواه تحمل اسماء وترتدي اشكالا متنوعة : « العون » الذي يقدمه لمواطن يهدده احد القضاة ، « والاعتراض » على عمـــل او قرار ، حتى « النقض » المسبق لمشروع قانون ما . يضاف الى جميع هـــذه الصلاحيات السلبية والهدامة ، منذ البداية ، حق واحد ايجـــابي ، اعني به حق دعوة عامة الشعب الى جمعية لحملها على الاقتراع على احد المقررات : ونرى في الواقع ، منـــذ اوائل القرن الثالث ان لمقررات عامة الشعب قوة القانون . بيد ان العرف الذي استقر خلال الحرب البونيقية الثانية والذي اجاز له جمع مجلس الشيوخ لعرض قضية من القضايا عليه،قد زاد بلا شك من نفوذه دون ان يزيد من سلطته الراهنة .

وهنالك ، بالاضافة الى الدكتاتورية ، استثناء واحد ذو طابع اقليمي جغرافي يحدّ مـــن صلاحياته . فان هـذا المحامي يغدو مواطناً عادياً اذا ما بعد مسافة ميل(١٤٧٩ م) عن اطار روما . وهذا يعني ان ليس له من سلطة على الجيش ، اذ قد بدا غير معقول ابداً ان يولى حقاً قانونياً في معارضة سلطة القائد العسكري وهي مطلقة بالضرورة . ولكن أهم اعمال الحكومة المدنية تجري ضمن هذا الاطار . لذلـــك فان منصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب يمثل قوة عملية عظيمة .

دوره التاريخي

يمكنه ، اذا ما اكتفينا بظواهر الامور ، ان يشلّ كل حياة سياسية وادارية في المدينة . وان ما يجعل المدينة ، في الواقع ، بأمن من هذا الخطر ، هو ان عشرة أشخاص يشغلون منصب المحاماة في آن واحد، وان باستطاعة كل منهم ان يمارس سلطاته السلبية ضد أي من زملائه وحتى ضد التسعة منهم بلغ من موافقتهم على عمل مشترك . وليس في تاريخ الجمهورية الرومانيـــة كله سوى حالة واحدة عزل فيه محام عن حقوق الشعب بسبب تصلبه ، أعني به « أوكتافيوس » الذي اقترعت عامة الشعب ، في السنة ١٣٣ ، على نزع سلطته لأنـه تشبث بحق النقض بصدد مشروع القانون الزراعي الذي تقدم به طيباريوس غراكوس والمحامون الثمانية الآخرون ، ولم يستند الى هـذا التدبير كسابقة فيما بعد . ولنفكر الآن ، لاظهار الفرق، بالسهولات التي كانت لدى الديموقراطية الاثينية لنزع السلطة عن قضاتهـا والتي لجأت اليها حتى ضد بريكليس : وهذا دليل واضح جديد على ان مفهوم القاضي الذي يمثل الشعب والذي يمكن عزله اذا ما فقد ثقة الشعب هو يوناني لا روماني . بيد انه من البديهي ، بالتالي ، ان عمل المحامي غالباً ما يمنى بالعجز : ويكفي الاحتمال السيكولوجي وحده للاقتناع بأن مستغلين كثيرين ، لا بل خونـة كثيرين ، وجدوا مكاناً لهم بين عشرة رجال ينتخبون ويجددون كل سنة في نظام لم

يعرف احزاباً منظمة على الطريقة العصرية .

على الرغم من هذا الضعف ، أثار عمل المحامي ، أكثر من مرّة ، مصاعب خطيرة في وجه المسؤولين الرومانيين . ففي قلب دولة يقضي مفهومها الاساسي باعطاء المدينة وجوداً مستقلاً ، في حدّ ذاته ، عن الواقع البشري الذي يكوّنها ، فيضع المواطن في خدمة الدولة قبل وضع الدولة في خدمة المواطن ، كان وحده ، مع حق رفع الدعوى امام الشعب ، رادعاً لعمل المسؤولين وعنصر دفاع عن شخص المواطن ، وبالتالي قوة تقابل سلطة الدولة المطلقة . واذا كانت الجمهورية الرومانية ، التي صممته ونفذته ، قد وجدته موافقاً لوجودها وسيرها ، فيجب ان نرى في ذلك موضوع مراهنة ؛ وقد قدّم الشعب الذي تقيّد به برهاناً ساطعاً عن تفرده ونظاميته .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بكماله المثالي، اذ انه قد أسهم في النهاية بايصال روما الى الفوضى. ففوق استخدامه كأداة معارضة سلبية، استخدمه بعض الرجال الحازمين، الذين يحسنون سياسة الطبقات الشعبية ويعرفون ما يريدون ، ليس كأداة بلبلة فحسب ، بل كأداة تنظيم وعمل ضد الطبقة الحاكمة . وهو لم يسمح بتعهد وتغذية غليان جراثيم الثورة فحسب ، بل اتاح فرض اصلاحات وحلول جديدة . ولنضرب صفحاً ، للدلالة على ذلك ، عن القرون الاولى التي يختلط فيها التقليد بالأساطير . ولكن فلامينيوس ، قبيل الحرب البونيقية الثانية ، قد قاد ، كمحام عن حقوق الشعب اولاً ، ثم مع المحامين الآخرين زملائه ، معركة بناءة ضد الارستوقراطية . ثم فتحت أزمة حرب هنيبعل الطويلة ، بتبريرها تقوية وتوحيد السلطة ، عهد احتجاب المحاماة عن حقوق الشعوب ، التي روّضها مجلس الشيوخ آنذاك .

بيد ان ذلك لم يمنعه ، ابتداء من السنة ١٣٣ ، من ان يستعيد استقلاله وفاعليته في ايام الاخوين طيباريوس وكايوس غراكوس اللذين شغلا كلاهما هذا المركز ، الاول في السنة المذكورة والثاني بعده بعشر سنوات ، واللذين تاقا كلاهما وتوفقا الى تجديد انتخابهما ، فبعثا الحركة الشعبية وأدخلا اليها ، روحاً نضالية مضطرمة وأوحيا لها مرّة أخرى، بمثلهما وحتى بموتهما، القوة التي ينطوي عليها مثل هذا السلاح . فخدم هذا الوحي « الشعبيين » ، ولكنه خدم المفسدين والمتطرفين والطامعين ايضاً . وبين موت كايوس غراكوس ونهاية الجمهورية ، باستثناء الفترة القصيرة التي لاشت فيها قوانين سيلا عملياً سلطة المحامين عن حقوق الشعب، تمثل أسماء ماريوس وغلوشيا وساتورنينوس ودروزوس وكلوديوس وكوريون وانطونيوس — وكان هذان الاخيران مجرّد عميلين لقيصر — حلقات سلسلة طويلة من المحامين الذين لم ينظر اليهم الافاضل (*Optimates*) نظرة رضى . ولم يرض عنهم النظام الجمهوري كذلك . فقد كشفت هذه المحاماة الغريبة آنذاك عن حقيقة طبيعتها : جهاز دولة محدث للحيلولة دون تجاوزات الدولة ، لديه وسائل أعظم من ان لا يدعوه امتلاكها لاستخدامها بغية شل الدولة شلاً دائماً .

« تسلسل الاعجاد »

على الرغم من ان المحاماة عن حقوق الشعب مدينة بأحداثها للحذر الذي توحيه مناصب القضاء الأخرى في الحكومة والادارة ، فانهـــا تدخل مع ذلك ، في نظام مراتب هذه المناصب الذي يمكن القول فيه انه سيرة الاشخاص . ومن حيث ان هذه المناصب توزع بالانتخاب وتليح ممارسة قسط متفاوت من سلطة الدولة ، فانهـا « أمجاد » تعتز بها حياة المواطن ولا يهمل ذكراها الحفدة . ولكن هذه الأمجاد غير متساوية في العظمة ، والطموح يدفع كل قاض الى محاولة بلوغ أرفع الأمجاد سمواً التي تسند الى شاغلين أصيلين قليلين . لذلك قد يكون أعظم تدابير سيلاّ فاعلية ضد المحاماة عن حقوق الشعب إقفال باب المناصب الأخرى في وجه من مارسها : فبينما كانت توفر حتى ذاك العهد إمكان الحصول على الشهرة ، اذا بها تكوّن ، حتى إلغاء قوانين سيلاّ ، طريقاً غير نافذة يتحوّل عنها اولئك الذين يتطلعون الى أبعد من ذلك .

وقد اعتمدت أكثر مـــن دولة ولا تزال تعتمد حتى اليوم ، أقلّه ضمناً ، مفهوم التسلسل الضروري في الوظائف العامة ، استناداً للدليل البديهي الذي يقول إن الخـــبرة المكتسبة في أدنى الوظائف يبدو مفيداً في أعلاها . اما في روما فقد اتخـــذ شكلاً صارماً هو « تسلسل الأمجاد » الذي نظم بكل عناية .

كان العرف والنظام الجماعي ، مدة طويلة ، كافيين لتجنيب السرعة في غير حينها . وخلال الحرب البونيقية الثـــانية ، اتاحت بعض الظروف الاستثنائية لشيبيون ان يحتل ، في عنفوان شبابه ، مركزاً لا نظير له . ولكن المنافسين برزوا في وجهه فلمس المسؤولون الحاجة الى رادع . فاكتشفوا دونما ابطاء المبادىء الاساسية : رفع السن التي يمكن ان تحصل فيها المزاحمـــة حول منصب القضاء المالي الذي اعتبر نقطة الانطلاق في « التسلسل » ، وذلك بايجاب تكريس عدة سنوات لخدمة الدولة قبل استلامه ، ايجـــاب المرور في مناصب قضاء اخرى ، وفاقاً لترتيب معين ، قبل محـــاولة بلوغ القنصلية ، ايجاب تمضية فترة محدودة بين تولي منصبين متعاقبين . ولكنهم بعد الموافقة على هذه المبادىء الثلاثة ، اخذوا يتلمسون طريقهم ، والمعـاصرون اليوم ابعد من ان يروا الفوارق التفصيلية بوضوح . ويبدو عمليـــاً انهم قد ساووا بين القضاء المالي والقضاء العدلي وبين المحاماة عن حقوق الشعب ونظارة الطرق والابنية العـــامة . وبينما كان بالامكان في القرن الثاني ممـــارسة القضاء المالي في سن السابعة والعشرين والقضاء العدلي في سن السادسة والثلاثين رفعت السن عمليا في القرن الاول الى التاسعة والعشرين للقضاء المـــالي والى الثانية والاربعين للقضاء العدلي .

وتوصلوا ، بالتوفيق بين القانون والعرف ، — لم يتناول الاحصاءَ ومراقبة الاخلاق العامـة اي نص معين ، ولكن هذا المنصب اسند في الواقع الى قناصل قدامى — الى شبه هرم يتناقص فيه عدد الشاغلين الاصيلين من درجة الى اخرى ، الشيء الذي كان يسمح باجراء الاختيـــار .

وان في هذه الطريقة لاستجابة لبعض النزعات الفطرية في الذهنية الرومانية : حاجة الى النظام والى التسلسل المستقر . ولكن قرار الرأي على وضع صيغة شرعية لهـذا التسلسل وعلى اثقال صعوباته وعلى المضي في تأخير بلوغ المناصب العليا بنوع خاص عن انهيـــار النظامية الفطرية والخوف من المصائر « الخارقة » ا فارادت الطبقة المسيطرة الاحتماء من النجاحات الصاعقـة . ولكنها اخفقت ، لا بل ان هذا الاحتباك الماهر قد أفسد احياناً بملء ارادتها . ويجدر بنـا في الحقيقة ان نلاحظ ان قيصر الذي فاز عليها قد مر بانتظام في جميع المناصب ولم يشغل كلا منها الا « سنته » فقط اي دون تقديم او تأخير في السن الدنيا المحددة ، بينما طاب لخصمه بومبيوس ان يفيد على الدوام من استثناءات غير شرعية : واذا ما خالف نظام ما شرعيته بالذات ، ففي ذلك ابلغ دليل يقدمه هذا النظام على ضعفه .

٢ ـ الظاهر الديموقراطي

جمعيات الشعب

جمعيـــات الشعب في اليونان وفي روما

اذا كانت هـذه الشرعية، في ما يعنينا، قد صممت بمثابة حيطة ضد الطامعين، فقد حصرت ايضاً ، بشكل ضيق جداً ، حرية الاختيار المعترف بها مبدئياً للناخبين، اي للشعب . وقد كتب بوليب : « لو نظرنا الى قوة الشعب، لبدا الدستور الروماني ديموقراطياً بدون ريب ». ولكن ذلك ليس الا ظاهراً فحسب. فـــلم يكن كافياً ، على غرار العنصر الملكي الذي مثله القناصل ، ان تقابل هذا العنصر الديموقراطي قوى توازنه . اضف الى ذلك ان المواطنين وجمعياتهم كانوا منظمين بشكل تصبح معه دون جدوى ، في الظروف العادية، سيادة تثبتها، على الرغم من ذلك، تسمية « الشعب الروماني » المستعملة رسمياً للدلالة على الدولة الرومانية .

لنعد مرّة أخرى الى المدينة اليونانية . أجل عرف المسؤولون فيها كيف يحتالون على جمعية الشعب التي لم تمارس في كل زمان وكل مكان سلطة فعلية مماثلة للسلطة التي تمتعت بها في اثينا حين بلغ القمة فيهـا النظام الديموقراطي الراهن . ولكننا نلمس في الاعراف التي سادت الجمعيات في اليونان وروما ، فوارق تمسّ جوهر الأمور : وبفضلها تنجلي حقيقـــة مفهوم المواطن ومفهوم المدينة .

ان لأحد هـــذه الفوارق قيمة الرمز ؛ ولم يفت الرومان ادراك أهميته : ففي اليونان يجلس اعضاء الجمعيـــات الشعبية على مقاعد حجرية ؛ اما في روما فيقفون في ارض منبسطة ، امام الرئيس الجالس عـــلى منصة هي « المنبر » . وبديهي ان مدّة الجلسات تتأثر هنا وهناك بهذا التناقض المادي . ولكن هذا التناقض ، بنوع خاص ، يثبت وجود فارق عميق في طريقة فهم العلائق المتبادلة بين مجموع المواطنين والقاضي الذي يترأس اجتماعهم . فان الشعب المجتمع للمناقشة يقوم بواجب ويستخدم حقاً ، في كلا الحالتين . بيد ان هناك خلافاً في الذهنية : فهو يترفـه في

اليونان ، كنظير على الاقـــل ، بينما يبدو طبيعياً للرومان ان يكون في وضع المرؤوس ، وهو يرضى بذلك . وان هذا الدليل ، يضاف الى غيره مما سبقت الإشارة اليه سابقاً ، يثبت ان مثالية المدينـــة في روما تستلزم شيئاً آخر غير الشخص المعنوي الذي يكونه جمهور المواطنين ، شيئاً يشترك فيه القضاة ويجسّدونه .

وهنالك فارق آخر ليس بأقل مغزى . ففي داخل الجمعية الشعبية ، في كافة المدن اليونانية ، تحصى الاصوات على اساس الأفراد لا على أساس الكتـــل . اما في روما فالقاعدة المعتمدة هي دائماً على نقيض ذلك ، اذ ان لكل كتلة صوتاً واحداً يعبّر عن رأي أكثريتها الداخلية . ويعني ذلك ان للطريقة المتبعة في توزيع المواطنين على الكتل تأثيراً حاسماً على تشكيل الاكثرية الرسمية في الجمعية . وقد تكون هذه الاكثرية الرسمية مختلفة جداً عن الاكثرية الفعلية ، لأنه قد يقوم أكبر تفاوت عملي بـين مواطنين متساوين قانوناً ، بحسب تعبيرهم عن رأيهم الشخصي داخل كتل يكون عدد أعضائها مرتفعاً جداً او متدنياً جداً . ولنضف الى ذلك ، حتى لا نشير إلا الى نتيجة ثانوية بين نتائج كثيرة غيرها ، ان تجنب المواطن لضروب الضغط الخارجي ، حين يقترع في إطار كتلة محدودة بالضرورة ، أضعف منه حين يضم اقتراعـــه الى كافة اقتراحات اعضاء الجمعية . فقد يؤدي هذا النظام الى اكثر النتائج منافـاة للديموقراطية ، وقد أدّى اليه فعلاً كما سنرى ذلك . ولكن هل كان ارتقابهـــا السبب الرئيسي في اعتماد هذا النظام والإبقاء عليه يا ترى ؟ يجدر بنا بالاحرى ان نفكر باستمرار التنظيم الداخلي في المدينة والهيئة المدنية وقوة الحرص عليه . اجل لم تجهل المدن هذا الحرص لأن مواطنيها كانوا موزعين قبائل ؛ ولكنهم لا يعيرونه كبير اهتمام في الجمعية ، بينما هو ذو سيطرة على كيـــان الجمعية وسيرها في روما . فيجب ألا نقلل من شأن هذا التناقض ، لأن جهاز المدينة السياسي يعكس نزعات أدبية ووقائع اجتماعية عـلى السواء . وهو يؤدي الى استنتاجين ، اولهما ان روما تضرب بمساواة المواطنين عرض الحائط بينما يطبق الاغريق مبدأها تطبيقاً واسعاً ، أقله في بعض المدن ، وثانيهما ان الدولة في روما أقل اهتماماً بالمواطن الفردي منها في اليونان ، إذ انهـا لا تريد معرفة رأيه ولا تجيز له الاسهام في تكوين الارادة الجماعية الا بواسطة الكتل التي يمكنه الانضمام اليهـا : والحقيقة هي ان تحرّر الانسان المواطن تحرراً كاملاً ، هو مثـــل يوناني لا روماني ، واذا ما بدأ يظهر في روما ، بفضل علائقها باليونان ، في آخر عهد الجمهورية ، فهو لا يتوصل الى فرض نفسه لا على الأنظمة ، التي لم يتوفر لها وقت التكيف عليه قبل زوالها ، ولا على الاخلاق .

كان من المنتظر ، والحالة هذه ، ان تلجأ رومـا الى النظام التمثيلي . ومهما كان من المظهر المغالط الذي ظهر به استمرار الجمعيات اليونانية الاولى في بعض الحالات ، فان له تفسيره في التصميم على الحيلولة دون توسيط اي شي او اي شخص بين المواطن والمدينة . بيد ان الكتلة تتوسط بينهما في روما ، ولا يلزم سوى خطوة واحدة لتوسيط ممثل الشعب ايضـــاً . وكان من

الواجب ان يؤدي الى ذلك ارتفاع عدد المواطنين وتوزعهم الجغرافي . فحين يحق لـ ٢٥٠٠٠٠ مواطن منذ اوائل القرن الثالث ، ولمليون مواطن تقريباً في السنة ٧٠ ، وللرجال الاحرار في كافة انحاء ايطاليا بعد حصولهم تدريجياً على حق المواطنية ، الاشتراك في جمعية واحدة لا يمكن ان تلتئم الا في روما نفسها ، يصبح الحفاظ على ميزة الجمعية الاولى لهذه الجمعية اكثر من مغالطة فحسب : فهو يصبح اذ ذاك سخرية غير معقولة . ولا يوفر التشبث به اية سهولة للطبقة الحاكمة . وخير لها ، على نقيض ذلك ، اقله ابتداء من اوائل القرن الثاني ، ان تكون علاقتها بممثلين قد يفضي اختيارهم الى بعض العناصر المعتدلة من ان تكون بجماهير سجسة تتأثر بتحريض المحرضين. والتهمة التي يجدر ان توجه الى المسؤولين الرومان هي العمه قبل الاثانية في استثمار وضع شاذ . فليس من شخص آنذاك يفكر بحل يميل المعاصرون بالفطرة الى اعتباره في منتهى البساطة لانه اليوم رائج التطبيق في مجتمعاتهم. اجل نحن نلمس في الاتحادات الهلينية عقم الخيال نفسه والتقليد نفسه الذي لا يتماشى وحاجات الزمن . ولكن نتائجها اشد خطورة الى حد بعيد في روما التي غدت اقليمياً وبشرياً الدولة الايطالية والتي ابقت على نظمها حين كانت مدينة صغيرة دون ان تكيفها وفاقاً لهذا النمو .

الطرائق المختلفة في توزيع المواطنين والجمعيات

لا تخلو هذه الانظمة من التعقيد . فمنذ آخر القرن الرابع كابعد حد — قد يكون الامر على غير ذلك قبل هذا التاريخ — نرى ان الجمعيات جميعها مفتوحة الابواب لكافة المواطنين الرومانيين دون استثناء . بيد ان المبادىء الثلاثة التي اعتمدت في توزيع المواطنين الواحد بعد الآخر رسخت كلها بحيث ان وجودها قد جرّ الى قيام انواع ثلاثة من الجمعيات التي تنظمت وحدات الاقتراع فيها وفاقاً لمبدأ آخر .

لم يعد آنذاك لاحد هذه الانواع من اهمية عملية ، اعني به ذاك الذي يوزع المواطنون بموجبه ، وفاقا لانتسابهم الوراثي ، الى ثلاثين « وحدة » *Curie* تنحدر هي نفسها ، بمعدل عشرة اشخاص لكل منها ، من القبائل العنصرية الثلاث الاول . فجاء منح حق المواطنية لعناصر عديدة غير رومانية ينزع عن هذا التوزيع كل حقيقة . فلم تعد الجمعيات المؤلفة من ممثلي هذه الوحدات لتجتمع الا شكليا فقط بغية القيام باعمال ذات طابع طقسي ، كمنح « السلطان » للقضاة الجدد مثلاً .

اما الجمعيتان الاخريان ، على نقيض ذلك ، فليستا مؤلفتين من ممثلين على هذه الندرة .

فالجمعيات « القبلية » تضم المواطنين الموزعين على خمس وثلاثين قبيلة ، اربع منها « مدنية » واحدى وثلاثون « ريفية » . كان لهذه القبائل في البداية واقع اقليمي يخصص به من يقيم فيه او اقله يمتلك الاراضي فيه : ويشبه النظام على هذه الصورة النظام المعتمد في اكثر من دولة ديموقراطية معاصرة . ولكن التطور اللاحق قد افسده . فان عدد القبائل الريفية الذي ارتفع

مدة طويلة بشكل مواز للاراضي الرومانية *Ager romanus* قد توقف عن الارتفاع منذ السنة ٢٤١: فارتبط المواطنون الجدد منذئذ، حتى ولو حصلوا على المواطنية بشكل جماهيري في منطقة كاملة، باحدى القبائل السابقة التي خسرت، بسرعة، الشيء الكثير من طابعها الاقليمي. ثم ان القبائل المدنية، وهي اكثر عدداً وتضم نسبة مرتفعة جداً من الفقراء، غدت دون القبائل الريفية شرفاً. ولذلك فقد درج ناظرو الاحصاء الذين يختارون على هواهم، في مواعيد الاحصاء، القبيلة التي يخصصونها بمواطن جديد، والذين ينعمون حتى بحق نقل مواطن قديم من قبيلة الى اخرى، كعقوبة معنوية، على ان يسجلوا أفراد الطبقات الدنيا، لا سيما المعتقين منهم، في القبائل المدنية. وليس لكل من هذه القبائل المدنية المتزايدة عدداً سوى صوت واحد شأن كل من القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيها بجانب كبير من الأهمية.

وقد أفضى نوع آخر من انواع التوزيع ـ أقدم من التوزيع على القبائل ولكنه ارتبط به أخيراً ـ الى الجمعية المئوية؛ ونسب الى الملكية احداث نظام «الوحدات المئوية» بسبب ارتباطها بتنظيم الجيش: فهنالك وحدة عسكرية ايضاً، يطلق عليها اسم «وحدة المئة». والجمعية «المئوية»، في الواقع، هي الشعب المعبّأ. وهي بالتالي، ايضاً، بسبب الموازاة القائمة بين الثروة وبين الواجب العسكري والمالي، الشعب الموزع على طبقات يحددها الاحصاء بعد التحقيق الذي يجريه ناظرو الاحصاء كل خمس سنوات. ولكن كيفيات هذا التنظيم قد تنوعت. وتشكل هذه التنوعات وتحديد تاريخها وارتباطها بالتطور الاقتصادي والنقدي، منذ زمن بعيد، إحدى معاضل التاريخ الروماني التي اشتد الخلاف حولها. وقد تحقق تبدل هام ما بين السنة ٢٤١ وبدء الحرب البونيقية الثانية. فقد اعطى النظام القديم اكثرية الاصوات المطلقة (٩٨ من أصل ١٩٣) الى الوحدات المئوية في الطبقة الاولى دون غيرها، في حال انه قامت هنالك، وفاقاً لمستويات الثروة المتعاقبة نزولاً، اربع طبقات اخرى ايضاً. فاحتفظت الطبقة الاولى منذئذ بـ ١٨ وحدة مئوية من «الفرسان» ينتمي اليها اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، أي النخبة المحدودة بين المواطنين. أضف الى ذلك انها تشمل، بمعدل وحدة عن القبيلة، ٣٥ وحدة مئوية من «العقّال» (فوق ٤٦ سنة)، و ٣٥ وحدة «من الشبان». أما الطبقات الأربع الأخرى، فهل تشمل كل منها ٧٠ أو ١٠٠ وحدة مئوية؟ وما هي طريقة التوزيع فيها؟ لم تلقَ بعد هذه الأسئلة أجوبة واضحة. ولكن، مهما يكن من الأمر، فقد أضيفت الى هذه الوحدات المئوية الـ ٣٦٨ أو الـ ١٨٨، خمس وحدات فقط ضمت اثنتان منها العمال واثنتان الموسيقيين ـ ويقبل اعضاء هذه الوحدات الأربع في الجيش ـ وواحدة الفقراء الذين لا يستخدمهم الجيش لأنهم لا يمتلكون حتى الحد الأدنى من الضريبة المفروضة على الطبقة الخامسة. وهكذا فان المواطنين الاغنياء والميسورين من جهة والمواطنين المسنين من جهة ثانية ينعمون بأفضلية عظيمة تحت ستار المساواة وعلى حسابها. فيتضح ان تكوين الجمعيات المئوية

وتكوين الجمعيات القبليـة على السواء ابعد من ان يستجيبا لموجبات الديموقراطية كما تصورتهـا مدن امن أمثال أثينا وخضعت لها منذ القرن الخامس .

صلاحيات الجمعيتين القبلية والمئوية

على الرغم من ان هذه الحقيقة لا تقبل الجدل ، يجب ألا نغفل ان بعض النجاحات قد حققت بالنسبة للوضع الماضي .

يتعلق احد هذه النجاحات الرئيسية — وهذا لا يعني انه بلغ حداً بعيداً — بدور الجمعيات القبلية . فالجمعية المئوية اقدم عهداً منها ، واذا ما انطبق تنظيمها ، في شكله الاخير ، على توزيع المواطنين الى قبائل ، فان مفهومها العام الذي يفسّر بعض تفاصيل سيرها ، كما سنرى ذلك ، يحد من حرية الحاضرين . لذلك فان كل زيادة تتناول نصيب الجمعيات القبلية تصطبغ بطابع الاصلاح السخي ، ان لم يكن الديموقراطي . وفي الواقـــع تناولت الزيادة نصيبها .

يكتنف هذا التطور غموض كبير . بيد انه من المهم ان نشير هنا الى ان الجمعيات القبلية ، في البداية ، كانت ، قبل كل شيء آخر ، جمعيات لعامة الشعب يدعوها للالتئام المحامون عن حقوق هذه العامة ويقصى عنها النبلاء . وكانت بالتـالي تقرر « الاستفتاءات » *Plebiscita* او « مراسيم عامة الشعب » ، التي لا تقيد سوى هذه العـــامة ، بينما لم تكن « القوانين » التي تقيد كافة المواطنين لتنبثق الا عن الجمعيات المئوية . بيد ان هذا التمييز قد فقد كل اهمية منذ ان اقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء . فنتج عن ذلك ان النبلاء ، الذين انحدر عددهم شيئاً فشيئاً من جهة ثانية ، استطاعوا الدخول دونما صعوبة الى الجمعية القبلية . كما نتج عن ذلك ايضاً ان القضاة آثروا هذه الاخيرة على الجمعية المئوية بسبب السهولة الكبرى التي يلاقونهـــا في دعوتها للاجتماع ومراقبة الجلسة وحتى الاقتراع — ٣٥ صوتاً بدلاً من ١٩٣ او ٣٧٣ . فلم تحتفظ الجمعية المئوية بصلاحية حصرية غير النظر في الدعاوى الخطيرة ، واعـلان الحرب ، وانتخاب القضاة للمناصب العليا . واحتفظت الجمعية القبليـة باقل من هذه الصلاحيات : انتخاب القضاة للمناصب الدنيا فقط . غير ان اكثرية الامور التي قد تطرح على احدى الجمعيتين تعرض عليها ايضاً ، كأكثرية مشاريع القوانين بنوع خاص .

الاصول المعتمدة

ولقد تحقق نجاح آخر بصدد نظام الجمعيات وتنظيمها المـــادي . فقد اضطر المواطن ، لمدة طويلة جداً ، الى التعبير شفهياً عن رأيه ، مما حـدّ ، في غالب الاحيان ، من حريته الفعلية . ثم اقر الاقتراع المدون على « لوحـــة » (*Tabella*) فردية في السنة ١٣٩ ، وصدرت خلال ثلاثين سنة تقريباً قوانين اخرى عممت هذه الطريقة على كافة انواع الانتخاب : فتوفر بذلك الشرط الاساسي لسرية الاقتراع اي لحريته . وفي السنة ١١٩ اكتسب ماريوس ، وهو بعد محام عن حقوق عامة الشعب ، شعبية كبرى باقتراح تقدم به وتوفق الى اقراره يقضي بان تضيّق ، بقياس عرض الرجـــل ، « الجسور » التي يجب على المواطنين المرور

عليها قبل القاء « لوحتهم » في صندوق الاقتراع : فنجا المقترع بذلك من كل رقابة ومن كل ضغط . وليست مثل هذه التدابير في الحقيقة مما لا يعبأ به : فالحركة الديموقراطية الرومانية تلمس وجوب اجراء بعض الاصلاحات في الانظمة وتحقق بعضها .

ولكن هذه الحركة لا تستطيع الذهاب الى ابعد من هذا الحدّ او لا تجرؤ على ذلك بتعرضها لمبادىء أساسية تسيّر اجراءات الجمعيات . وليس من شك في ان درس هذه الاجراءات بالتفصيل أمر مستحيل . بيد انه يجدر بنا ان نستخلص بعض خطوطها التي تتميز بها وصاية ضيقة على شعب يتمتع بالسيادة مبدئياً .

تلتئم الجمعية برئاسة القاضي الذي يوجه الدعوات الى اعضائها . يقرّر وحده جدول الاعمال ويوجه سير المناقشات . ولا يمتلك الشعب أية وسيلة لفرض ارادته في تقرير الاجتماع وأي حق مبادرة او تحوير في المشروع الذي يعرض عليه . واذا كان الموضوع موضوع انتخابات فلا احد يستطيع إرغام الرئيس على ان يقدم له جميع أسماء المرشحين ، ولا اعتبار إلا للأصوات التي تنالها أسماء يريدها : ولم يكن ذلك مجرّد امكان نظري ، حتى في عهد متأخر نسبياً . واذا كان الموضوع مشروع قانون ، فكثيراً ما يستخدم الرئيس حقاً مماثلاً ، محصوراً فيه ، يستطيع بموجبه ان يسترده او يحوّر نصه . ومن حيث ان الجمعيات المئوية هي الجيش ، وتجتمع بالتالي خارج إطار روما، فلا ينعم بحق توجيه الدعوة لالتئامها سوى قاض « مُنِحَ السلطان » يستطلع الطيور قُبيل الجلسة . فلا تعوزه من ثمّ الحجج الدينية لحل الجمعية عندما يطيب له ذلك . لا بل ان الواجب يقضي عليه ، حتى لا يقع في خطأ شكلي ، باللجوء الى الحل في بعض الحالات، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بها احد الحاضرين — والصرع « مرض الجمعيات » بالذات — او حالتي البرق والرعد ، بحيث انهم انتهوا احياناً ، بغية تجنب عرقلة سير الاعمال ، الى حصر حق « ملاحظة السماء » في بعض الاشخاص فقط او الى إبطاله كلياً . واذا لم تفض الانتخابات الى اي نقاش ، فان مشروع قانون واحد يتطلب عدة جلسات للتشاور والمذاكرة يمتنع الرئيس خلالها، منذ زمن بعيد ، عن استخدام حقه في اعطاء الكلام لمن يريد ، ولكنه استخدم على الدوام حقه في ان يكون الخطيب الاخير . وتكرس الجلسة الأخيرة للاقتراع فقط بالاجابة « بنعم » او « لا » على « سؤال » الرئيس حول مجمل النص ، وحول عدة نصوص متكاملة احياناً . وتتوقف عمليات الاقتراع منذ بلوغ الاكثرية . اما في الجمعية المئوية ، التي تعود الأولوية فيها الى احدى الوحدات المئوية الـ ٣٥ التي تضم « شبان » الطبقة الاولى — الوحدة « الممتازة » التي تنتخب بالقرعة لأن لرأيها قيمة الانباء بالمستقبل — والتي يجري الاقتراع فيها وفاقاً لترتيب الطبقات التسلسلي ، فان وحدات الطبقة الرابعة ولا سيما الخامسة تكاد لا تقترع ابداً . ولا يصبح القرار نهائياً ، اخيراً ، إلا اذا رضي الرئيس باعلانه : وهكذا ، فان القضاة ، على الرغم من تعيينهم عن طريق الانتخاب ، يعتبرون رسمياً « خلائق » الرئيس . وان هذه المهلة القصوى المفسحة امام رفض

الرئيس او امام حق القضاة الشرعي بالاعتراض والنقض لم تمر دائماً دون استخدام .

ان هذه العجالة حول الجمعيات الرومانية، على الرغم من إيجازها ، تفضي بنا الى استنتاجات لا يمكن ان تنقضها أية قاعدة او أي عرف لم تتعرض لها . فمن جهة يقلل تنظيم وسير الجمعيات الشعبية الى حدّ بعيد من التأثير العملي الذي قد يكون في الظروف العادية للطبقات الاجتماعية الدنيا مع انها ، شأنها هنا كما في غير مكان ، أكثر عدداً من طبقات الأغنياء . ومن جهة ثانية ، توازي سلطة القضاة سلطة الجمعيات في الدولة ، ان لم تكن متفوقة عليها . ولا ريب في ان هاتين الملاحظتين لا تسمحان قط ، في روما ، بالمساواة ، بين الجمهورية والديموقراطية ، حتى اذا فسرنا هذه الكلمة الاخيرة بمفهومها القديم .

٣ ـ الظاهر الارستوقراطي
مجلس الشيوخ

مجلس الشيوخ
مجلس قضاة قدماء

يبقى العنصر الارستوقراطي، وهو اقوى عنصر في الدستور الروماني والحياة السياسية الرومانية على السواء . ولم يصعب على بوليب ان يرى ان مجلس الشيوخ هو الذي يمثل العنصر : بيد انه لم يعطه اهميته الحقيقية . وهنالك نقطة رمزية تقابل ما لاحظناه بصدد الجمعية من شأنها ان تكشف لنا عن عظمة هذه الهيئة : الشيوخ يجلسون ايضاً امام رئيس لا يعتلي اي منبر .

تشتق كلمة *Senatus* من *Senex* « المسن » ؛ فمجلس الشيوخ اذن مجلس « قدماء » ويطلق على اعضائه اسم « الآباء » ايضاً ، اي انهم في الوقت نفسه نبلاء ورؤساء العائلات الاولى في روما . ولكن كل ذلك يرتبط بماض سحيق . فقد اضيف الى كلمة « الآباء » ، في عهد متوسط ، اسم المفعول *Conscripti* « المسجل على اللائحة » . فكانت اللائحة ، ولكن تأليفها غدا آليا .

عدد الشيوخ العادي هو ٣٠٠ . رفعه سيلا الى ٦٠٠ وقيصر الى ٩٠٠ ولكنه في كل الحالات لم يحدد بنص قانوني ؛ وليست الزيادات التي حققها الدكتاتوريون سوى نتيجة الزيادة التي ادخلوها على عدد القضاة المالين . فالعرف قد جعل من التعيين في منصب القضاء المالي ، حتى قبل القانون ، شرطاً ضرورياً وكافياً للدخول الى مجلس الشيوخ .

اخذ قضاة الاحصاء والأخلاق ، منذ اواخر القرن الرابع ، وكل خمس سنوات ، بوضع لائحة بالشيوخ . وكان لهم الحق في إقصاء من يريدون إقصاءه من أعضاء اللائحة السابقة ، ولكنهم لا يلجأون الى هذا القرار المخزي إلا لاعتبارات اخلاقية ، أي في حالات نادرة ، اذ ان الشيخ اذا ما سجل على اللائحة يبقى عملياً في منصبه مدى الحياة . اما اختيار الأسماء الجديدة

فيجب ان يتناول اعظم النبلاء شرفاً . فلا يرى قضاة الاحصاء والاخلاق بالتالي افضل من ان يأخذوا بعين الاعتبار الاشخاص الذين يعينهم الشعب في مناصب القضاء . وقد استقرت هذه العادة خلال الحرب البونيقية الثانية، بغية سد الفراغات العديدة التي اوجدتها الهزائم العسكرية الاولى ثم شملت شيئاً فشيئاً ، خلال القرن الثاني ، مناصب القضاء الاخرى التي ليس من حاجة بسبب ارتفاع عدد شاغليها ، للجوء الى المواطنين العاديين . واخيراً سن « سيلا » قانوناً يكرس قبول القضاة الماليين في مجلس الشيوخ : واكتفى قضاة الاحصاء والاخلاق بعد ذلك بابرام وضع راهن — وذلك حين يكون هناك قضاة احصاء واخلاق ، لان تعيين خلفائهم لم يعد منتظماً منذ هذا التدبير الذي يجعل من احدى صلاحياتهم الرئيسية امراً وهمياً .

انخفض من ثم عمر الشيوخ الوسطي انخفاضاً كبيراً : فقد كانوا يحتلون مناصب القضاء المالي في سن مبكرة. وتطور طابع مجلس الشيوخ الرسمي ايضاً: فغدا مجلساً مؤلفاً من القضاة القدماء، مما يترك صداه حتى في ترتيب اللائحة . ففي اعلى اللائحة ، اقله قبل « سيلا » الذي يلغي هذا اللقب الشرفي ، يسجل اسم « الاول في المجلس » الذي يختاره قضاة الاحصاء والاخلاق بين الشيوخ المرموقين . ويليه في اللائحة ، وفاقاً لمرتبة وظائفهم ، القضاة القدماء ، « الاحصائيون والاخلاقيون »و«القنصليون» و « العدليون » ، الخ ، يرافق ذلك ترتيب داخلي في كل فئة وفاقاً لاقدمية القضاة في مناصبهم . ويدعى القضاة لابداء رأيهم بحسب ترتيب اللائحة ، ولكن الاولوية تعطى ، في الفئة الواحدة ، للقضاة المعينين ، اي الذين جرى انتخابهم فعلاً ولم يستلموا بعد مهامهم والذين يلفت النظر اليهم اقتراع الجمعية الشعبية الحديث العهد .

ولكن مجلس الشيوخ لم يفقد شيئاً بفعل هذا التطور . فهو في الماضي قد مثل نخبة الشعب المتميزة بنسبها وثروتها وسنها وخبرتها ، وكلها عناصر تكوّن الاعتبار الاجتماعي . ولم يعين القضاة عملياً ، باستثناء السن ، وفاقاً لمقاييس اخرى . فيضم مجلس الشيوخ كافة الاسماء الكبيرة ، وكل عضو من العائلات الكبيرة لا تقصيه مبدئياً عن الحياة السياسية نقيصة ظاهرة ، وكل من درس في شبابه على ابيه واجباته المقبلة فتولى بعد ذلك شؤون ومصالح الدولة . فيفضل العظمة المليئة بالحكمة التي يضفيها على اعضائه نسبهم وتربيتهم ووعيهم لواجبهم ، يجسد مجلس الشيوخ روما وتقاليدها واستمرارها وكيانها الدائم ومصيرها ، اي انه هو ايضاً ، شأن القضاة ، ذلك الكيان الادبي المستقل عن جمهور المواطنين المنتظمين جمعية شعبية .

مجلس الشيوخ والقضاة

الفرق كبير بالتالي بينه وبين « مجلس » المدن الديموقراطية اليونانية . كان هذا الأخير مستشار الجمعية يحرص على تنفيذ مقرراتها ويراقب حياة المدينة باسمها . اما مجلس الشيوخ فلا علاقة له بالجمعية بل بالقضاة في القيام بدورهم المستقل . تمتع في البداية بالـ *Auctoritas* ، ومعناها الاشتقاقي « الزيادة » ، أي بالقدرة على إكمال قيمة قرار شعبي لا يفلته إلا في وقت لاحق، وهذا يعني حقه في إلغاء القرار. ويبدو ان السعي قد بذل لشلّ

هذه السلطة ، خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، بحصر حق الاستفادة منها قبـــل جلسة الجمعية فقط . اجل ان لهذا الاصلاح أهميته القانونيـــة ، ولكنه لا يسدّد في الواقع ضربة مؤلمة لسلطة الشيوخ . فاذا لم يكن هناك ما يحول دون اطلاع الشعب على ترشيح او مشروع لا يرضى عنهما مجلس الشيوخ ، فنادراً ما يحدث ان يخالف رأيه قاض من القضاة . وقـــد كمنت قوّته العملية ، في الحقيقة ، في نزول القضاة عند نصائحه .

لا يعطي مجلس الشيوخ مبدئياً سوى « المشورات » ، *Senatusconsulta* ، ولكن أصول جلساته ، وهي على جانب كبير من الاختلاف عن اصول جلسات الجمعية ، تحلّه منذئذ عـلى صعيد غير صعيد الجمعية . وهو ايضاً لا يستطيع الاجتماع إلا بناء لدعوة احد القضاة — او عدة قضاة ، اذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين — الذي يترأسه ويختار على هواه القضايا التي يعرضها عليه . وحين يطلب الرئيس رأي احد اعضائه ، يتمتع كل من هؤلاء بحرية القول التامة . ويحق للعضو ان يتكلم ساعات كاملة ، أي ان يلجأ الى العراقيل ويقترح التعديلات ويثير قضية لا يتعرض لها الرئيس ويطالب بأن تكرس لها جلسة مقبلة، الخ . فاذا بدا على المجلس انه سيوافق على هذه المطالبة ، فسيكون دائماً هنالـــك قاض على استعداد للموافقة عليها ، وهو الرئيس اخيراً ، شأنه في الجمعية ، الذي يحدد موضوع الاقتراع ، وهو الذي يستطيع ، بعمله هذا ، ان يستخدم تحكمه استخداماً عريضاً، فيرفض التعديلات مثلاً او لا يقبل إلا بحلين متناقضين ويهمل كل الحلول الاخرى . ولكن الاقتراع فردي قد ترافقه ، في حالة الشك ، عملية احصاء دقيق بعد جمـــع الأعضاء في مكانين مختلفين من القاعة . ثم يأتي اخيراً دور وضع صيغة « المشورة » *Senatus - Consulta* ، فاذا كان الرئيس مسيطراً سيطرة كافيـة ، يتوجب عليه تعيين شيوخ يشتركون في عملية التحرير ويحرصون بالتالي على ان لا ينم النص النهائي عن شعور الاكثرية .

بيد انه يجدر بنا ان نرى في هذه الاصول معلولاً لا علـّة ، وظاهرة لا تفسيراً . «فالمشورة» تتضمن دائماً التعبير المقيّد « اذا ارتأى » او « اذا ارتأوا » الذي يحفظ في الظاهر حرية القاضي او القضاة في التقرير ، ولا يتفق هـــذا النص مع الطواعية الدائمة — باستثناء حالات نادرة وفاضحة — التي يبديها القضاة حيال نصائح يعملون بها كما لو كانت أوامر .

حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار النفوذ السياسي والأدبي الذي يدين بـه مجلس الشيوخ للتقليد ولانتخابه وللخدمات التي يؤديها للمدينة ، فلسنا ندرك مثل هذا الانقياد اذا لم نفكر بكل ما يرتبط به في حياة الرجـل السياسي الروماني . فمن حيث ان الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعي الذي يوفره النسب والثروة ، فانهم يستخدمونه استخداماً مجدياً ابان الانتخابات . وان مجلس الشيوخ بنوع خاص ، اذا ما نظرنا اليه كهيئة ، يجد في صلاحياته المعتادة أكثر من إمكان لجعل مهمة القاضي سهلة ومجيدة احياناً ، ولإقامة العراقيل ايضاً في طريقه ، اقله بتشجيع معارضة احد زملائه او احـد المحامين عن حقوق الشعب ، وللحكم عليه بأن يبقى مغموراً . وهكذا

تطبق على القاضي دائرة لا يستطيع النجاة منهـا إلا بواسطة صراع سافر : فهو يدفع بمجاملاته ثمن رضى الأكثرية في مجلس الشيوخ .

صلاحيات مجلس الشيوخ

تشمل سلطات مجلس الشيوخ في الواقـع نطاقات متنوعة جداً بفضل العادات التي اتخذت صفة القانون والتي يجب إصدار قانون لتعديلها .

وقد سبق لنا ورأينا مدى هـــذه السلطات في كل ما يختص بالسياسة الخارجية وملحقاتها والأقاليم والجيوش . ومع ذلك فلنشدّد عليها ، لأن المجلس يمارس ، في هذا الحقل بنوع خاص ، ضغطاً غير مباشر على أسمى القضاة مرتبة بواسطة احساناته وغضباته . ولمـــا كان عليه تعيين الأقاليم التي سيسند الحكم فيها الى القناصل والقضاة العدليين في سنة ما ، وتلك التي سيبقى الحـكم فيها في أيدي من تولاه في السنة السابقة وستمدّد ولايته عليها ، فانه يخدم الأشخاص المعنيين او يضر بهم بوحي من شعوره نحوهم . ولم يقدم ، زمناً طويلاً ، على توزيـع الأقاليم هذا ، إلا بعـد الانتخابات : وقد وجب انتظار قانون اقترحه كايوس غراكوس ، في السنة ١٢٣ ، حتى يضطر للبت به قبل معرفة أسماء المنتخَبين ، الأمر الذي عرقل تدابيره دون ان يكفي لإلغائها . وكما انه يستقبل السفراء الأجانب ويجيبهم على أسئلتهم ، فانـــه يعين السفراء الرومان ويزودهم بالتعليمات : فليس بالتالي من حرب نظامية دون رأيه ، وليس من صلح ايضاً اذا لم يوافق على بنود معاهداته . وهو الذي يحدّد ، قاضياً قاضياً ، العدد اللازم للجيوش والأساطيل والوسائل المالية المقابلة . وهو الذي يمنح او يرفض « موكب الفوز » للقائد المنتصر . وهو الذي يوجـــه اليه قادة الاقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع اليه الشاكون مظالمهم : فبرز من ثم نوع من السلطة القضائية الخاصة بمجلس الشيوخ يوزع بموجبها اللوم اذا لم يستطع فرض العقوبات الاخرى . اضف الى ذلك ان الشيوخ ، حتى استلام كايوس غراكوس منصب المحاماة عن الشعب ، وطيلة السنوات العشر التي بقيت فيهـــا قوانين سيلا سارية المفعول بعد ذلك ، قد وحدهم اعضاء مجالس المحلفين « الدائمة » : وكان احد هذه المجالس مختصاً بالنظر في دعاوى سرقات امناء الخزينة التي ترفع على حكام الاقاليم بنوع خاص .

اذا كانت صلاحيات المجلس الاخرى اقل تأثيراً مباشراً على ارتقاء القضـــاة في المناصب ، فانها مع ذلك قد اسهمت في جعله يلعب دوراً حاسماً في الحياة الاجتماعية .

لنفصل عنها السلطات الدينية التي تعبر عن شيء من طبيعته الحقيقية ، اعني به اشتراكه في الكائن غير المادي الذي هو روما . فحين شغور « السلطان » المطلق ، اي شغور منصب الملك من قبل ، وشغور منصب القنصلين الآن ، الذي قـد يعقّده شغور منصب الدكتاتور ايضاً ، يعود الى « الآباء » حق استطلاع طيران الطيور وتعيين « الملك المؤقت » . وفي الظروف العادية يسهر مجلس الشيوخ على القيام بالاحتفالات والطقوس ، ويقرر الاعياد ويحدد ميزانيتهـــا ويجيز عبادة الآلهة الجدد او يصدر حكمه عليهم ، الخ .

اما ما تبقى فادارة مـــادية . من ذلك ادارة ممتلكات المدينـــة مثلاً : فهو يقرر انشاء المستعمرات لانه يحر الى هبة قطع الارض المسلوخة من الاملاك العامة ، وفي المدة التي تفصل بين تعيين قاضي الاحصاء الخلف وانتهاء مدة قاضي الاحصاء السلف ، يبت بالشؤون المتعلقة بنفقات وايرادات الدولة ، ولا يتصرف القضاة الماليون المسؤولون عن الخزانة الا وفاقـــاً لاوامره ، وهو الذي يجيز اصـــدار النقد . بحيث ان اكثر القطع النقدية تحمـــل الحرفين . S.C. (Senatus - Consulto اي بموجب « مشورة ») .

لم يعترض على اية من هـــذه السلطات حتى آخر الجمهورية . ويكتفي ألد اعداء مجلس الشيوخ بالقول انها ليست وقفاً عليه وان الجمعيـــة الشعبية ، ذات السيادة ، تستطيع ان تحد منها . ويستصدرون عند الحاجة قانوناً يدخل تعديلاً عليها او يقضي بقرار خاص : فرز قطعة من الاملاك العامة ، واسناد ولاية اقليم الى احد القضاة ، الخ . اجل ، ان المجلس ينظر شذراً الى هـذا الانتقاص من امتيازاته التقليدية ، ولكنه لا يتجاوز في اعتراضه حداً معقولاً ويقرر الانحناء في النهاية .

بيد ان الوضع قد تغير في السنة ١٢١ ، حين اقرت ، في حمّى الصراع ضد كايوس غراكوس المشورة « القصوى » التي تلزم القنـاصل بالحرص على ان « لا تصاب الدولة باي سوء ». وقـــد اعتمدت هذه الصيغة إبان الازمات اللاحقة ، ولكنها بقيت مبهمة . غير انها ، في الواقـع ، قد سمحت باسم السلامـــة العامة ، كما فهمتها آنذاك اكثرية المجلس الساحقة ، بالاقدام ، دون اية محاكمة ، على اعدام عـــدة مئات من انصار كايوس غراكوس في السنة ١٢١ ، وساتورنينوس وغلوشيا واصدقائهما في السنة ١٠٠ ، وشركاء كانيلينا في المؤامرة ، بامر القنصل شيشرون ، في السنة ٦٣ . فهي اذن تمنح القضاة سلطات دكتاتورية مطلقة وتوقف مفعول كافـــة الضمانات الشرعية ، ابتداء بحصانة المحامين عن عامة الشعب وحق رفع الدعوى امـــام جمعية الشعب . وهذا لعمري حق جديد يدّعي به المجلس دون استناد الى اية سابقة . ولكن خصومه اذا ما هم ثاروا على اللاشرعية وتوصلوا من ثم الى الحكم على شيشرون بالنفي في السنة ٥٨ ، فانهم قد لجأوا هم ايضاً الى المشورة « القصوى » في السنة ٨٣ مثلاً ، حين توجب عليهم الدفاع عن انفسهم ضد « سيلا » ورأوا انفسهم اسياد المجلس الى حين . فلسنا في الحقيقة امـــام تجديد دستوري ، بل امام تدبير قوة : النظام يتخبط في ازمة ولا يعبأ بالشرعية .

النظـــام المجلسي واسباب ازدهـــاره

مر من قبل في مراحل عظيمة هادئة مسلم بها . وهو قـد ارتكز الى اسس ادبية تفوق باهميتها نصوصاً مكتوبة هي عمل بشري قابل التحوير . وليس باستطاعتنا ان نرد هذه الاسس الى الوحدة ، لا بل ليس باستطاعتنا معرفـة مدى أهميتها النسبية بالضبط : فهي متشابكة كلها . فكان هنالك احترام الـ Mos majorum « عرف الجدود » الذي يفرض الايمان بالحكمة القديمة ، أي بالعهد الذهبي نوعاً ما : ان هـــذا

عائلة كورنيليوس شيبيون وأم أنسبائها

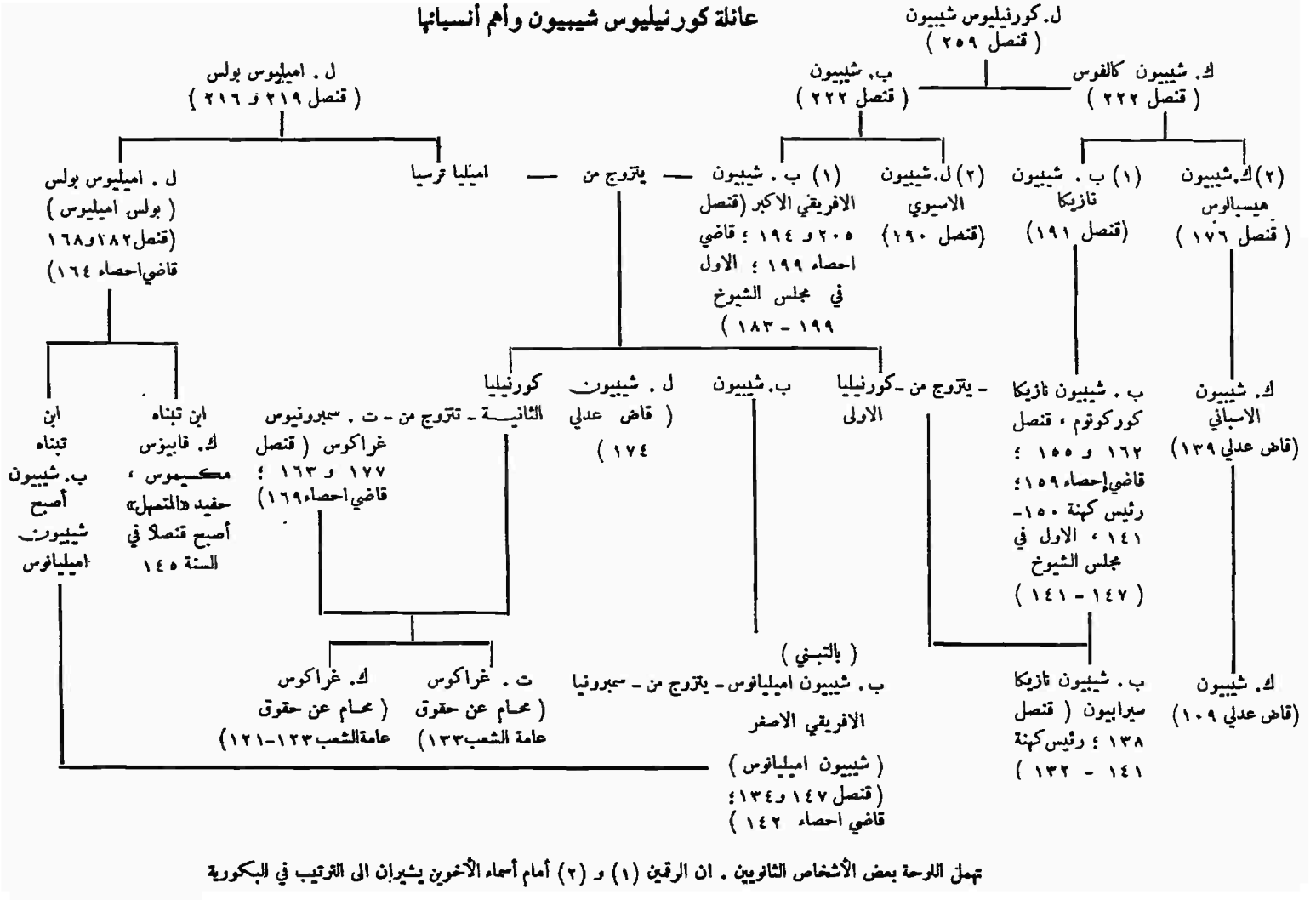

تهمل اللوحة بعض الأشخاص الثانويين . ان الرقمين (١) و (٢) أمام أسماء الآخرين يشيران الى الترتيب في البكورية

الاحترام هو الذي أعطى التقليد قوّته ، لا بل أعطى ، الى حد ما ، كل سابقة قيمتها . وكان هنالك الاعتراف بالقوى المتجسدة في غير العدد الأكبر . وكان هنالـــك ما يشبه الحاجة في النفوس الى النظام والنظامية . وكان هنالك ما ينتزع قبول الفرد بالانتماء الى المراتب التسلسلية ، أعني به الشعور بأن الانسان يوازي بما يمثله ، لا سيما في ماضيه ، اقله ما يوازيـــه في حاضره . وقد اسهم كل ذلك في اقرار سيطرة مجلس الشيوخ . ولم يفت هـذا الاخير ، على كل حال ، ان يلجأ الى بعض التمييزات المفيدة : فقد أصدر حكمه مثلاً ، في تعاليمه حول الماضي ، على الملكية وبرع في إزالة أضرار رواسبها في مناصب القضاء العليا . وتهيب بنا هذه الملاحظة الى ان نذهب في بحثنا الى ما وراء المثاليـــة : فكما ان المؤرخ لا يستطيع نكران ما تنطوي عليه مشاعر واعتقادات الجماعة من أثر خاص في تحديد حياتها السياسية ، كذلك لا يستطيع ان يتجاهل ان هذه العوامل الروحية تقتصر في أغلب الأحيـــان على السموّ بوضع راهن وان اتفاقها مع غيرها يقرر على كل حال أهميتها العملية .

ان التحاليل السابقة تناولت عن قصد ، في الدرجة الاولى، عهداً يبتدىء في السنوات الاولى من القرن الثالث ويمتد الى الارباع الثلاثة الاولى تقريباً من القرن الثاني . في هذا العهد ازدهر في كماله ، بعد ان تعرض لعاصفة قبل ذلك ، ما يجب تسميته بالنظام المجلسي . فهو قد نشأ ، بهذا الشكل ، عن الحرب البونيقية الثانية التي نسبت هزائمها الاولى ، لا سيما هزيمتا بحيرة ترازيمينـا و«كانا»، الى قواد شعبيين سبق لهم ان حاربوا مجلس الشيوخ. ومنذ « كانا »، وحتى نهاية الحرب ، نهض هذا الاخير ، بسبب احداق المخاطر وتعدد الجبهات الحربية وتغيب عظام القضاة وعـدد كبير من المواطنين المجندين تغيباً شبه مستمر ، وطيلة خمسة عشر سنة تقريباً ، بمهمة الحكم غالباً، والتنسيق دائمـــاً على الاقل ، وقد نهض بذلك وحده. او باستخدام قضاة من المراتب الدنيـــا كالمحامين عن حقوق عامة الشعب . وقد برهن آنذاك ، من جملة ما برهن عنه من صفات ، عن حزم وثبات امنا النصر لروما ووفرا له سلطة لم يعرفها من ذي قبل . وان كثيراً من الطرائق والسوابق التي لجأ اليها بعد ذلك قد ظهرت اثناء الحرب حلولا موفقة، وما كان تعاقب النجاحات العسكرية الكبرى في القرن الثاني ليستطيع الانثناء عنها.

بيد ان سيطرة مجلس الشيوخ ، حتى في هـذه الحقبـــة ، قد ارتكزت الى سبب آخر غير الانظمة ومهارة احد اجهزتها في جعلها تخدم مصلحتها بالذات . فالنظام المجلسي قد منح السلطة طبقة عبر وجودها الراهن ، دون ان يكون له بعد اي طابع رسمي ، عن شراكة في المصالح . ونحن سنعود الى هذا الواقع الاجتماعي في سياق البحث . بيد ان الاشارة تجدر منذ الآن الى ان الشيوخ كانوا آنذاك اوسع المواطنين ثروة واعظم الملاكين العقـاريين ، وانه كان لديهم « زبن » عديدون سيطروا بواسطتهم على الناخبين،وان مصاهرات متبادلة كثيرة قد جمعت بين عائلاتهم، وان ابناءهم كانوا يدخلون « مراتب الامجاد » بقوة ويدخلونهـــا وحدهم تقريباً ، وان « نبلاء »

مجلس الشيوخ كانوا بمثابة طبقة ومناصب القضاء بمثابة وقف عليهم . وقد تتيح الاحصائيات الاستشهاد ببراهين عديدة تثبت هذا القول ، ولكننا نكتفي ببعض الارقام التي لا تحتاج بلاغتها الى اي تعليق . من السنة ٢٣٣ الى السنة ١٣٣ ، اي خلال مئة سنة ، تعاقب على روما مئتا قنصل ينتسبون الى ثمان وخمسين عائلة فقط ؛ لا بل حدث اكثر من ذلك ، فقد قدمت ست وعشرون عائلة ١٥٩ قنصلاً ، وعشر عائلات اخرى ٩٩ قنصلاً . فكيف لا يتحقق الاتفاق للابقاء على هذا الوضع واستثماره .

٢ ـ فشل النظام ونواقصه

منشأ الازمات

على الرغم من ذلك انفجرت الأزمات، مرتدية باطراد مزيداً من الخطورة، حتى الحروب الأهلية التي ستفضي الى النظام الامبراطوري . فيتوجب علينا من ثم البحث عن أسبابها وراء الرجال الذين تسببوا فيها .

كان أحد هذه الاسباب محتوماً ، كما رأينا ، اذ ان مجلس الشيوخ قد تساهل في استمرار حروب دائمة أو عجز عن ان يضع لها حدّاً : فحصل بعض القادة على المجد والغنيمة بانتصاراتهم وأمنوا تعلّق جيوشهم التي غدت جيوشاً محترفة ، فوجد بينهم من يرفضون العودة الى الحياة المدنية حين يضمنون احترام أمثالهم . بيد ان الطموح الى السلطة ما كان ليراودهم لو لم يكن النظام ضعيفاً .

تسرّب الضعف بالفعل الى النظام عن طريق اختلافات الارستوقراطية المجلسية . فقد ساعد ضيق إطارها على تشكيل عُصب من الدساسين حول بعض الزعماء . وقد لعبت العلائق العائلية في هذه العصب دوراً لم يكن حاسماً على الدوام لأن الحسد وحتى البغضاء قد ينشآن بين الانسباء الأقارب : فان ب . كورنيليوس شيبيون نازيكا سيرابيون وطيباريوس غراكوس ، والأول هو قاتل الثاني ، كانا ابنين لشقيقتين. وكان للصداقات او العداوات الشخصية وللخدمات المتبادلة او منافسات الوظيفة دورها ايضاً. ويصطدم المؤرخون اليوم بعدم توفر المستندات لوضع دراسة عن هذه الاحزاب وتتبع تقلباتها التي من شأنها ان تلقي نوراً ساطعا على أكثر من قرار من قرارات السياسة الرومانية . ومهما يكن من أمر ، فان تضامن النبلاء قد شابته الخلافات المتأصلة ، ولم تتراجع الاهواء الهائجة امام افظع الفضائح: فلم تكن حياة كاتون القديم مثلاً سوى سلسلة من دعاوٍ رفعها على غيره او رفعها غيره عليه ، كما ان شيبيون الافريقي نفسه قد غادر روما ليقضي آخر حياته بعيداً عنها ، مختاراً النفي وثائراً على البشر ومحتقراً كل الاحتقار التهم الموجهة اليه .

وضعف النظام كذلك ، اخلاقياً ، باستثمار أسياده لسلطتهم استثماراً أنانياً . وقد شدّد بوليب على حرص القضاة الرومان في التصرف بالأموال العمومية وفضلهم بقوة على مواطنيه

الاغريق : « قد يضع الاغريق عشرة عقود ويفرضون عشرة أختام ويستعينون بعشرين شاهداً، ولكنهم يعجزون مع ذلك عن القيـــام بوظائفهم بنزاهة . اما عند الرومان ، فبمكنة القضاة والسفراء التصرف بمبالغ ضخمة ، وهم يبرهنون عن نزاهة كلية احتراماً منهم لقسمهم فقط » . بيد ان بوليب قد أشار ، في مقاطع أخرى ، الى تبدل هذه الاخلاق . أتاح حكم الأقاليم وقيادة الجيوش ، في الواقع ، الفرص للغوايات والتجارب القوية . فخضع لها أكثر من واحد ، كما خضع لنشوة السلطة المطلقة عـــلى اجساد وحتى على حياة الكائنات البشرية له . فقـــد ورد في احدى خطب كاتون ، الذي لم يجد المجرم ما يجيب به عليه ، ذكر حادثة قتل حقير اقدم عليه عند نهـاية احدى الولائم ، ل . كوينكتيوس فلامينينوس نفسه ، القنصل السابق واخو بطل سينوسيفال ، كان ضحيته فارّ غاليّ يطلب الحماية، وذلـــك لغاية واحدة هي ارضاء قرطاجي عزيز عليه أبدى الاسف امامه ، حين اضطر لمغادرة رومـا بسرعة، لعدم تمكنه من مشاهدة مصارعة المسايفين . اضف الى ذلـــك عدم كفاءة عدد كبير من هؤلاء الرجال السياسيين الذين تسلموا القيادة ارتجالاً ولم يمارسوها وقتاً كافياً لاكتساب خبرة تعوزهم . فلا غرابة اذا ما توفرت الفرص الكثيرة لأعداء مجلس الشيوخ لاحتقار النظام كله من وراء الافراد المسؤولين .

وقد انضم الى كل ذلك ما هو أدهى : اختلال التوازن الاقتصادي والاجتماعي الناجم عـن الفتوحات . فقد قامت في روما طبقـــة من المواطنين الكادحين ، المتزايدين عدداً ، المستعدين للاندفاع وراء كل تيار وللاشتراك في كل ثورة. فسيطر الخوف، باكراً جداً، على الطبقة الحاكمة، من امكان تأثير بعض القادة الحربيين النافذين على هذه الطبقة. ولكن الخطر داهمها من جهتين. فحصرت همها في محاولة إحكام هؤلاء الرجال بتنظيم ارتقائهم وايقافه . ولم تفكر بالاصلاحات — او لم تعقد العزم عليها — أي بالتضحيات التي كان من شأنها ان تخفف من الخطر الثـــاني ، الحقيقي ، الذي أثاره وجود الجماهير الشعبية في المدينة والقلق المسيطر عليها . وكان الأوان قد فات حـــين حاول شيوخ ينتسبون الى العائلات الشهيرة ، آل غراكوس وأصدقاؤهم ، تدارك الداء . ولكن أكثرية المجلس الساحقة تكتلت ضدهم ولجأت هي نفسها الى العنف الفوضوي في سبيل محاربتهم . فجاء موتهم انتصاراً لها — وفي الواقع حكماً عليها بالزوال .

الفوضى والحرب الاهلية

ان الاضطراب الذي ابتدأ على هذا الشكل لم يعرف نهـاية حقيقية . فتقابلت فئتان منذ ذلك الحين تضطرم فيهما احقـــاد متبادلة : فئة « الشعبيين » وفئة « الافاضل » ، وقد ساندت كلا منهما مداورة فئة الفرسان . ولكن فئـــات النخبة الاجتماعيـــة ، حتى ولو اتحدت حين يتضح خطر الثورة ، مـــا كانت لتستطيع التغلب على الديموقراطيين ، الذين يفوقونهـــا عدداً ، الا باللجوء الى الرشوة والتهويل ، والقوة عند الحاجة .

فدرجت العادة ، عند الطرفين ، على ان لا يتراجعا امـام اية مغالاة في سبيل السيطرة على

الشارع والجمعيات ، وفرض مرشحيهما للانتخابات ، وشل عمل القضاة الذين حملوا هم زملاءهم على انتخابهم . وتوصلوا لان ينظموا فرقـــاً من الانصار ، وعند الحاجة من المسايفين العبيد حاملي الدبابيس والاسلحة الحقيقية في غالب الاحيان . ولنا في القرن الاخير للعهد الجمهوري الف مثل عن اعمال عنف افضت الى معارك دامية يتقاسم مسؤولياتها الطرفان . ويكفي هنا ان نستشهد بالوقيعة المفاجئة التي تصادمت فيها ، في شهر كانون الثاني من السنة ٥٢ ، على بعض المسافـة من روما ، زمر العدوين ، كلوديوس وميلون ، المهيجين المتطرفين المنتميين الاول للشعبيين والثـاني « للافاضل » . ومع ان السنة الجديدة قد ابتدأت ، فقد كانت المدينة دون قضاة في المناصب العليا ، اذ ان الانتخابات لم تجر ولم يعين « ملك مؤقت » فسقط كلوديوس جريحـــاً ونقل الى منزل حيث اجهز عليه حرس منافسه . ولكن اصدقاء الضحية احرقوا ، في اليوم التالي، قاعة اجتماعات المجلس ، فاستخدمت وقوداً لترميد الجثة . فغرقت روما في الفوضى .

وغرقت في الحرب الاهلية ايضـــاً ، لانه كان من المحتم ان تستدعي اضطرابات الشارع ، عاجلا ام آجلا ، تدخل الجوقات . وكانت الجوقات في قبضة قادتها الذين نزعوا بصورة طبيعية الى ان يجمعوا بين قضيتهم الشخصية وقضية الفئة التي هم مدينون بالقيادة لعضدهـــا . كانوا في البدء لا يزالون يحترمون الشرعية ، فاكتفوا باستخدام رصيدهم لدى الشعب واخـلاص جنودهم القدامى . ولكن هذا التحفظ ما كان ليستمر، فخطا الخطوة الحـــاسمة ، مرة اخرى ، على غرار ما حدث حين قتل طيباريوس غراكوس ، احـد افراد فئة « الافاضل ». فسيلا هو الذي حقق ، في السنة ٨٨ ، اول انقلاب عسكري باقحام جيوشه في « المدينة » حتى داخل الاطار الذي لم يسمح للقادة والجنود بدخوله الا للاحتفال « بموكب النصر » . كانت هذه سابقة اسرعوا من الجهة الثانية الى الاقتداء بها . فتحول التنازع السياسي الى حرب اهلية تزيد من مجد وطموح اولئك الذين كانوا يتزعمونها . وكان من شأن قهر جيش الخصوم ، وهو اشد ضمانة من هيـــاج جمعيات الشعب ومن سلطة مجلس الشيوخ من حيث انه يسمح بتحطيم الحواجز الشرعية بضربة واحدة ويجعل الاغتيال عملية رسمية عن طريق لوائح المحكومين بالقتل دونما محاكمة ، ان يولي السلطة ، اي سلطة من السذاجة الاعتقاد بان مستلمها سيتخلى عنها دائماً ، على غرار مـا فعل « سيلا» بعد ان سن للجمهورية قوانين جديدة .

فمات النظام الجمهوري تاركاً المكان للملكية الامبراطورية .

نواقص المدينة الجمهورية

بعد تفكيك هـذا التلاحم ، لا تستدعي نواقص النظام الأخرى درساً طويلاً . بيد انه تجدر الاشارة اليها على الاقل : فكما ان المدينة لم تعرف كيف تكيف بجيشها وحكومتها المركزية على الحاجات الناجمـــة عن الفتح ، كذلك لم تفلح في القيام بمهمة الادارة اليومية قياماً حسناً .

اجل لم تشكُ قط من عجز مالي. فقد عرفت في الحقيقة ، خلال الحرب البونيقية الثانيـة ،

صعوبات من هذا النوع حين اضطرت لأن تغرف من احتياطيها الذهبي لسكه ، ولتخفيض وزن القطعة الفضية ، الدرهم ، بمعدل السدس ، ولرفع قيمته مع ذلك من عشر قطع برونزية الى ستة عشر ، ولمضاعفة الضريبة المباشرة المفروضة على رأس المال مرّتين وحتى ثلاث مرات ، ولخلق حماس متفاوت التلقائية في مواطنيها الأثرياء بغية الحصول منهم على قروض او هبات . ولكن النصر وضع حداً لهذه المتاعب التي زالت نهائياً . فقد أفضت حروب القرن الثاني العظمى ، في بلدان الشرق الهليني ، الى كسب غنائم ضخمة كانت تودع الخزانة العامة بعد استعراض كل من مواكب النصر ، وتغذت الخزانة ، بالاضافة الى ذلك ، من تعويضات الحرب التي كانت تدفع أقساطاً ، ولا سيما من موارد الأقاليم ، كالضريبة السنوية ودخل الأملاك العامة (المناجم بنوع خاص) . ففدت المدينة على جانب من الثروة استطاعت معه ، منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ان تلغي الضريبة المباشرة المفروضة على مواطنيها : ولم تجبَ هذه الضريبة بعد هذا التاريخ . وفي السنة ١٢٣ أخذت تصدر ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي أرغمت الدولة ، وفاقاً لتطورات النزاع بين الاحزاب ، على بيع القمح للمواطنين بسعر مخفض تارة ، وحتى على توزيع بعضه مجاناً تارة أخرى : وحين فرض قيصر دكتاتوريته ، كانت لوائح المستفيدين من هذه الاعطيات العمومية السخية تضم ٣٢٠٠٠٠ اسم .

بيد ان هذا اليسار المالي ارتبط الى حدّ بعيد بطابع جهاز الدولة الذي بقي بدائياً جداً . فاذا ما استثنينا مرتبات العسكريين والطريقة الخاصة المعتمدة في تموين المدينة عن طريق بيع القمح بخسارة او توزيعه مجاناً ، انحصرت النفقات الرئيسية في العبادة والاشغال العامة . اجل كانت الألعاب التي تقام للترفيه عن الشعب في مواسم الاعياد الدينية باهظة النفقات ؛ ولكن نظار الأبنية والطرق الذين عاد اليهم أمر تنظيمها كانوا يتحملون نصيباً كبيراً من الأكلاف اهتماماً منهم بالدعاوة الانتخابية . اما الابنية ، بالاضافة الى ان سخاء الافراد ، او اقله سخاء القادة من دخل غنائمهم ، قد ساهم بأكلافها ايضاً ، فما زالت في حالة وسط نسبياً : فقد نمت روما شيئاً فشيئاً دون نظام معين ولم تحاول بالتالي ان ترتدي مظهراً خارجياً لائقاً بقوتها ، ولن يحوّلها سوى الملوك خدمة لنفوذهم الشخصي ؛ ولا شيء من جهة ثانية ، باستثناء الطرق ، في ايطاليا والاقاليم . اما الاقتداء بالدول الهلينية العظمى ووعي ضروريات الحياة المادية فلم يصبحا أمراً ملحاً إلا ببطء ؛ واستمرت روما في العيش كأنها مدينة صغيرة ، مستشهدة مبدئياً بتفاني واعتزاز مواطنيها الاولين بغية التقليل الى أقصى حد من نفقات ضرورية لتحقيق المهام الجديدة الملقاة على عاتقها. ولم يتقاض الشيوخ والقضاة والكهنة أي أجر اذ ان وظائفهم كانت «شرفية». وقد عاونهم كتبة ومساعدون دائمون يختلفون تولت الخزانة دفع أجورهم ؛ وكانوا كلهم من الفقراء لا يبلغ مجموعهم عدداً كبيراً ولم يؤلفوا يوماً دوائر قمينة بتأمين استمرار ادارة يتبدل المسؤولون عنها تبدلاً سريعاً .

لم يكن لهذه الادارة من وجود في الواقع ، أقله بقدر ارتباطها بالدولة . ولعل

أسوأ ما هنالك ان الدولة ، المتصلبة في تهربها من واجباتها ، سمحت بقيام ادارة خاصة حقيقية ، ادارة المزارع ، وتمادت في السماح لها بالعمل على حساب قوّتهـــا الخاصة وفي سبيل القضاء على مرؤوسيها : وان نظرة على تنظيم الاقاليم ومصيرها سيلقي ضوءاً على هذه المغالطة الظاهرة .

الاقـــاليم

لم تحدث روما ، طالما هي لم تبسط سيادتها الا على ايطاليا ، اي جهاز خاص لممارسة هذه السيادة . فقد عاد امر مراقبة سلوك الجماعات المحلية ، في اطـار الاستقلال ، الى مجلس الشيوخ والقضاة العاديين. وكان باستطاعة هؤلاء ان يفوضوا الحكام « *Préfets* » بتأمين هذه المهمة : وقد وُجد هؤلاء في كمبانيا بنوع خاص ، عينهم قاضي المدينة العدلي في البداية ، ثم انتخبهم الشعب ، بغية توزيع العدل . بيد ان النتائج اتت متوسطة فقط وغالبا ما افسدهـــا تحكم القضاة ، فحاول قيصر ادخال النظام الى هـــذا التنوع وتنظيم الحكم المحلي في الوقت نفسه تنظيماً اقرب الى الديموقراطيـــة ، بواسطة قانونه « البلدي » . غير ان الشكاوى لم تكن قط عامة او خطيرة .

ولكن رومـــا ، منذ منتصف القرن الثالث ، سيطرت وحافظت على اراض تقع وراء البحر — صقليا في الدرجة الاولى — فتوجب عليها استنباط نظام جديد : فغدت هذه المناطق « ولايات ». وقد عنى هذا التعبير في البدء، ولمدة طويلة جداً ، المهمة المسندة الى احد القضاة ، اي صلاحيته الخاصة : السلطة القضائيـــة ، وقيادة الاسطول وادارة الحرب الخ . فصدر شيئاً فشيئاً عن هذا العمل الاخير ، الذي كثيراً ما يقوم به قضاة المناصب العليا ، مفهوم الاقليم ، اي الاقليم حيث تدور العمليات، او الاقليم المحتل المسندة ادارته الى حاكم، اي الى قاض . وقـــد درجت العادة ، حتى سيلا ، على ان لا تتجاوز مدة الاسناد سنة مهمة القـاضي . ولكن تطور المفهوم هذا لم يزل مفهوم المهمة الفردية: فالرجل الذي يتسلم اقليماً من الشعب الروماني ، يتسلم منه تفويضاً بجميع سلطاته على هـــذا الاقليم ؛ وكان من جهة ثانية يتمتع فيه « بالسلطان العسكري الكامل .

كان من شأن هذا النظام ان اخضع الاقليم الى تبديلات متكررة في الحكام : وقد حدث ذلك مبدئياً ، وعملياً كل سنة ايضاً في اغلب الاحيان ، حين لا « تمدد » ولاية القاضي . وقداخضعه بنوع خاص الى تعسف الحاكم، بسبب السلطات الواسعة التي يمنحها هذا الحاكم، الحق الذي يؤتيه اياه النصر . اجل لقد اقر « قانون الاقليم » حين إنشائه ؛ وكان هذا القانون له بمثابة الدستور ، يحدد بقعته ويعين النظام الخاص الممنوح ، مثلاً ، للمدن التي عقدت معاهدة مع روما واستحقت صفة « المتحدة » — وقد اعترف ببعضها « حرة » احياناً — ويبين مبلـغ التعويض المفروض ، كيفية استيفائه ، الخ . ولكن الحاكم ، ممثل سلطة روما وقوتها ، المتمتع بحق توزيع العدل ، البعيد عن كل رقابة او خطر باستثناء خطر الدعوى التي قد ترفع عليه بعد عودته الى ايطاليـا ، كان حراً طليقاً في اخضاع سكان الاقليم لتطلباته حتى غير الشرعية ناهيك عن التسهيلات التي وفرتها

له بعض العادات كالتلاعب في الرسم المفروض على الحنطة ، وهو يختلف عند الشراء عنه عند البيع ، او كالواجب المفروض على الاقليم بتأمين معيشته ومعيشة بطانته .

الى هذا الاغتصاب يقدم عليه السيد ، انضاف اغتصاب المزارعين . فالجمهورية الرومانية لم تحاول قط ، في الحقيقة ، تنظيم اقل ادارة مالية ، لا لنفقات الخزانة ولا لواردات ولا لاستثمار املاكها العامة . وقد وكلت هذا الامر الى مزارعين هم على العموم جمعيات ذات شأن كثيراً ما تفرض نفوذها على الحكام المكلفين مبدئياً مراقبة اعمالها . وقد ارتبط هؤلاء بها باشكال مختلفة ابتداء من الرشوة حتى التهديد بالتشهير تلميحاً او تصريحاً . وقد شاركها الكثيرون في ارباحها عن طريق وسطائهم . وقد تمتعت هي ، عن طريق ثروتها واشخاص اعضائها ، بنفوذ سياسي عريض في روما ، لا سيما حين قضى « القانون العدلي » ، الذي سنه كايوس غراكوس ، باستدعاء الفرسان ، اي اعضائها واصدقائهم ، كمحلفين في المحاكم . وبعد ان توسع هذا الحق ، ثم الغاه سيلا ، ثم اعيد في اعقاب الدعوى التي هاجم فيها شيشرون قاضيَ صقليا العدلي السابق ، فيريس ، جعلهم اسياد دعاوى سرقة الاموال العمومية المسلّطة على الحكام . اجل لجأت المدن والملكيات اليونانية ايضاً الى تلزيم الاموال بغية تجنب انشاء ادارت دقيقة . ولكنها جزأت التلزيم ، وغالباً ما افرطت في التجزئة ، ومارست مراقبة شديدة على الملتزمين ، حائلة دون حصولهم على قوة اجتماعية وسياسية . اما الرومان فلم يحافظوا على هذا النظام الا في صقليا والغوه في المناطق الاخرى كما حدث في المملكة الاطالية القديمة التي اصبحت الاقليم الأسيوي . فقصروا في واجباتهم الاولية نحو انفسهم ونحو رعاياهم بسبب افتقارهم الى ذوي الاختصاص ، وخوفهم امام تعقيد المعضلة العملية ، وانانيتهم وقسوتهم كفاتحين يعتبرون كل شيء جائزاً للمنتصرين . وكان من مصلحتهم في الحقيقة تأمين بقاء الرعايا ، فحدوا من جهة ثانية ، من حريتهم الشخصية بسماحهم لارستوقراطية مالية ان تنمو وتصبح الحكم في نزاعاتهم الداخلية .

كانت الاقاليم اذن خاضعة لاستثمار لا حد له تقريباً . فحتى ولو لم يل الحكمُ الاقليمي حرباً حقيقية واسند الى هذا او ذاك لمناسبة الفوز بقضاء عدلي او بقنصلية ، فانه قد بات وسيلة طبيعية لاعادة بناء ثروة بذرها بذخ الحياة في روما او النفقات الانتخابية . ومع ان شيشرون كان حاكماً نزيهاً على كيليكيا في السنة ٥٠ ولم يقم سوى بحملة قصيرة ضد الجبليين المساكين ، فقد جمع بعد انقضاء السنة ما يعادل ٥٥٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤ . اضف الى ذلك ان الاقاليم قد تعرضت لغزو « تجار » من جميع الطبقات ، بينما لم يكتف عملاء الملتزمين بفرض ما يفوق حقهم في جباية الضرائب او بفرض الاشغال الشاقة في المناجم والمحاجر والاملاك العمومية الاخرى الملزمة ، بل عمدوا ، لا سيما مع الجماعات ، الى الربى الفاحش — ٤٨ ٪ واكثر احياناً . وقد حمل الحكامَ على الحكمة ما حدث للوكولوس الذي اراد وضع حد لفضيحة هذا الربى والذي افضت المعارضة الفعّالة لدى جنوده انفسهم ، في السنة ٦٧ ، الى فقدان حظوته وانهزامه ، فتغاضوا عن كافة هذه التصرفات ، لا بل اشتركوا فيها احياناً باقراض جيوشهم والحكم في الدعاوى .

ذاك كان منذ القرن الثاني ، واستمر حتى عهد الامبراطورية ، النظام السائد في الاقاليم الرومانية . وكان منه في الحقيقة ان ادخل عوامل فوضى إضافية الى مدينة شكت من المزيد منها . فليس هنالك من دولة ؛ وليس من وحدة وحتى من تضامن ؛ وليس من ادارة، بل اقاليم معزولة لكل منها حاكمها الذي هو ملك يتمتع بسلطة مطلقة وسريعة الزوال في آن واحد ، واراض توفر المال والاسلحة احياناً لأسيادها في ثوراتهم على الحكومة المركزية ، وبلدان نهبت أثناء الفتح واستثمرت بعده دونما شفقة ، لا لمنفعة المجموع بل لمنفعة مواطنين أثرياء ، وشعوب انتزع منها ليس استقلالها فحسب بل ممتلكاتها المادية ايضاً فغدت مستعدة لاستقبال أي محرر : فبعد انتصار ميتريدات مثلاً ، شفى العالم اليوناني غليله في السنة ٨٨ بتقتيل ٨٠ ٠٠٠ روماني وايطالي في آسيا الصغرى ، و ٢٠ ٠٠٠ بعد ذلك في ديلوس ، بينما كان ملك البونت – ولكن التقليد يعرف كيف يبتدع الأماليح الرمزية والكلمات التاريخية – يسكب الذهب المذوّب في فم احد القناصل السابقين .

ليس من ريب في ان الجمهورية قد تركت ، عند زوالها ، عملاً ضخماً شاقاً للنظام الذي سيخلفها .

الفصل الثالث

التطوّر الاجتماعي والاقتصادي

اذا لم تكيف المدينة الجمهورية أنظمتها ، بسبب لامبالاتها او عجزها ، وفاقاً للنتائج المباشرة وغير المباشرة التي أدى اليها الفتح ، فقد أصبح من المحتم ان يقلب هذا الأخير ظروف حياتهـــا الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب . وان التطور الذي نلاحظه في هذه الحقول لمن أشدّ الاحداث تأثيراً في تاريخ العصور القديمة من حيث اتساعه الخاص ومن حيث انعكاساته .

فليس من تبدل ، في أي مكان ، اعظم بروزاً منه في جهاز ونوع حياة الطبقة الحاكمة ، تلك التي توفر لنا مستنداتنا حولها مزيداً من المعلومات .

١ ـ الطبقة الحاكمة

الاقتصاد والمجتمع الاوليان

كانت روما في البداية مدينة فلاحين يتعاطون الزراعة وتربية المواشي. وقد بقيت الحياة البسيطة التي يمارسها في الحقول ملاّك يعنى بقطيعه ويحرث ارضه بنفسه، مثلاً قومياً أعلى، وان كان على العموم مثلاً مبتذلاً كما هو طبيعي . ولكن التربة الرومانية بالذات ، لم تكن صالحة جداً للاستثمار الريفي حتى ولو صرّفت مياهها وفاقاً للتقنيات الاتروسكية . لذلك فان روما وسكانها قد لبوا دعوة أخرى ، هي دعوة موقع روما كمدينة – جسر هي أقرب المدن الى مصب التيبر حيث يتوجب على الملاحة البحرية ان تفرغ شحناتها وحيث تلتقي بالتـــالي طرق برية او مختلطة : احداها موازية للساحل تقريباً ، من اتروريـــا الى كمبانيا، والثانية تحاذي النهر وتسير عليها المواكب التي تنقل الملح – ولذلك سيطلق عليها اسم « طريق الملح » – قاصدة جبال « الابنين » الوسطى. فيتضح بالتالي ان نشاط روما التجاري قديم جداً حتى قبل ان يجعل منه تزايد سكانها امراً واجباً ويفرض استيراد كميـــات متزايدة من الحبوب لسدّ نقص الانتاج المحلي . فلا مجال بالتـــالي ، منذ عهد مبكر جداً ، لأن نهمل – الى جانب الريفيين – مدنيين نشيطين ايضاً مع انهم يعيشون حياة اخرى .

فهل يجدر بنا التشديد على هذا الخلاف لتفسير توزيع المواطنين منذ القدم الى طبقتين، طبقة

الأشراف وطبقة عامة الشعب ؟ منذ زمن قديم تناولت معضلة أصول هـذا التوزيع الاجتماعي الثنائي حلولاً مختلفة جـداً : ومن الجرأة ، حتى اليوم ، ابداء رأي قاطع في هـذه الاصول . اما في الواقـع ، فحين يتراءى الفرق بين هاتين الفئتين من المواطنين ، أي حين يبدأ التقليد ، الذي يشك بالكثير من رواياته وتفسيراته ، في الكلام عن النزاع بينهما ابتداء من اوائل القرن الخامس ، تبدو طبقة الاشراف كأرستوقراطية من الملاكين العقاريين وطبقة عامة الشعب كطبقة مؤلفة من عناصر مختلفة جداً يتجاور فيهـا صغار الملاكين الاحرار والصناعيون والتجـار . ومهما يكن من الامر، وحتى ولو سلمنا بان الاختصاص الاقتصادي كان له دوره في اصل هـذا التوزيـع ، فان خلافـات اخرى متنوعـة قد برزت وارتدت مزيداً من الاهمية .

كان الاشراف وحدهم في الواقع منظمين عائلات كبرى *Gentes* يحمل كافة اعضائهـا اسم (*Gens*) ، مما فرض استعمال اسماء شخصية وحق القاباً . وقد تفرعت هذه العـائلات الى عائلات صغرى خضعت كل منها الى سلطة « ابي العائلة » (*Pater familios*) وكان لكل منها تقاليدها ، واعرافها وعباداتها الخاصة ، واملاكها المتجاورة على العموم ، الجماعيـة احياناً ، والمتمتعة ، على الاغلب ، بامتياز اشبه بحق استرداد المبيع منها . وبالاضافة الى افراد العـائلة (*Gentiles*) حفدة جـد الـ (*Gens*) او المرتبطين بذريته بالتبني ، كان للعـائلة ، « زبنها » ايضـاً اي اناس « يسمعون » كلمة السيد ، مرؤوسون تقليديون بالوراثة . وكان بين هؤلاء معتقون، ولكن واحداً منهم لم يمتلك كثيراً من العبيد بعد. ولذلك فقد كانوا في اغلبيتهم رجالاً ، وفلاحين احياناً ، وضعوا انفسهم ، لاسباب مختلفة ، اقتصادية احياناً، تحت حماية احد المقتدرين القانونية والمادية ، « نصيرهم »، متعهدين له بالمقابلة بان يسيروا وراءه ويساندوه حق باموالهم في بعض الحالات . اجل ان قيام الروابط بين رجل ورجل ، احـدهما يحمي الآخر ويدخله في خدمته ، له ما يشبهه في كثير من المجتمعات القديمة وحتى من مجتمعات احدث عهداً. ولكن هذه الروابط لا تبرز في أي مكان آخر أعظم اتساعاً وفعاليـة منها في روما لأن نظام الاستزلام (الزبن) الذي كان في البدء خاصاً بطبقة الاشراف قد اصبح شيئاً فشيئاً نظاماً عاماً استفاد منه كل غني ومقتدر، وأثر، حتى النهاية ، في تنظيم وحياة المجتمع الروماني . وقـد سمح هـذا النظام ، في تلك الأزمنة القديمة ، لبعض العائلات بتأليف مجموعات بشرية هامة : يقال ان عائلة فابيا (*Fabia*) كانت تضمّ ، في السنة ٤٧٩ ، بالاضافة الى ٣٠٦ افراد ، ما بين أربعة وخمسة آلاف « زبون » . فيظهر جلياً ان هـذا التأثير على أعضاء الطبقات الدنيا ، بالاضافة الى الدور العسكري الذي لعبه الاشراف بفضل ثروتهم وتربيتهم ، قـد وفّر لهم احتكار السلطة السياسية الوطيد العلاقة باحتكار الحماية والرعاية .

بيد ان بعض « الزبن » ، على الرغم من مساعي الاشراف — ان قانون « اللوحات الاثني

عشرة يعاقب خيانة الزبون – وحتى دون زوال العائلة ، قد حطموا هـذه القيود ، منذ عهد باكر جداً ، للالتحاق بعامة الشعب او للعودة اليها . فهنا لا يجد الانسان نفسه محاطاً بمثل هـذا النظام الديني والاقتصادي والاجتماعي . وقد تمسك الاشراف بهـذا الفارق ضناً منهم بامتيازات طبقتهم ، فرفضوا زمناً طويلاً الاعتراف بشرعيـة الزواج المختلط ، في حال انهم وافقوا عليها دونما صعوبة ، وعلى قـدم المساواة ، بينهم وبين عائلات نبيلة من مناطق ايطالية مضافة الى الارض الرومانية ، شرط ان يكون تنظيمها شبيهاً بتنظيمهم . وجهلت عامة الشعب المجموعات العائلية التي لم تظهر فيها إلا تدريجياً ، خالية من معناها الحقيقي . وكذلك ، فقـد اختلف اختلافاً بيّنا ايضاً التنظيم الجماعي ، المتميز ، الذى جعل من العامة ما يشبه مدينة قائمة بذاتها لها قضاتها الذين انتخبتهم ليدافعوا عنها ضد طبقة الاشراف ، ومرد ذلك الى ان هـذا التنظيم كان مستقلاً عن الوراثة والاطارات الاجتماعية التي ترسمها ، والى انه وضع جنباً الى جنب مواطنين متساوين مبدئياً .

انهيار طبقة الاشراف وطبقة النبلاء

أفضى هذا الصراع الطويل والعسير احياناً الى بلوغ المساواة المدنيـة والاجتماعية والسياسية بصورة تدريجية ، فكانت النتيجة المحتومة انهيار الطبقة المحظية .

حافظ الاشراف على حقهم في بعض وظائف كهنوتية نادرة جداً او على وظائف يغلب عليها الطابع الديني كوظيفة الملك المؤقت مثلاً . وقد احتفظوا كذلك بأولوية أدبية من الصعب جداً ، على كل حال ، تحديدها ومعرفة مداها : فقد احترم الرومان نظام المراتب المستند الى التقليد . ومما يدعو الى الدهشة البطء الذي رافق ظهور بعض مبادىء المساواة في الوقائع بعد بلوغهـا . فهكذا بعد ان حصل الشعبيون في القرن الرابع على حق اسناد احـد منصبي القنصل او قاضي الاحصاء الى احدهم بالضرورة ، انتزعوا ، في منتصف القرن الثـالث ، حق شغلهما كليهما في آن واحد . ولكن القنصلين لم يعينا من بين عـامة الشعب ، للمرة الاولى ، الا في السنة ١٧٢ وقاضي الاحصـاء الا بعد القنصلين باربعين سنة ، ولم تدرج هـذه التجديدات في الاعراف والعادات . لا بل ان نسبة الاشراف في كافة الاجهزة الحاكمة ، باستثناء مناصب قضاة عامـة الشعب فقط ، قد بقيت مرتفعة اذا ما قيست بعددهم الحقيقي .

بيد ان هذا الواقع ليس ذا شأن لانهم ما كانوا ليجدوا فيه سوى ارضـاء لانانيتهم او دور ابهة دون اثر سائد لا يحسب لآرائهم فيه اي حساب . فقـد اسهم كل شيء في ان ينزع عنهم طابع الطبقة المتميزة بنوع حياتها : تكرر الزواج المختلط وتراخي روابط استزلام الزبن الذي غدا اوسع شمولاً ، وتجزئة الاملاك العقارية العائدة الى عائلاتهم ، واثراء عناصر اجتماعية اخرى . ومن جهة ثانية اخذ عددهم بالانخفاض لان انضمام العائلات الجديدة اليهم بعد انصهارها في المدينة الرومانية قد زال منذ القرن الثالث : ففي آخر الجمهورية ، على مانعلم لم يبق هنالك سوى اربعة

عشر من هذه العائلات الكبرى تضم ثلاثين عائلة صغرى تقريباً . وبالاختصار ، فان الماضي ، على هذا الصعيد ، قد ادركه الموت ، وان الدم الجديد الذي وفره الاباطرة، تمسكاً مفرطاً منهم بالشكليات الدينية ، لم ينجح قط في اعادته الى الحياة .

وقامت ارستوقراطية اخرى اطلق عليها اسم طبقة النبلاء « *Nobilitas* » وكان مقياسها في ذلك عضوية رئيس العائلة في مجلس الشيوخ : فهي قد جمعت اذن ، في آن واحد ، عائلات من عامة الشعب وعائلات من طبقة الاشراف . وقد فتحت ابوابها مبدئياً للجميع بمجرد الانتخاب لمنصب من مناصب القضاء . ولكن هذه الابواب قد اوصدت عملياً اذا ما نظرنا اليها كطبقة اجتماعية . ومرد ذلك الى انه يغلب ان ابناء الشيوخ الذين استطاعوا حضور جلسات مجلس الشيوخ وقوفاً وافادوا من تضامن النبلاء اثناء الانتخابات قد دللوا على نقائص لا تعوض اذا هم لم يرتقوا سلم المراتب . وعلى نقيض ذلك فقد كان هزيلاً جداً حظ المرشحين الآخرين ، « الرجال الجدد » — ولا ينطوي هذا التعبير على مفهوم دقيق ، بل استعمل على العموم للاشارة الى اولئك الذين لم يتوصل واحد من جدودهم الى اعتلاء منصب ذي « سلطان » . وكان من الندرة المستهجنة وصول احدهم الى القنصلية : اربعة فقط ما بين السنة ٢٠٠ والسنة ١٤٦ ؛ اما في القرن الاول فقد كان شيشرون اول من توصل اليها في السنة ٦٣ ، بعد ماريوس الذي توصل اليها في السنة ١٠٨ .

وقبل ان يحظى النبلاء باعتراف الدولة الرسمي ، استفادوا من عادات راسخة في التقليد حتى يتميزوا عن الطبقات الاجتماعية الاخرى . اجل لقد فقدوا امتياز الخاتم الذهبي الذي شمل الفرسان قبل ان يشمل كافة المواطنين ، ولكن الطريدة الارجوانية المحيطة على القميص من اعلى الى اسفل كانت عندهم اوسع عرضاً منها عند الفرسان . وكان لهم وحدهم الحق في انتعال الاحذية الحمر . وكان لهم اخيراً « حق الرسوم » ، اي حق عرض اقنعة او تماثيل جدود العائلة المجيدين في المواكب الجنائزية .

وهكذا فان هذه الارستوقراطية التي برزت في القرون الاخيرة من العهد الجمهوري قد تمتعت بامتيازات وافرة جوهرية وشرفية على السواء . ومهما كان من أمر نجاحات الحركة الديموقراطية ، فقد تنكرت الذهنية الرومانية لعملية التمهيد والمعادلة . اجل يستحيل علينا نكران ما تنطوي عليه من أهمية قانونية التنازلات التي انتزعتها عامة الشعب من طبقة الاشراف خلال صراعها الطويل . ولكن هذه الاصلاحات قد عادت بالفائدة على رؤساء عامة الشعب بنوع خاص ، أي على اولئك الذين كانوا في الواقع مساوين لخصومهم . وقد برهنوا ، بعد بلوغهم مآربهم ، عن الذهنية الطبقية نفسها التي شكا منها جدودهم : فان والد الاخوين غراكوس مثلاً ، الذي شغل منصب القنصلية مرتين ومنصب قضاء الاحصاء مرّة واحدة ، لم يكن ، على الرغم من انتمائه الى عامة الشعب ، اقل عجرفة ولا اقل قسوة نحو الوضعاء من أي شريف من الاشراف .

لم يكن هنالك مبدئياً من ضريبة « مجلسية » ولم يفرض قضاة الاحصاء ، لإبقاء احد الشيوخ على « اللائحة » ، حدّاً أدنى من الثروة . وكانت المزاحمة الانتخابية وطريقة الحياة المحترمة ، من جهة ، تفرضان نفقـــات باهظة ؛ ولكن الوظائف التي تمارس خلال الحياة السياسية كانت تتيح ، من جهة ثانية ، التعويض عن هـــذا الانفاق وتحقيق المكاسب بطرق تتفاوت نزاهة . فكان الشيوخ اذن من الأثرياء ، لا بل اوسع الرومان ثروة على العموم ، وكانت ثروتهم مجمدة في الممتلكات العقارية لأن تخصيصها لغاية أخرى كان محظراً عليهم نظرياً كما سنرى ذلك قريباً .

الفرسان

هل احتفظ لهم ولأعضاء عائلتهم ، أثناء عمليـــات الاحصاء ، بالوحدات المئوية المعروفة « بوحدات الفرسان » ؟ يبدو ذلك ثابتاً في البداية ، ولكن التطور اللاحق غامض في توقيته وكيفياته الرسمية . فقد فقد المدلول الذي يحدّده اسم الفارس معناه العسكري الاول . وبهذا المعنى ، كان الشيوخ وابناؤهم ، هم ايضاً ، وهم خصوصاً ، من « الخيالة » . وبعد ذلك ، اي خلال القرن الثالث كأبعد حـــد ، تميز الاسم بفارق جديد بحيث لم يعد من الممكن ان يعني سوى « الفرسان » . وقـــد عنى في الواقع المواطنين الاثرياء الذين لا ينتمون الى مجلس الشيوخ ؛ ويبدو ان الحـــد الادنى للثروة الضرورية قد انتهى الى ما يعادل /١٠٠٠٠٠/ فرنك (١٩١٤) في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهو معدل ضرائبي يخوّل حق الانتخاب وقد يكون هو نفسه ايضاً معدّل الطبقة الاولى بين الطبقات الانتخابية الخمس .

تميز هؤلاء الفرسان خارجياً عن المواطنين الآخرين : فقد اجازت لهم عادة درج عليها منذ اواخر القرن الثالث بحمل الخاتم الذهبي والطريدة الارجوانيـــة الضيقة ؛ واعطاهم قانون سنّه كايوس غراكوس الحق في مقاعد خاصة اثناء التمثيليات المسرحية . ولكنهم افادوا من امتياز عملي هو اثمن من كل ذلك الى حدّ بعيد : كان باستطاعتهم ، على نقيض الشيوخ ، استثمار رؤوس اموالهم ، كما استطاعوا ، بسبب إقصائهم عن مناصب القضاء ، احتكار العمليات المالية في روما . اجل لم يتعاطوا جميعهم الشؤون الكبرى : فقـد انتمى بعضهم الى بورجوازية المدن الصغيرة في ايطاليا ، وحتى الى بعض الملاكين العقاريين الذين اكتفوا بادارة املاكهم . ولكن تعاوناً وثيقاً قد وحّد هذه الطبقة التي ليس بمكنتنا تقدير عددها المتزايد باطراد بفعل انتشار الثروة . وقد افضى تعاونهم الى خدمة المضاربين الذين اداروا مصالح ضخمة وتوصلوا في الحياة السياسية الى سلطة يبررها دورهم الاقتصادي ومركزهم المتوسط بين المجلس وخصومه ، ان لم يبررهـــا عددهم . وبسبب عدائهم للأنانية المجلسية ، وللفوضى الاجتماعية بنوع خاص ، فانهم قـــد ساندوا هذا الحزب تارة وذاك الحزب تارة اخرى ، وقبضوا ثمن مساندتهم تسهيلات في سبيل توسيع ثرواتهم

الثروات والبذخ

ألّف الشيوخ والفرسان اذن نخبة المجتمع الروماني ، تلك النخبة التي عادت لها السلطة بصورة مباشرة او غير مباشرة . وقد توصل بعضهم ، لا سيما من بين

الشيوخ ، — اقله اذا صدقنا التقليد الذي يميـــل الى الاماليح وينقطع بالتفضيل الى الاشخاص المنظورين — الى تكديس ثروات طائلة جداً . ويبـــدو ان اعظمهم ثروة كان ، كما يبدو ، كراسوس الذي أطلق على جدوده ، منذ عدة اجيال ، لقب « الاغنياء » (*Dives*) . فقـــد ورث ما قيمته ١٨٠٠٠٠٠٠ فرنك (١٩١٤) ؛ ولكن مضاربات شتى ، ابتداء مـــن تلك التي وفرتها له احكام « سيلاّ » بالنفي ، رفعت ثروته الى أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ، وعـــلى الرغم من الخسائر التي لحقت به ، فما زالت تقدّر بـ ٤٢٥٠٠٠٠٠٠ حين انتقل الى الشرق حيث لقي حتفه . وباستطاعتنا ان نستشهد بلوكولوس وبومبيوس ايضاً . ودون ان نعمّم هـــذه الحالات الاستثنائية يمكن القول بأن ثروة تقدر بعدة ملايين — وليس من ضرورة لان تكون نقدية ؛ ولكن ذلـــك قضية اخرى — غدت شيئاً عادياً ، ابتداء من القرن الثاني ، في هاتين الطبقتين الحاكمتين . ولا يستحق النظام عملياً سوى اسم البلوتوقراطية (حكم الاثرياء) .

ولم ير الشعب في هذا القدر من الثروة ما يهين شعوره . لا بل ان خطب التأبين استندت اليه لتمجيد الميت. وقد نظر الرومان على الدوام الى مفهوم المُلك والى العناد في الدفاع عنه وتوسيعه والى الاقتصاد وحتى الى البخل نظرتهـم الى ضروب من الفضائل . وان كاتون القـــديم الذي تظاهر ، في اول القرن الثاني ، بتقشف رومانيي الازمنة القديمة، قد كره التبذير وتباهى بضبط ادارة املاكه ولم يتراجع امام اية وسيلة شرعية لتوسيعهـــا : ففي نظره ، « عجيب والهيّ هو الانسان .. الذي يترك اكثر مما اعطي » . وقد شدد بوليب ، في كلامه عن سخـــاء شيبيون اميليانوس ، على هذا الطابع من الخلق القومي . « يبـــدو هـــذا السلوك ، عن حق ، حسناً في كل مكان . ولكنه يبدو في روما مدهشاً وذلك لسبب بسيط هو ان اياً من اهاليهـــا لا يعطي احداً مما هو له... فكلهم يبرهنون عن حرص مفرط في شؤون مصلحتهم » . وان ما اعجب به بوليب قد ادهش عمّي تلميذه وصديقه ، المتربعَين في المرتبة الاولى بين النبلاء ، عـــلى الرغم من انهما قد استفادا من هذا السلوك.

في رومـــا هذه حيث اعتمد المجتمع الرفيـــع ، فيما مضى ، تقتيراً عسيراً ، وحيث قدمت الاطعمة للسفراء القرطاجيين المدعوين عند بعض الشيوخ في الاواني الفضية نفسها التي استعارها الشيوخ مداورة ، نشأت الفضيحـــة ، بالضبط ، من التبذير الذي ظهر في ازدياد الفخفخة بنوع خاص؛ فثار مهذبو الاخلاق على هذه الاخيرة واصدروا حكمهم عليها كهدامة للامـــلاك التي كان تسلسل درجاتها في الاساس من جهاز الدولة نفسها ، وكهدامة للانظمة القديمـــة الفردية والاجتماعية . ولكن الثروة اعطت نتائجهـــا المحتومة في كل مكان ، لا سيما على رجال اتصلوا بشرق يفيض خبرة ودروساً فيما يعود لملذات الحياة المـــادية . ففرض كاتون ، دون جدوى ، العقوبات الصارمة ، خـــلال اعتلائه منصب قضاء الاحصاء في السنة ١٨٥ — ١٨٤ ، مخمّناً حلى النساء وعرباتهن وعبيدهن الشبان الباهظي الثمن بما يوازي عشرة اضعاف الثمن الحقيقي وفارضاً

على رأس المـــال ، المقدر على هذا الاساس ، ضريبة توازي ثلاثة اضعاف الضريبة العـــادية . وحاولت القوانين « التقتيرية » ، دون جدوى ايضاً ، اصلاح الاخـــلاق بالحد من الانفـاق . ويطول بنا الكلام بسردها كلها ، ابتداء من قانون اوبيوس المحـامى عن حقوق الشعب الذي سن بعد كارثة « كانا » والغي بعد سبع سنوات من الانتصار على قرطاجة على الرغم من معارضة كاتون ، القنصل آنذاك ، حتى قانون الدكتاتور قيصر ، وجميعها اريبة في تفصيل ما منعته بصدد بهرجة النساء او الافراط في الانفاق على الولائم او بصددها معاً ، ولكنها جميعها بدون جدوى ، اذ يكفي تكرارها لاثبات ذلك . اما منذ القرن الاول ، فقد غدا البذخ احد توابع مرتبـة اجتماعية معينة : فقد درج شيشرون مثلاً على مداعبة صديقه اتيكوس بسبب اعتداله المفرط . وكان من الواجب امتلاك فندق خاص وحدائق في رومـــا وبيتاً مزداناً بالتماثيل وزرائب للحيوانات وبيوتاً للطيور في مناطق مختلفة من ايطاليا ، وحتى على الشاطىء الكمبـــاني الذي يقصده المجتمع الرفيع صيفاً . كما كان من الواجب اقتناء جمهور كبير من العبيد الشخصيين وامناء السر والحوذيين والخدام : فقد اعتبر بؤساً متناهياً ان يضطر بومبيوس الهارب الى حل سيور حذائه بنفسه ، وقد انفق شيشرون ، خلال خمسة اشهر من السنة ٤٤ ، مـــا يعادل ٥٠٠٠٠٠ فرنك (١٩١٤) للمحافظة على مستوى معيشته الخاصة .

الافساد السياسي والديون

ليس من ريب ، من جهة ثانية ، كما شكا من ذلك المعجبون بالتقشف القديم ، في ان عدوى هذه الاخلاق الجديدة قد اضرت احيـاناً بالدولة ؛ ولن نشدد على الفجور والزنى والطلاق الذي انتشر ، خلال القرن الاول ، في صفوف الطبقة الحاكمة : لم يكن الرومان الاقدمون ليهتموا بطهارة الذكور ، وقـــد بدا تحرر النساء بنتائج اخرى كثيرة لن يرضى احد اليوم بان يثور ثائره عليها ؛ وعلى الرغم من الاشمئزاز الذي ولدته بعض الفضائح ، فقد برهنت هذه الارستوقراطية ، في الحروب الاهليـــة ، انها لم تكن متخنثة قط وان الكثيرات من نسائها قد تحلين بصفات الرجولة . ولكن وجه استخدام المـال قد اسهم في الاساءة الى نظام في طريق الانهيار . فقد ازداد الانفاق في سبيل التوصل الى مناصب القضاء ، لا سيما وانها تقود الى وظائف تسهل معها اعادة بناء الثروة المفقودة ومضاعفتها . وقد درج نظار الابنية والملاعب على زيادة المبلغ الذي يخصصه مجلس الشيوخ للالعاب العامة فتنافسوا في تنظيمها ببذخ مبتكر : فكان من قيصر مثلا ، في السنة ٦٥ ، ان وضع برنامجاً لتبارز ٣٢٠ زوجاً من المسايفين ، المجهزين جميعهم بدروع فضية . وكذلك فان كل انتخاب ، على الرغم من قوانين غير نافذة تشبه بعدم جدواها القوانين «التقتيرية» ، قد افضى الى افلات الدسيسة من قيودها بشكل افساد مخز ، في الغالب ، لعب دوره في الدعاوى ايضاً بشراء المحلفين .

فلا غرابة والحالة هذه ان يلجأ كثيرون ، بعد انفاق دخلهم على الرغم من ضخامة ثرواتهم ، الى قروض تضمنها املاكهم ولا سيما ، في الواقع ، الثقة التي يوحيها مستقبلهم السياسي . اجل ان

شيشرون لم يعر الشؤون المالية عناية كبرى ؛ ولكنها ، طيلة حياته ، لم تترك له مجالاً للراحة ، في حال ان ممتلكاته يمكن ان تقدر بما يوازي ٧ ٥٠٠ ٠٠٠ فرنك تقريباً (١٩١٤). وقد اعترف قيصر ، قبيل سفره الى احد الاقاليم الاسبانية الذي أسندت ولايته اليه بعد انتهاء سنته في منصب القضاء ، بأن ديونه تفوق كل ما يملكه بما يوازي ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك، مما حدا بدائنيه لأن يمضوا في الاعتراض على مغادرته روما حتى الساعة التي كفل فيها كراسوس هذه الزيادة . وتكفي هذه الامثلة التي يسهل علينا تأييدها بكثير غيرها لإظهار ركاكة مثل هذا النظام القائم على الدين . فاذا ما انفجرت ازمة وألقت الرعب في قلوب الدائنين وحملتهم على رفض تجديد القروض وعلى إنذار المدينين بالدفع ، حصل انهيار شطر كبير من الارستوقراطية يزيد من خطورته انخفاض اسعار الممتلكات العقارية المعروضة للبيع . ويتضح بالتالي ان كثيرين من غير الفقراء قد ثقلت عليهم وطأة الديون ، وان تيارات الثورة الاجتماعية التي خلقها هذا الوضع الوخيم ، « بمؤامرة » كاتيلينا في السنة ٦٣ وحتى أثناء دكتاتورية قيصر ، قد جمعت أكثر من مناصر ، ورؤساؤها انفسهم من افضل الطبقات العليا : «جمهور من الرجال الغارقين في الديون» ان لم يكن في جميع الجرائم التي اسرع شيشرون ونسبها اليهم .

وكان كل ذلك ابعد من ان يدعم الطبقة الحاكمة والنظام .

٢ ـ الثورة الاقتصادية

ان الوقائع التي اوردناها أعلاه تعود الى القرن الاخير من العهد الجمهوري بنوع خاص : فالداء الذي كشفت عنه قد ارتدى اذ ذاك مزيداً من الخطورة . ولكن اعراضه قد برزت قبل ذلك لأنه النتيجة المباشرة للثورة الاقتصادية التي فجرتها الحروب الظافرة والفتوحات .

١ ـ جمع رؤوس الاموال في ايطاليا

احتلال ايطاليا وتوسيع مصالح روما الاقتصادية

غدت روما شيئاً فشيئاً سيّدة شبه الجزيرة الايطالية فاتسع أفق علائقها التجارية. وقد توجب عليها ان تعوض عن نقص انتاجها الزراعي باستيراد الحبوب من الخارج . وتوجب عليها ايضاً ، اقله لتسليح جنودها ، ان تضاعف مصنوعاتها او تتوفق الى اقناع من يعمل لحسابها في المناطق الأخرى . وفي الواقع قامت في ايطاليا اقاليم اخرى أعظم خصباً وتقدماً تقنياً من « اللاتيوم »: اتروريا (الاتروسك) وكمبانيا واليونان الكبرى. فلجأت روما اليها منذ عهد مبكر، أي زمناً طويلاً قبل اوائل القرن الثاني التي شهدت اخضاعها لسهل « البو » الخصب اخضاعاً نهائياً. وهكذا زادت حاجاتها وعملها بفضل الوحدة الاقتصادية في شبه الجزيرة التي سبق للتوسع الاتروسكي والتجارة اليونانية ان مهّدا لها تمهيداً عريضاً . وقد سبقت هذه الوحدة الاقتصادية في الزمن الوحدة المعنوية التي خيبت متانتها آمال هنيبعل . ومن حيث ان الواحدة دعمت الاخرى ، فقد حصل شيبيون من المدن

الاتروسكية على مؤن هامة وتلقائية من المنسوجات والعتاد والحديد والاسلحة على انواعها فجهز الاسطول والجيش المعدين لحملته على افريقيا في السنة ٢٠٤ ، ولا ريب في ان اتروريا قد امتلكت آنذاك قوّة صناعية وضعتها تحت تصرف روما . ولكن ليس مدهشاً ان تجمع في ذاك التاريخ بين قضيتها وقضية الرومان لأنها ارتبطت منـذ امد بعيد بجهاز المحالفات الذي أقيم في ايطاليا . فالمدهش المدهش هو الوضع السابق للوحدة المعنوية حين لم يكن لدى روما شيء تعوّض به عما يأتيها من الخارج. وقد يجوز الاعتقاد بأن قوة روما العسكرية ، منذ القرنين الخامس والرابع ، قد وفرت لها ، بفضل الغنيمة والاحتلال ، المساعدة الضرورية ، ويقول التقليد بأن المرتب العسكري قد اقر ابّان حصار « فييس » (*Véies*) الطويل ، الذي يغلب انه استمر من السنة ٤٠٦ حتى السنة ٣٩٦ ؛ ولم يكن من المستطاع اقراره لو لم تتصرف روما بموارد يستحيل عـلى غير الحرب وحدها ان تؤمنها في ذاك الوقت . •

جنت روما بالتالي في عهد باكر ، فائدة مادية من انتصاراتها ، بيد انه يغلب على الظن ، من حيث وصايتها ، التي اتصفت بالحزم والتفهم والعطف في آن واحد ، انها لم تهمل مصالح اولئك الذين يصبحون رعاياها او محميينهـــا . فلم تخرج عن حدود معتدلة في استثمار ثرواتهم المكدسة ومواردهم الطبيعية وامكانات نشاطهم البشري . وقد سارت حيالهم — وكان ذلك عاملا حاسماً في تكوين وحدة ايطاليا المعنوية — على سياسة تعاون اقتصادي جزيل النفع للجميع . فكان من واجبهـــا مثلا الحرص على استمرار علائقهم التجارية التي لم تخـل من النشاط فيما يتعلق بالاتروسك او الاغريق . وقد قامت به خير قيام كما يتضح من معاهداتها الاولى مع قرطاجة او من الحروب التي خاضت غمارهـــا ، في النصف الثاني من القرن الثالث ، ضد القرصنة الإلّيرية المضرة بسلامة البحر الادرياتيكي والبحر الايوني . ولكنهـا لم تبق هي نفسهـــا بعيدة عن تلك النشاطات التجارية التي لم يفت مواطنيها الاسهام فيها برؤوس اموالهم وباشخاصهم . ولم يؤلف هؤلاء يوماً ، كما حدث لشعوب فاتحة اخرى ، ارستوقراطية من المنتصرين عاسمة في تنظيمهم العسكري ومقتصرة على مراقبة المغلوبين . فلم تخل صفوفهم من رجال الاعمال الذين ارتفع عددهم باطراد . اجل ان مستنداتنا لا تتيح لنا تتبع هذه النجاحات . بيد انه من الواضح ان فتوحات روما الايطالية قد جعلتها تهتم بالحياة الاقتصادية في العالم المتوسطي ، وهي حياة قطعت اشواطاً بعيده في التطور • وانها اقتطعت فيها لنفسها مكاناً مطرد الاتساع.

ولنا في تاريخها النقدي الادلة المقنعة على ذلك على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الموضوع ومن الخلاف بين علماء المسكوكات القديمة . فلم تبدأ روما الا في عهـــد متأخر نسبياً في ضرب المسكوكات الحقيقية ، ولم يحدث ذلك قبل القرن الرابع . ولم تضرب آنذاك سوى المسكوكات البرونزية . وحين بدأت في ضرب الفضة ، في اوائل القرن الثالث كما يغلب على الظن ، انما حصل هـــذا الضرب في كمبانيا لا في روما حيث تأخر حصوله حتى السنة ٢٦٨ . ثم حـدثت بعض

الاضطرابات بسبب النفقات الباهظة التي اقتضتها الحربان البونيقيتان الاوليان ، واستقر النظام النقدي الروماني في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الثاني . فارتكز الى الدرهم الفضي اساساً الذي يزن اربعة غرامات تقريباً اي انه يوازي عملياً الدرهم الاوسع انتشاراً في العالم اليوناني ، الدرهم الاثيني الذي اعتمده الملوك المقدونيون . ولم يضرب الذهب الا في ظروف استثنائية . اما البرونز الذي كان « الآس *As* » وحدته الاساسية ، وعادل في النهاية ١/١٦ من الدرهم ، فقد فقد اهميته الماضية .

على الرغم من إيجاز هذه العجالة ، يظهر هذا التطور الانتقال التدريجي ، البطيء جداً حتى القرن الثالث ، والسريع نسبياً بعد ذلك ، حين أمنت روما سيادتها على ايطاليا ، الى اقتصاد اقل انكماشاً يمتد شعاعه باستمرار . فأحس الملاكون الريفيون ، الذين تألفت منهم الطبقة الحاكمة ، بمصالح جديدة ، وفي المشاغل التي أقامتها في وجههم فتوحاتهم الايطالية ، لعبت المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية دوراً دونه دور سكان جبال الابنين الشكسين .

استثمار فتوحاتهم خارج ايطاليا

فماذا حدث يا ترى حين اصبحت روما ، بفضل توسع افقها السياسي والعسكري ودبلوماسيتها وانتصاراتها منذ « زاما » لا سيدة ايطاليا فحسب بل سيدة كل الحوض المتوسطي ، وحين وجدت في نفسها القدرة ، المباشرة او غير المباشرة ، على تشجيع او خنق كافة المراكز الكبرى لحياة اقتصادية نشطت وازدهرت منذ زمن بعيد ، كقرطاجة مثلاً ولا سيما بلدان الشرق الهليني ؟

ان سلوكها ليخفي مفاجأة كبرى للمؤرخ .

فهي ، حتى عندما بدت انتصاراتها وكأنها وضعت ايطاليا في مأمن من خطر الغزو ، لم تدخل أي تبديل في الأساليب التي اعتمدتها حيال شعوب شبه الجزيرة . اجل ليس هنالك من مجال ، على الصعيد القانوني وحتى العملي احياناً ، بصدد توزيع المغانم على الجيش مثلاً ، للكلام عن شراكة على قدم مساواة تامة بين مواطنيها والايطاليين غير المواطنين . ولكن هذه التمييزات ، مهما بلغ من ثقلها على اولئك الذين تألموا من وضع متدنٍ ، لم تتناول الجوهر ، اقله في الحقل الاقتصادي . وحتى قبل ان تمنح روما حق مواطنيتها للجميع ، درج سكان الاقاليم والاجانب على اطلاق اسم « الرومان » ، دون أي تمييز آخر ، على المواطنين وغير المواطنين شرط ان ينتسبوا الى ايطاليا : فقد كان هؤلاء واولئك ، في الواقع ، شركاء في الاستثمار المالي والاقتصادي الذي اخضعت له الفتوحات الجديدة .

بيد ان الجدة هي في ما يلي : ان كلّ الشعوب وكل الاقاليم خارج ايطاليا ، بما فيها صقلية مع انها قريبة من شبه الجزيرة ومأهولة بسكان من الاغريق أو المستغرقين لا يتميزون عن سكان اليونان الكبرى ، قد خضعوا لنظام آخر . ولم تمرّ الحرب عليهم مرور العاصفة فحسب بما يرافقها من شدة محتومة وانفلات غرائز . فقد استمر النهب ، بعد عقد الصلح ، باعتماد الوسائل الرسمية

او غير الرسمية التي كان لها من الرواج والاستمرار ما جعل المستفيدين منها يعتبرونها قانونية .

فما هو مردّ هذا التناقض ؟ ان المفاجأة، والحق يقال ، اذا ما نظرنا الى تاريخ العصور القديمة — وقد برهن أكثر من استعمار معاصر عن تعامٍ مماثل — حيث استسلم المنتصرون لجشع مغر لا يعرف للشفقة معنى ، قد تنشأ خصوصاً عن معاملة الايطاليين معاملة ممتازة . فقد قامت روما حيالهم بشيء جديد كان مقدمة لعملها الاكبر في عهد الامبراطورية .

ولكن ما يلفت الانظار انها حصرت، في العهد الجمهوري، تصميمها على التعاون الاقتصادي، في ايطاليا دون غيرها. وكان من الممكن ان نفسر ذلك بتضامن عنصري لاواعٍ لو انها لم تشمل بهذا التصميم اغريق اليونان الكبرى انفسهم ، دون حاجة منا للكلام عن الاتروسك الذين امتزجوا منذ عهد بعيد بحياة شبه الجزيرة : فلماذا ادخلتهم فيه يا ترى واقصت عنه اخوانهم في صقليا ؟ لا ريب في ان تحقيق الوحدة المعنوية السابق قد أسهم في ذلك : فقد تكوّن — على غير اكتمال — شعب ايطالي اكثر منه روماني أفضى بـه وعيه للتضامن الى احتقار الآخرين احتقاراً انانياً والشعور بأن كل شيء جائز حيالهم . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ايضاً ظروف الفتح العسكرية وتشكيل الجيوش المعروفة بالرومانية مع ان نصفها « حليف » اي ايطالي ، في حال ان سكان الاقاليم والاجانب ، في العهد الجمهوري، لم ينخرطوا فيها إلا بنسبة ضئيلة جداً . ويجب ان نفكر اخيراً ، وربما خصوصاً ، بالتبدلات السيكولوجية ، الفردية والجماعية ، التي احدثتها امتلاك الثروات الاولى . فآثار الذهب شهوة مفرطة للذهب ، اما مذاق البذخ ، فبالاضافة الى انه لا يعرف القناعة ، فقد امتد الى طبقات اجتماعية اعظم اتساعاً . وأية وسيلة لتحقيق الثروة أيسر من تعرية اولئك الذين اجاز قانون الحرب معاملتهم وفاقاً لهوى المنتصر ؟

ومما لا ريب فيه ، بهذا الصدد، إن الانحراف الحاسم قد سببته الحروب الظافرة العظمى التي دار رحاها ، خلال النصف الاول من القرن الثاني ، حول شواطىء بحر ايجه . فقد وجد المنتصرون انفسهم هناك امام ثروات طائلة كدستها اجيال لا تحصى في مناطق نعمت بحضارة قديمة تفوق ما غنموه في افريقيا حول قرطاجة . فلم يقاوموا التجربة ، وكان ما جمعوه نقطة انطلاق إثراء ايطاليا المدهش بما ولّده من رغبة في الاستزادة . وليس ما يشبه هذا الحدث، في تاريخ حوض المتوسط القديم ، سوى مصادرة الكنوز الفارسية على يد الاسكندر . فقد وفرت هذه المصادرة للمنتصر ثروات اعظم شأناً، وتمت في وقت اقصر، اذ انها لم تتطلب خمس سنوات. بيد انها جرّت الى نتائج اقل تأثيراً . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان القسم الأكبر من هذه الكنوز كان مجمداً بشكل سبائك مفرغة في خواب مخبأة في دهاليز القصور الاخيمينية : فكانت النتيجة ان البزل من ممتلكات السكان كان خفيف الوطأة . ومرده في الدرجة الثانية الى ان الكسب من هذه المصادرة قد توزع جغرافياً توزعاً اعظم اتساعاً : واذا ما عاد بعض الجنود القدماء والموظفين وغيرهم من الاغريق بقسم كبير منه الى اوروبا، فقد استقر كثيرون غيرهم

نهائياً في البلدان المحتلة ، فوثب النشاط الاقتصادي في هـــذه البلدان ، بفعل وجودهم ورؤوس الاموال التي وضعوها في التداول ، وثبـة عظيمة جداً الى الامام . اما الفتح الروماني فلم يحدث فيه شيء من ذلك . فهو قد استولى على الثروات الحية والمتداولة والثروات المكنزة على السواء . كما انه قد ادى الى انتقال تدريجي وشامل نحو منطقة واحدة هي شبه الجزيرة الايطالية حيث مالت طبعاً الى التجمع رؤوس الاموال المنتشرة حتى ذاك الحين في كافة أنحاء الحوض المتوسطي . ولم يعرف مثل هـذا التجمع سابقة مماثلة بالاتساع الذي بلغه آنذاك ، كما ان الحدث الاقتصادي الذي يمثله لم يتكرر مراراً فيما بعد .

الغنيمة وتعويضات الحرب والغرامات و«الاملاك العامة»

لقد تم الانتقال وفاقاً لكيفيات مختلفة . كان ابسطهـــا الغنيمة التي يعود بها القادة ويدفعونها الى الخزانة العامة بعد عرض الموكب الظافر الذي قد يستغرق وقتاً طويلاً . وكثيراً ما يحدث ان تتضمن مصادرنا بيانات مفصلة بها ، تتفاوت كالا وصحة على كل حال . وقد يكون من الممل ان نستشهد بكافة الاحصاءات المعروفة . فلنقتصر اذن على معطيات هي في الوقت نفسه شاملة — اذ انها لا تتناول مواكب النصر التي تلت الحملات الآسيوية على الملك السلوقي والغلاطيين والحملات الاسبانية والايطالية الشمالية — وجزئية ، اقتبسناها عن دراسة بصيرة جـداً . فبين السنة ١٩٤ والسنة ١٦٦ بلغت الغنيمة التي اسفرت عنهـــا الحروب في شبه الجزيرة اليونانية فقط ، ذهباً مسكوكاً او فضة مسكوكة او ذهباً وفضة قابلين للسك فوراً ، قيمة تناهز السبعين مليون درهم ، اي ما يوازي سبعين مليون فرنك (١٩١٤) . وفي هذا المجموع تمثل غنيمة بولس اميليـــانوس الذي قضى في «بيدنا» ، في السنة ١٦٨ ، من الملكية المقدونية ٥٢ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم .

واضيفت الى الغنيمة التعويضات المفروضة على المغلوب لاستيفاء نفقات الحرب التي تحملهـا المنتصر . وكانت هذه التعويضات تشمل عادة مبلغاً يدفع حين عقد الصلح من الممكن ان يحتل مركزه في الغنيمة الظافرة وعدداً مختلفاً من الاقساط السنوية : ٢٠٠ ٠٠٠ ١ درهم دفعتها قرطاجة كل سنة ، طيلة خمسين سنة ، بعد معركة زاما ؛ و ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم دفعتها الملكية السلوقية سنويا طيلة اثنتي عشرة سنة بعد السنة ١٨٨ ، الخ .

لم تفرض هذه التعويضات الا على الدولة التي تحافظ على كيانها القانوني بعد نهاية الحرب . اما الدول الاخرى فكانت تفرض عليهـا الغرامات السنوية التي تعتبر دائمة . لا بل ان روما لم تتردد في فرض غرامة قيمتها ٦٠٠ ٠٠٠ درهم على مجموع الجمهوريات الاربـع التي نظمتها في مقدونيا بعد «بيدنا» مع انها منحتها ، لمدة عشرين سنة ، استقلالاً سريع الزوال ؛ ولكنها لم تفرض الغرامة في الظروف العادية الا على الاقاليم التي تمارس حيالهـــا سيادة حققتها بالنصر : وقد رمزت هذه الفريضة الى حقوقها المطلقة ، كما مثلت الغرامة ، من جهة ثانية ، القسم الاكبر من الضرائب التي تحصلها من اراض تعود اليها . وقد حدد قيمتها وتفاصيل جبايتها القانون الذي ينظم البـــلاد

ولاية . وغالباً ما استوحى القانون ، بصدد هذه القيمة وهذه التفاصيل ، الوضع السابق للفتح ، اذ ان الغرامة عادة قديمة واساسية من عادات الدول القديمة ولا سيما الملكيات منها . فلم تأت روما بجديد ، كما انها لم تهتم للتوحيد بنوع خاص . بل حاولت ، رغبة منها بسلوك اسهل السبل واقصرها ، الاستفادة الى اقصى حد مما كان قائماً قبلها واعتاده رعاياها الجدد . لذلك فان الغرامة قد ارتدت اشكالاً متنوعة . ففي الشطر الاكبر من مدن صقليا ، وبفضل الابقاء على القوانين التي سنها ملوك سيراكوزا ، تألفت الغرامة كما في السابق من ضريبة عينية توازي ، بعد مراقبة البذار والحصاد ، عشر محاصيل الارض من حبوب ونبيذ وزيت وبقول . اما في الجمهوريات المقدونية الاربع ، على نقيض ذلك ، فكان لزاماً ان تدفعها نقدا طوائف السكان التي توزعها وتجبيها كما يطيب لها ، وهي لم تمثل في مجموعها ، على كل حال ، سوى نصف الضريبة التي كانت تجبيها الملكية الزائلة .

وكانت روما اخيراً ، عند الاحتلال ، تضع يدها على ممتلكات الدولة او الملك اللذين تحل محلها . وقد شملت هذه الممتلكات على العموم ، بالاضافة الى الاملاك العقارية ، اهم المناجم والمحاجر والاحراج والملاحات . وهي كثيراً ما ضمت اليها ما تصادره من الجماعات والافراد الذين تصمم على معاقبتهم بسبب موقفهم منها . فأنشأت بالتالي ، على غرار ما فعلت في ايطاليا ، « أملاكاً عامة » (*Ager Publicus*) شاسعة ومتنوعة جداً ووافرة الدخل احياناً كانت هي تنشط في تنظيم ادارتها . ففي اواسط القرن الثاني تطلبت بعض مناجم الفضة في ضواحي قرطجنة في اسبانيا ٤٠٠٠٠ عامل وأدخلت عليها ٢٥٠٠٠٠ درهم يومياً . ولم يمض مجلس الشيوخ طويلاً في ريبته من الملتزمين التي جعلته في البدء يمنع العمل في مناجم الذهب والفضة في مقدونيا ويحصر بعد ذلك عدد العمال في مناجم الذهب في ايطاليا الشمالية .

اتيح من ثم لروما ، بفعل الغرامات واملاكها العامة ، ان تتلقى سنوياً من ولاياتها ، بعد ان تزايد عددها ، كمية اجمالية ضخمة من الخيرات . بيد ان كل ذلك ، لا سيما الغرامة بحد ذاتها وبعض الرسوم غير المباشرة ، الضئيلة اجمالاً ، والمعدة لاكمالها ، لم يشكل اوقاراً لرعاياها الاقليميين : فالنهج الذي جعل الاستثمار عبئاً لا يطاق قد لجأ الى طرق اخرى .

الاستثمار الخاص

ادار مجلس الشيوخ روما ادارة حكيمة فكنّزت بصورة خاصة الذهب الذي لا يسك في الظروف العادية ؛ بيد ان القسم الاكبر من هذه الموارد كان يلقى في التداول بفضل انفاق الدولة والمرتبات العسكرية ونفقات الاشغال العامة والعبادة . فانتقلت الموارد بالتالي من الجماعة الى الافراد مضافة الى الفوائد التي جناها المواطنون من الغاء ضرائبهم المباشرة وبيع القمح بسعر منخفض وتوزيعه مجاناً بعد ذلك . ولكن استثمار الافراد المباشر للفتوحات والولايات قد اتسع اتساعاً غريباً .

وكانت هنالك ، كما هو بديهي ، وفاقاً لما درجت عليه الجيوش آنذاك ، غنيمة الجنود الفردية

تضاف اليها ، بصورة عادية منذ اوائل القرن الثاني ، المنح التي يهبها القائد جميع جنوده لمناسبة موكبه الظافر . وترينـــا احدى الحوادث الطريفة الجنود الرومانيين انفسهم يستفيدون من مشتاهم لاستثمار قنوتهم بالمراباة المحدودة والتجارة على نطاق ضيق مع الاجـــانب . وليسوا في الحقيقة ، مع التجار الثانويين ، بمن فيهم مشترو الغنـــائم البشرية المعدة لاسواق الرق ، الذين يسيرون دائماً وراء الجيوش ، سوى مقدمة جيش لجب من التجار والمضاربين الذين يتوافدون على البلاد فور تهدئتها .

انتمى هؤلاء الى كافة الطبقات الاجتماعيـــة – باستثناء الشيوخ – فكان منهم المواطنون الرومانيون و « الحلفاء » الايطاليون والاحرار والمعتقون ، فيعملون لحسابهم الخاص او يمثلون شركات كبرى ، ويستوردون او يصدرون ، مستعدين في الواقـع لشراء كل شيء ونقل كل شيء وتسليف كل شيء بغية استلاب كل شيء . وغـــدت جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في قلب بحر ايجه والمعادة الى اثينا في السنة ١٦٧ ، شرط ان تجعل منها مرفأ حراً ، احدى قواعد عملياتهم الرئيسية في الشرق وغيره حتى اليوم الذي امر فيه ميتريدات بتقتيلهم وبنهب الجزيرة في السنة ٨٨ . وقد وقفنا بواسطة الكتابات على نشاطاتهم المختلفة ، وثروتهم التي تثبتهـا الأبنية التي شيدوها ، وجمعياتهم بشكل اخويات دينية ، وتأثيرهم ايضاً على السلطات النظاميـــة التي استولوا في الواقع على صلاحياتها . ومرد ذلك الى انهم ، في ديلوس كما في غير مـكان ، وحتى في البلدان الحليفة ، اصحاب اخاذات كانوا ام مستقلين حين يسمح لهم بالدخول اليهـــا ، يحملون طابعاً مشتركاً على الاقل : فانهم يعملون في مأمن من نفوذ وقوة روما .

جمعيات الملتزمين

في عداد هؤلاء « التجار » يبرز عملاء جمعيات الملتزمين (*Publicani*) . ويقصد بـ *Publicani* اولئك الذين يعنون بالـ *Publica* أي بشؤون الدولة المالية ، اولئك الذين تلزمهم الدولة جبـاية وارداتها واستثمار أملاكها وتنفيذ مشاريعها وتأمين تموين جيوشها ، الخ . وينطبق الاسم في الواقع على كبار الملتزمين الذين يتوجب عليهم ايجـــاد جهاز كامل من المساعدين والقبول بتسليف اموال هامة : يفسر اتساع شؤون الدولة وتنكرها لانشاء ادارة لا تستلزم سوى الاستعانة بصغار الملتزمين ، كيف انهم بلغوا مكانـــة كبرى . وترادف الكلمة في الواقع كلمة « فرسان » ايضاً ، وهم الملتزمون الحقيقيون المنتسبون كلهم الى هذه الطبقة الاجتماعية والممثلون أوسع اعضائها ثروة .

وكان من البديهي ، المسلم به ابداً ، ان يقصى الشيوخ وأبناؤهم عن الالتزامات من حيث ان رقابة وادارة الاموال العامة شكلتا إحدى صلاحيات المجلس الرئيسية . وقـــد حظر عليهم بالاضافة الى ذلك اقتناء مراكب يزيد محمولها عن ثلاثمائة قارورة أي ثمانية اطنان تقريباً . وقد اتخذ هذا التدبير قبيل الحرب البونيقية الثانية في مرحلة الصراع بين « الشعبيين » و« الافاضل » . ولم يبلغ التدبير حقه في اوج النظام المجلسي لأنه يتفق اتفاقاً تاماً وبعض العقائد الراسخة في روما ،

كما رسخت من قبل في اليونان ، التي اعتبرت كل نشاط تجاري امراً معيباً . وفي الواقع ما كانت التجارة البحرية الواسعة — لم يكن هناك من تجارة كبرى سواها — لتكتفي بهذا الحد الادنى من المحمول ، فحظرت ، عن طريق هذه المداورة ، على غرار تلزيمات الدولة ، على الشيوخ وابنائهم . فكانت النتيجة ان هاتين الطريقتين لتوظيف رؤوس الاموال الخاصة ، وفي كليهما بعض المغامرة مع انهما وفيرتا الارباح في حال النجاح، غدتا وكأنهما وقف على اوسع المواطنين ثروة بعد الشيوخ، أي على الفرسان .

ولم يفت ذوي الاقدام بين هؤلاء ان يستفيدوا من ذلك . فتوجب عليهم العمل المشترك بغية جمع المزيـــد من رؤوس الاموال وتقاسم الاخطار ، وخصوصاً بغية توسيع إطار التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي قـد يكون استخدامها مفيداً . ويعود اقدم توحيد للمصالح في سبيل مفاوضة الدولة ، على ما نعلم ، — وقد جرى ذلك بمناسبة دعوى في موضوع ضرر مقصود ألحق بأحد مجهزي السفن — الى الحرب ضد هنيبعل . ثم تألفت جمعيات قانونية نعرف الشيء الكثير عن تنظيمها في القرن الاول . فهي ترتدي مظاهر أشبه بما ندعوه اليوم مجلس الادارة والمدير العام والمساهمين والمتعهدين : فقـــد اقتضى الحرص على توفير ادارة حسنة البحث عن الحلول المبتكرة . بيد اننا لا نعلم شيئاً عن عدد هذه الجمعيات ، واننا نرجح ان جمعيات سريعة الزوال قد تألفت للالتزامات الطارئة كتشييد الأبنية مثلاً . اما بصدد الالتزامات الكبرى ، كمناطق المناجم او ضرائب الولايات ، فلا ريب في ان عمل الجمعيات المجهزة كان دائماً في الواقع لان وجود لوازمها وموظفيها في امكنة الالتزام لا يترك مجالاً لأية منافسة .

يضع قضاة الاحصاء دفاتر الشروط ويجرون التلزيمات لمرحلة السنوات الخمس القادمة، ولكن عوامل كثيرة تفضي الى تخفيض واجبات الملتزمين ، وليس التشدّد الذي يبديه كاتون اثنـاء ولايته ، على الرغم من تدخل مجلس الشيوخ « الذي نزل عند توسلات ودموع الملتزمين »، سوى تشدّد استثنائي وعابر . وليس من جهة ثانية ما يمنع الجمعيات من القيام بنشاطات اخرى الى جانب النشاط الذي تتحمل مسؤوليته أمام الدولة. وان في ذلك لفائدة لها لأنه يؤمن استخدام عمالها ورؤوس اموالها استخداماً ابعد استمراراً . ولذلك فهي لا تتوانى عن القيام بها متعاطية الأعمال المصرفية بنوع خاص — وقد غدت عمليات تحويل النقود ونقل الأموال اختصاصاً مـن اختصاصاتها لأنها تؤلف بالنسبة لهـا واجباً اساسياً — والمراباة ، ولا يتوانى بعضها على الاقل ، عند الحاجة ، عن تعاطي التجارة الواسعة . ولكن تعهد هذه الشؤون الخاصة جعلها تتداخل في الشؤون ذات الطابع العام وتستفيد من التسهيلات المتوفرة لهذه الاخيرة بفضل تنفيذ هذه وتلك في الاماكن نفسها وبواسطة الرجال انفسهم ورؤوس الاموال نفسها . وقد رأينا فيما سبق نقص الرقابة التي يستطيع ممثلو الدولة ممارستها حيال تصرفات رجال المال في الولايات .

تآزر من ثم عمـل « التجار » والملتزمين وعمل الدولة لادخال المعادن الثمينة الى ايطاليا

بكميات ضخمة . فمنذ اواسط القرن الثـــاني ، وبفعل تيار ذي اتجاه واحد متزايد السرعة لا يقابله تيار آخر على بعض الاهمية ، اتخمت شبه الجزيرة الايطالية برؤوس الاموال في حال ان المناطق الاخرى في العالم المتوسطي اخذت تفتقر لمصلحتها .

٢ ـ النتائج الاقتصادية

لم يحدث ما حدث دون نتائج اقتصادية تأثرت بها الولايات وايطاليا على السواء .

عـــالم الولايات

ان الشرق الذي بلغ ، قبل وصول الرومان بزمن بعيد ، درجة رفيعة من التطور الاقتصادي ، قد تألم من هذا البزل اكثر من غيره . وهو قد استطاع ، في البداية ، ان يعوّض عنه بعض الشيء بفضل التقدم التقني في زراعته وصناعته اليدوية . انفتحت ايطاليا امامه سوقاً غنية بالمال ومتشوقة لارضاء حاجات جديدة ، في مصنوعات الفخفخة خصوصـاً . وحولت الاسكندرية وروردس نحوها جانباً هاماً من تجارتها . ولم تعرف ديلوس يوماً الازدهار الذي عرفته ما بين السنتين ١٦٧ و ٨٨ ، اي في فترة انتشار التجار الايطاليين فيهـــا بكثرة نادرة ؛ ولكن تفوق النفوذ الروماني ، اذا ما استثنينا مصر التي حال استقلالها المستمر دون اسوأ المظالم ، قد افضى منذ القرن الاول الى اوخم العواقب . فقد بيع في جزيرة ديلوس ، في يوم واحد احياناً ، حتى عشرة آلاف عبد يجر جلهم نحو ايطاليا . ولم يحصل ذلك دون ضرر . فقد اخذت ايطاليا تنتج بعض المصنوعات ، وهي لم تكف نفسهـا من بعض الاصناف فحسب ، بل صدرت بعضها الى الخارج ايضاً . فعرفت المصنوعات الشرقية الكساد بفعل ارهاقها بالرسوم وانكماش زبنها المحليين في اعقاب افتقار الارستوقراطيات القومية . وفي صقليا نفسها التي صدرت الحنطة زمناً طويلاً ، انثنى السكان عن العمل : لم تكن الجزيرة ، في اواخر العهـــد الجمهوري لتستطيع ان تلعب الدور الذي لعبته في تموين روما خلال القرن الثاني . فاصيب الشرق كله ، قبيل الحروب الاهلية ، بتقهقر اقتصادي اعتبره بعضهم داء عضالا .

كان الغرب احسن حالاً لانه كان ابعد تخلفاً : وقد بقي فيه اثر الاغريق والقرطـــاجيين التربوي محدوداً . وهو قد ضم اكثرية كبيرة من البلدان الجديدة التي اخذت رومـــا تحث على استثمارهـــا ، مدخلة اليها رؤوس الاموال وتجهيزات الانتاج والتقنيات . وقد اقدمت على مـــا اقدمت عليه بدافع انانية محتفظة لنفسها بالقسم الاكبر من الارباح ، وبالارباح كلها احياناً ، كما فعلت في مناجم اسبانيا مثلا . ولكن بعض هذه البلدان اخذت تحتل مركزها في الاقتصاد العام للعالم المتوسطي : غاليا النار بونية ، قاعدة العمليات التجارية المثمرة في اتجـــاه غاليا المستقلة ، وخصوصاً اسبانيا . فأفادت من ذلك عناصر غريبة قامت فيها قبل روما وعناصر قومية ايضاً : ويبدو ان مرسيليا وقادش عرفتا آنذاك ازدهاراً اعظم منه في السابق .

فما هو المستقبل الذي سينتظر الغرب اذا ما استمر النظـــام الروماني في التغاضي عن هؤلاء

« التجار » ، هؤلاء « الرجال المحترمين جداً » ، الذين تولى شيشرون ، في اشارته الى ارتفاع عددهم في غاليا وفي قدحه في الغاليين ، مديحهم وتقريظهم رغبة منه في الدفاع عن الحاكم فونتيوس ، سنة بعد هجومه على الحاكم « فيريس » ؟

ايطاليا : الانتاج والمقايضات

تبدّل كل شيء في ايطاليا أيضاً .

يجب أن تتكيف الزراعة . فقمح شبه الجزيرة ، لا يستطيع منافسة الحبوب المستوردة ، إن لم يكن من غاليا ما وراء الألب بسبب الافتقار الى طريق ملاحة ، فأقله من صقليا وافريقيا ، ومن مصر ايضاً التي تتميز بانتاج أفضل ، ويرضى المنتجون فيها بمستوى حياتي أدنى . وضعت حرب هنيبعل أوزارها في السنة ٢٠٢ : فبين السنتين ٢٠٣ و ٢٠١ بيع القمح في روما بربع سعره العادي ، وبيع في السنة ٢٠٠ بثمن هذا السعر . وستتكرر بين آن وآخر الظروف الاستثنائية التي أدت الى هذا التدني . وحين تأخذ الدولة على نفسها ان تبيع القمح بسعر منخفض وان توزعه بعد ذلك بالمجّان ، تضطر الى الحصول عليه من غير مكان بفضل الغرامات المفروضة عيناً أو عن طريق الشراء بأسعار محدّدة متدنية جداً يعينها حكام الولايات . ولم يعد انتاج الحبوب عملية رابحة في ايطاليا ، فعدل عنه المستثمرون بملء اختيارهم .

وجهوا من ثم عنايتهم الى تربية المواشي لأن الانعام يعسر نقلها مسافات بحرية طويلة ولأن لديهم عبيداً يسهل عليهم استخدامهم رُعاةً . ووجهوا عنايتهم بنوع خاص الى الزراعات التي تتطلب معارف خاصة : زراعة البقول في السباخ وزراعة الأشجار المثمرة كالكرمة وشجرة الزيتون وشجرة التين . وقد دفعهم الى ذلك كل شيء . فهم يمتلكون رؤوس الأموال التي تتيح لهم الانفاق الضروري . وأظهر ارتفاع الثروة لدى المستهلكين أذواقاً اكثر تطلباً . واستفادت ايطاليا ، أخيراً ، في ما يعنينا ، من الخبرة والمعارف الزراعية الكثيرة التي حصل عليها الشرق الهليني وقرطاجة ؛ وبعد ان أصدر مجلس الشيوخ أمره بهدم هذه المدينة في السنة ١٤٦ ، حرص على ترجمة البحث الزراعي الذي وضعه القرطاجي ماغون . فكانت هذه الأساليب الجديدة موضوع دعاوة رسمية ساندها الاختصاصيون الايطاليون في الزراعة منذ كاتون .

ظهرت جدوى مثل هذه الجهود بشكل واضح . فقد أنتجت خلال القرن الثاني خمور جيّدة أشهرها خمر « فاليرنا » الكباني . ولكن الانتاج الرائج ، المتوسط الصنف ، كان أهم من المحاصيل البذخية . وقد بلغ من غزارته ، أن المسؤولين قد اهتموا لتصريفه ؛ فصدر قانون حظر بموجبه على البلديين ، حين تنظيم الولاية الناربونية ، زراعة كروم جديدة واشجار زيتون جديدة . بيد أن المعضلة لم تبرز بعد بكل خطورتها . فإن ما يحسن عمله ، كي تدرّ هذه الزراعات دخلاً مريضاً ، هو أن يعنى الملاّك بمراقبتها شخصياً ؛ اما الشاب الأرعن الذي يعوزه المال ، فعليه ، كما يزعم شيشرون ، ان يبيع كرومه ويحتفظ بأحراجه . وقد بيع النبيذ

الايطالي في ديلوس نفسها ، وابتاعت غاليا المستقلة ، طيلة القرن الأول ، نبيذاً مستورداً من شبه الجزيرة . واذا كانت هذه الاخيرة ، بسبب تقدم تربية المواشي ، قد اشتملت على مناطق ريفية انخفض عدد سكانها كثيراً ، فانها قد اشتملت ايضاً على مناطق أخرى يلفت الانظار ازدهارها وتقدم الزراعة فيها . وقد خصّص لها العالم الزراعي « فارون » ، وهو معاصر لقيصر ، صفحة شهيرة امتدح فيها بحرارة نوع منتوجاتها ؛ ويجب ألا ننظر الى هذا المديح نظرنا الى مجرّد مغالاة أدبية : فإن الاكتشافات التي أجريت في كمبانيا ، حيث تنتشر في جوار بومبيي « مقاصف » تفسر المعاصر وسقائف صنع الخمر شهرتها ، تؤيد هذه اللوحة ايما تأييد .

لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في حقل الصناعة . فالايطاليون لم يحققوا أي اكتشاف حقيقي . وهم ، شأنهم شأن الاغريق ، لم يفكروا بابتكار الآلات ، وقد اكتفوا بتقنيات الصناعة اليدوية ، وأتاح لهم اتصالهم بالشرق تحسين تلك التي اعتمدوها منذ أمد بعيد . وكان من شأن استيراد العبيد بأعداد لا تحصى ، وقد يفضل بعض الشرقيين منهم اسيادهم على صعيد المعرفة ، أن ضاعف طاقات عملهم . فازداد الانتاج بالتالي ازدياداً عظيماً . وليست صناعة الكماليات ما وجهوا عنايتهم نحوها ، بل صناعة الضروريات الرائجة الاستعمال المنتجة بكميات كبيرة وبكلفة ضئيلة يمكن معها تصديرها حتى الى الشرق نفسه أحياناً . ولدينا عن هذا التقدم مثلٌ مميّز توفره لنا الخزفيات التي نعرف عن صناعاتها القديمة ما لا نعرفه عن الصناعات الأخرى لأن حطامها لا يفنى . فقد اقتدي في البداية بالخزفيات « الساموسية » ببرنيقها الأحمر ونقوشها الناتئة ، ثم حلت محلها ، قبيل وبُعيد العهد الميلادي الخزفيات المعروفة بـ « الأريتية » نسبة لـ « أريتيوم » (أريزو *Arezzo*) في اتروريا ، التي كانت المركز الأول لصناعتها . وقد صُدرت الخزفيات الكمبانية ايضاً ، لا سيما نحو غاليا . ثم انضمت صناعة المعادن ، لا سيما الشبه ، الى الخزفيات ، لتجعل من اتروريا وكمبانيا أوسع المناطق الايطالية نشاطاً .

كانت النتيجة تجارة ناشطة ، لم تكن الصادرات فيها كمية مهملة ، على الرغم من رجحان كفة الواردات . وقد مثلت الحبوب الجانب الأكبر من هذه الأخيرة ، بينما اشتملت الأولى ، بنوع خاص ، على النبيذ والخزفيات والمصنوعات المعدنية . ثم أُضيفت اليها تجارة المستودعات الوسيطة . قضت روما ، في السنة ١٤٦ نفسها ، على مركزين اقتصاديين هامين هما كورنثوس وقرطاجة . ولم تستطع ايطاليا ان ترث سوى قسط زهيد من تجارة كورنثوس التي يغلب انها توزعت على المرافىء الإيجية . ولكنها ورثت تجارة قرطاجة ، أي ان التجارة ما بين البلدان الغربية تمت عن طريقها ، فلعبت ايضاً ، بقدر ما استلزم ذلك افتقار الشرق ، دور السمسار بين حوضي المتوسط . ويفسّر تعدّد هذه العلائق نشاط المرافىء الايطالية الذي برز في القرن

الاول بروزاً خاصاً في اثنين منها . امـــا الاول ، كما هو بديهي ، فثنائي روما – اوستيا عند مصب التيبر ، الذي استخدم في الدرجة الاولى لتموين المدينة ، لأن الصناعيين لا يعملون فيها للتصدير . وأمـــا الثاني ، فهو بوتيولي « *Putéoli* » (*Pouzzoles*) في كمبانيا ، وقد تميز آنذاك بنشاط واسع جداً ، وبالتوازن التـــام في تجارته ، فغدا مدخلاً ومصرفاً لمنطقة كثيفة السكان، وذات اقتصاد متطور جداً .

يجب ألا تخدعنا بالتالي زفرات علمـاء الأخلاق القدامى . فإذا مـا نظرنا الى شبه الجزيرة كمجموع ، نرى أن الفتوحات لم تسىء الى طاقات انتاجها ومقايضتها . فعلى نقيض ذلك دفعت بها الى الأمام بتزويدها ايطاليا باليد العاملة ورؤوس الأموال والتقنيات ، وبخلقهـــا حاجات مجهولة تسعى بشتى الطرق لإرضائها ، وبشدّها اليها شتى خيوط الحياة الاقتصادية العامة في العالم المتوسطي . أجـل نحن لا ننكر أن هذا الازدهار الذي أوجدته الانتصارات واستند الى القوة ينطوي على بعض الصنعة . وليس من شك في ان المنافسات الظافرة ستبرز حالمـا تخف الأعباء التي تثقل الولايات ، وحالمـا يزداد تقدم بلدان الغرب الجديدة في الثقافة والتجهيز ، وهـــما شبه مفقودين آنذاك . ولكن السعة الاقتصادية ، في القرن الاخير من العهـد الجمهوري ، واقع راهن .

روما
وسط مالي كبير

تقدم لنا ، روما في ايطاليا النشيطة هذه ، المكبّة على الانتاج والمقايضات ، مشهداً مختلفاً كل الاختلاف . فالبطالة تزداد فيهـا باطراد يشجعها ، في اوساط المواطنين، سخاء الدولة والافراد الاثرياء. تمارس فيها الصناعة اليدوية، ولا سيما صناعة المهن الحقيرة ، طبقة كادحة من العبيد والأجانب . ولكن هذه الطبقة لا تعمـل للتصدير : فنحن أمام حوانيت خشبية ، لا أمام مصانع . ان رومـا تتعاطى الاستيراد فقط : منتوجات غذائية بكميات ضخمة لتغذية سكانهـا المتزايدين باطراد ، تأتيها من المناطق القريبة والبعيدة ، ومصنوعات ايضاً من شتى الانواع .

ولكنها تلعب مع ذلك دوراً رئيسياً في اقتصاد العالم الذي تسيطر عليـــه سياسياً : دور الوسط المالي المنظِم الحركة ، وفي الواقـع دور السوق الوحيدة لرؤوس الأموال . وهي تضطلع من ثم بمهمة لا سابقة لها ، لم ترثها عن أي مركز آخر ، لأن مدينة واحدة، لم تجمع من قبل ، بالدرجة نفسها ، القسم الأكبر من الثروات القائمة في اطار على مثل هذا الاتساع . فاضطرت الى التجديد كما اضطرت الى تكييف أساليبها الدقيقة جداً، وفاقاً لأهمية المصالح المواجهة واتساعها الجغرافي وبروزها في كل مكان ، ان لم يكن الى ابتكار هذه الأساليب ابتكاراً. ومن البديهي ان هذا التكييف كان في الوقت نفسه تدريجياً وآنياً ، وتحقق وفاقـاً لازدياد رؤوس الأموال الايطالية ، ولمصلحتها دون غيرها ، بغية الاستفادة منها بدخل أفضل وبمكاسب جديدة، دونما اهتمام – وهو اهتمام لم يزعج المستفيدين في أي مكان آخر – لشقاء اولئك الذين يدفعون أثمانها .

ولكنه على الصعيد التقني تكييف يلفت النظر بمرونته وتنوع أشكاله .

كانت شراكة رؤوس الاموال احد التجديدات الرئيسية ، اقله على هذا الصعيد . وقد سبق لنا ورأينا التنظيم الممتاز الذي أدت اليه بصدد جمعيات الملتزمين . وليست هـذه الاخيرة سوى الطراز الرسمي الاول : كانت الدولة تعترف بها كل خمس سنوات وتحتاج ، في مفاوضتها ، لمعرفة أسماء مديريها وأهم مساهميها . ولكن مساهمات أخرى كثيرة لم يعلن عنها ، وأشكال شراكة اخرى كثيرة ، كانت تعمل خارج الجمعيـات المصرح بها . وعلى الرغم من المنع الذي استهدف الشيوخ ، بصدد الاموال العمومية والتجارة على السواء ، فلم يمتنعوا بـل اقرضوا الاموال واستخدموا المعتقين مستعيرين أسماءهم لهذه الغـاية . وفيما يلي مثل فيه الدلالة كل الدلالة على مهارتهم ، لا سيما وانه غير مرتقب . فقـد روى بلوتارك ان كاتون المتقشف نفسه اهتم للتجارة البحرية حائتا دائنيه على تأليف جمعية قادرة على تجهيز خمسين سفينة وعاهداً الى احـد المعتقين تتبع العمليات الجماعية حتى النهاية : وهكذا جعل توزيعُ المخاطر التجارةَ بواسطة القروض ، التي عرفها الشرق واليونان، امراً أضمن الى حد بعيد من المغامرات الكبرى . وتعود هذه الرواية في وقائعها الى النصف الاول من القرن الثاني : فيمكننا بالتالي ان نتصور بسهولة ما اقدم عليه في القرن الاول رجال هم دون كاتون اخلاقاً .

والحقيقة هي ان رؤوس اموال كافة الطبقات الميسورة في جميع نواحي ايطاليا ، اي الشيوخ والفرسان وغيرهم ، قـد اخضعت آنذاك الى حركة محمومة . فانطوى توظيف الإموال في العقارات نفسها على بعض مظاهر المضاربة لأنه انما يستهدف الدخل الوفير وارتفاع الاسعار . وقد عكف بعضهم على انتاج المآكل والخمور النادرة المعدّة لموائد ذوي الاذواق الرفيعـة . وضاعف كراسوس ثروته بتخصيصه ٥٠٠ من عبيـده نجارين وبنائين ، وبابتياعه ، بثمن بخس ، وابان الكارثة بالذات ، البيوت المجاورة لمركز احدى تلك الحرائق التي كثيراً ما اندلعت في روما القديمة . ومع كل ذلك فهو المال بالذات الذي آثروا الاتجار به عن طريق اقراضه لقاء ضمانات او عن طريق تشغيله في شؤون متنوعة . وكانت الساحة العامة القديمة في روما ، الفوروم *Forum* ، مركز مصفق حقيقي يتفق فيـه على القروض والديون ووثائق التحويل على الثروات البعيدة والمساهمات في المشاريع المالية والتجارية . وقـد بلغ النظام من الكمال ما جعل العمليات تتم ، للقسم الاكبر من قيمتها ، بوثائق مخطوطة تجنب نقل المعدن الثمين نقلاً فعلياً الى مسافات بعيدة . ويعوزنا اليوم ما حفظته ارض بابل ووصل الينا احياناً عن عهود ابعد قدماً : المحفوظات الخاصة برجال الاعـمال . لكن مراسلات شيشرون تشهد بتعدد الصلات بينهم والتسهيلات التي توفرها لزبائنهم واصدقائهم وبأهمية المصالح التي يديرون شؤونها . فاذا صح ان العالم القديم قـد نظم وطبق تقنية المصرف الكبير في الاعمال ، فانما حدث ذلك في روما في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

بيد ان بناء على مثل هذا التعقيد لا يمكن ان يكون إلا سريع العطب بسبب التضامن الذي يوجده بين كافة عناصره . وقد برهن عن انـــه يتأثر بالشائعات : فما القول عن الاضطرابات والحروب الاهلية والصعوبات العسكرية ؟ وللأحداث البعيدة صداها الخاص اذا ما جرت في الشرق الأيجي ، أي في أغنى منطقة توظف فيهـا رؤوس الاموال الايطالية . وان خطب شيشرون التي استهدفت ، في السنتين ٦٧ و ٦٦ ، تكليف بومبيوس مهمة تنظيف البحر من القراصنة وتولي الحرب بعد ذلك ضد ميتريدات بعد ان أخفق فيها لوكولوس ، قـد صادفت في الزمان الاضطراب الذي ستكون « مؤامرة » « كاتيلينا » منتهاه في السنة ٦٣ . وتظهر هـــذه الخطب الخطورة الحقيقية التي ينطوي عليها قلق بل ازمة تهدّد بالخطر مصالح عظيمة ، متداخلة من أعلى السلّم الاجتماعي الى اسفله : وليس من ريب في ان هذه الازمة هي التي خلقت هـــذا الاضطراب بتجميد رؤوس الاموال ومنع تشغيلها ، ان هي لم تقوضها ، وبحمل الدائنين على الالحاح في المطالبة بديونهم . ومنذ السنة ٥٠ ، ادت القطيعة بين قيصر من جهة ومجلس الشيوخ وبومبيوس من جهة اخرى ، الى ازمة مماثلة. فروما قد ضاعفت شجونها في الوقت الذي ضاعفت فيه ثروتها لأن الاطمئنان ليس نتيجة اقتصاد يتطور في هذا الاتجاه .

٣ ـ الطبقات الدنيـــا

كان للتطور الاقتصادي صداه في تكوين المجتمع وفي نشاطات ومصير طبقاته المختلفـــة . وقد قلنا ما يجب قوله ، بصدد الطبقة الحاكمة ، في مستهل هذا الفصل . فلا يزال امـامنا سوى ما يتعلق بجمهور السكان الذين لن تمنعنا لامبالاة المصادر القديمة حيالهم من تراثي مصيرهم .

١ ـ الرق وحرب العبيد

عدد العبيـد

كان من نتيجة الحروب الظافرة والاثراء الذي عقبها ان دخل ايطاليـــا عدد لا يحصى من العبيد . اجل كان هنالك عبيد منذ اقدم العهود : فقـــد استطاعت روما ، بعد « كانا » ، ان تجند منهم جوقتين. ولكنهم غدوا الآن جماهير غفيرة. وان قانون الحرب الذي تمشى عليه كافة المتحاربين — اصبح بعض اسرى هنيبعل عبيداً في اليونان — وقـد غذّى الاسواق بهم منزلاً اليها ، في الظروف العادية ، اسرى الحرب ، بل جميع سكان المدن المفتوحة عنوة في اغلب الاحيان . وقد حدث مـــا هو اسوأ من ذلك : التنكيل الذي لا يعرف للشفقة معنى . ففي السنة ١٦٧ ، بعد النصر واخضاع الاهالي ، اصدر بولس اميليانوس امره باختطاف وبيع ١٥٠٠٠٠ شخص من سكان الابير . وفي كل مكان اذن ، في البلقـــان وآسيا وافريقيا واسبانيا وغاليا ، باع قضاة المالية بالدلالة ، مرافقي الجيوش من التجار ، الغنائم البشرية التي كانت تنقل بعد ذلك ، مواكب كئيبة ، الى الاسواق الخاصة : ويجب الا ننسى ان قيصر قد امر ببيع مليون من الغـــاليين . وان المصادر الاخرى من قرصنة ، وعبودية دَين — لم ينج منها سوى

المواطنين – واستيراد برابرة ، لا اهمية تذكر لها اذا ما قورنت بهذا المصدر . ولن تخف تغذية الاسواق بالعبيد ما دامت روما قادرة على خوض الحروب الظافرة . وقد انتهى الى ايطاليا ، اوسع البلدان المتوسطية ثروة آنذاك ، العدد الاكبر من هؤلاء العبيد ، او على الاقل افضلهم قوة وذكاء وجمالاً . وبديهي ان ليس لدينا اي احصاء في هذا الموضوع ، ولكننا لا نشك في ان العبيد الذين دخلوا شبه الجزيرة بلغوا الملايين .

استخدامهم ومصيرهم

كان العبيد فئات متفاوتة الكفاءات ، وقد استخدموا في شتى الاعمال .

فكان هنالك عبيد للابهة يستخدمهم سيدهم للمتعة والتباهي؛ وكان اخرون خداماً مدربين ؛ واستخدم غيرهم ، من المثقفين ، امناء سر يوثق بهم ؛ وقام آخرون باعمال تتطلب خبرة واختصاصاً ؛ الخ . وقد ادى تدريبهم الى نوع من التجارة مارسه كاتون وكراسوس من قبله . وكانت اكثرية العبيد من الاغريق والشرقيين الاذكياء والماهرين . فبدأ تأثيرهم على المجتمع الرفيع يزداد اهمية منذ هذا العهد : ومن ميزات شيشرون الفاتنة دالته العطوفة على انجيته في الحقلين الادبي والمالي الذين لم يفته ان يعتقهم. وفي اثناء حركة النفي والاعدام التي تولاها سيلا ، غضّ الطرف عن سرقات امين سره ، المعتق خريسوغونوس . وليس مينوذوروس ، اميرال اسطول بومبيوس ، سوى عبد معتق ايضاً .

وقد استخدم بعض العبيد عمالاً اختصاصيين في مشاريع خاصة صغرى . فاذا اتقنوا مهنتهم، غدا السماح لهم ، لا سيما في المدن ، بممارستها لحسابهم الخاص ، لقاء اتاوة معينة ، امراً اعظم نفعاً ، بحيث ان النظام اليوناني حول العبد صناعياً صغيراً او حانوتياً« مقيماً وحده » ، قد ساد روما ايضاً . وغالباً ايضاً ، على غرار ما حدث في اليونان ، ما منح السيد الحرية القانونية لا سيما وان هذا المنح ما كان ليمنعه من اضافة واجبات مالية الى الحقوق التي يخوله اياها القانون على المعتق. وهكذا انصهر هؤلاء العبيد القدماء بسرعة نسبية في سكان المدن وأثّروا تأثيراً عميقاً في اخلاقهم . واذا ما حالف الحظ نشاطهم في العمل ، بلغ بعضهم مراتب رفيعة : فانما كان عبداً معتقاً ذلك الخباز الثري ، م . فيرجيليوس افريساسيس ، الذي ابتنى لنفسه ، في اواخر العهد الجمهوري او اوائل رئاسة اوغوسطس ، على مقربة من المدخل « الاعظم » في روما ، الضريح المكعب المدهش ذا الكوى الواسعة المستديرة التي تمثل فوهات الفرن .

بيد ان هنالك عبيداً آخرين ايضاً . نذكر منهم ، في الدرجة الاولى ، المسايفين ، المقتاتين جيداً والمدربين في مدارس كمبانيا الضاحكة . ونحن سنراهم فيما بعد حين يعم الميل الى الالعاب الدامية في كافة انحاء العالم الروماني . وقد رسخ هذا الميل في روما في اواخر القرن الثاني ، فاستلزم اشباعه ممثلين ينتظرهم الموت كانوا عبيداً في اكثريتهم على ما نرجح. ونذكر في الدرجة الثانية عمال المشاريع الكبرى ، الاشغال العامة والمناجم . ولا حاجة لان تتوفر لدينا حولهم

المعلومات ، التي تنقصنا كلياً آنذاك ، لتقدير شقائهم بسبب ظروف ناصبة احاطت بعمل قاموا به فرقـــاً وافرة العدد . ونذكر اخيراً العبيد الريفيين وهم بدون شك اكثر العبيد المقيمين في ايطاليا عدداً : وانما يهمنا معرفة مصيرهم .

تكلّم كاتون في بحثه حول الزراعة ، عن اولئك الذين تخيلهم في أملاكه ، ويقـدر عددهم بالثلاثين . ويتضح من فحص القواعد التي يضعها بصددهم انه لا يغفل رأس المال الذي يمثلونه ، فلا يرضى بأن يموتوا جوعاً او عملاً مرهقاً او ضرباً . واذا ما اشار ببيعهم عندما يتقدمون في السن او يمرضون ، فلا يشير بأن يباعوا مع « العربات والحدائد العتيقة » فحسب ، بل مع « الثيران الطاعنة في السن » ايضاً . فكل شيء يؤول ، بالنسبة له ، الى مسألة انتاج مماثلة لمسألة انتـــاج المواشي التي يغذيها صاحبها ويحرص على ان لا ينهكها ولا يسيء معاملتها . ولا شك ، على نقيض عمال كاتون الذين يشتغلون في بساتين الكرمة والزيتون ، في انه توجب على أكثرية العمال الريفيين ان يكونوا رعاة ، لأن العناية بالقطعان ، وحدها تقريباً ، تتيح باستمرار تشغيل رجـل يقتضي تعهده طيلة السنة . ولكن هذا العمل ، بالاضافة الى انـه يبعد العبد عن رقابة مستمرة ، لم يغير شيئاً في طبيعـة الحساب الذي كان على الاسياد ان يحسبوه والذي حال دون الافراط في القسوة وفي الاقتصاد الغذائي او غيره . لذلـك ، اذا ما اخـذنا بعين الاعتبار اعمال العنف التي يأتيها ، في غياب السيد المتكرر ، وكيل هو نفسه عبد في اغلب الاحيان ، لا يجب ان نبالغ في تصور السجون المظلمة والتقييد بالسلاسل وعقوبات الشنق . ولكن يجب ألا ننسى النتـــائج الأخرى للحساب نفسه . فقد منع السيد ، إلا في الظروف الاستثنائية ، من اعتاق العبد الذي يعجز عن استمالة جميله او يجمع بعض المـــال الذي يبتاع به حريته . وقد منعه ايضاً من القبول بالمحاذير والنفقات التي تستتبعها تربيـــة اولاد العبيد ، وهم قليلون على كل حال بسبب ندرة النساء بين العبيد . وهكذا فقد انحط العبد الى مرتبة الحيوان وفقـــد كل امل بالعطف وبمستقبل افضل ، فتألم في نفسه ، ان لم يكن في جسده ، كلما وعى طبيعته البشرية ولو وعياً غامضاً .

حروب العبيد

اذا لم يكن هذا الاحساس فطرياً فيه ، فقد كانت الحياة الجماعية كافية لأن تثيره فيه لأنه يجد فيهـا ابداً رفيقاً اعظم نباهة قد يكون منحدراً احياناً من النخبة الاجتماعية في بلاده . اضف الى ذلك ان العبيد الآتين من الشرق الهليني قد جاؤوا بصدى الآراء او التيارات الثورية . ولا يدهشنا ان تكون أشدّ الثورات خطورة قد طارت شرارتها من صقليا وايطاليا الجنوبية أي من المناطق اليونانيـــة المتأثرة تأثراً خاصاً بالتطور المواتي لاقتناء الاملاك الواسعة . وقد توصلت تدابير الأمن الشديدة ، في الظروف العادية ، الى كبح اضطراب خفي دائم الغليان : وكانت السلطات المحلية تتولى ذلك ، بمساعدة القضاة عند الحاجـة . بيد انه حدث ثلاث مرات ، تفصل بين الواحدة والاخرى ثلاثون سنة تقريبـاً ، ان حادثاً محلياً ، وحتى عائلياً ، قد اثار ، لأنه لم يقمع فوراً ، حريقاً يغذيه شيئاً فشيئاً المثل الذي توفره لليائسين

اعمال العنف الاولى . وقد اطلق الرومان على هذه الثورات الكبرى اسم « حروب العبيد » لأن قمعها قد تطلب عمليات عسكرية حقيقية .

ففي هذه الحروب توجب على قوات الامن ان تقابل ، لا عصابات متشتتة ، بل كتلا تحس بالحاجة الى الاتحاد تضم بضع عشرات الالوف من الرجال احيانا . وكل مرة تولى قيادة هؤلاء الثائرين زعيم لا ريب في انه تحلى بصفات غير عادية حتى توصل الى فرض نفسه على مثل هؤلاء الاتباع ، واذا ما هو لجأ ، كما تشير الى ذلك مصادرنا ، الى اساليب المحرقة ، فان هذه الاساليب هي التي تفعل فعلها في جماهير لا يمكن ان تتصف بروح نقدية عالية . وكان لهؤلاء الزعماء مساعدوهم ، وقد حاولوا تنظيم زمرهم وانتهاج بعض الخطط العسكرية بواسطتها . فاحرزوا على قوى الامن المحلية وعلى الجيوش المعبأة بسرعة انتصارات عديدة . ولكن ضعف تسلح الثائرين قد ظهرت نتائجه الحتمية امام جوقات مدربة نظامية . وهل يمكن من جهة ثانية ان يفرض عليهم نظام ما ؟ فهم قد خضعوا لغرائزهم الثأرية البدائية مكدسين الضحايا والخراب . فكان اندفاعهم بالتالي خطراً على الاسس الاولية للنظام الاجتماعي وللحضارة . فتكونت ضد هذا الاندفاع في روما الجبهة الموحدة التي ضمت اشد الاحزاب تخاصماً . اجل كان من المستطاع ، في حمى الاشتباكات والحرب الاهلية ، تسليح بعض العبيد وتجنيدهم . ولكن اعظمهم جرأة قد تراجعوا امام الخطر الشامل : فاحس الايطاليون الاحرار بتضامنهم كما لو كانوا به امام ثورة في ولاية . فثوار سبارطة الهلينية ، في اليونان مثلاً ، قد تجاوزوا اقصى ما توصل اليه « الشعبيون » الرومانيون ونرجح ان السبب البسيط في ذلك هو انهم لم يهتموا ، على غرار الشعبيين ، لمكاسب الفتح المادية .

انفجرت حربا العبيد الاوليان في صقليا على يد زعماء وجيوش من اصل شرقي ؛ ولم تنتقل العدوى آنذاك الا الى بعض النقاط من ايطاليا الجنوبية . وقد قاست الجزيرة الامرين من هذه الثورات ومن قمعها . وتفسر هذه الاخيرة جزئياً انهيار انتاجها الزراعي ، الملموس في القرن الاول . وتفسر ايضاً تشدد الحكام ، حتى فيريس ، في توزيع العدالة ، لانهم مضطرون للاستمرار في تشديد الرقابة البوليسية حيال محاولات الدعاوة والاضطراب .

اما الحرب الثالثة فأعظم شهرة : وهي تلك التي تزعمها ، في ايطاليا هذه المرة ، رجل تراقي ، ربما من اصل ملكي ، هو سبارطاكوس . فقد جر وراءه اولاً ، في السنة ٧٣ ، رفاقه المسايفين في مدرسة « كابوا » ثم ، شيئاً فشيئاً ، ما لا يقل عن ٦٠٠٠٠ رجل: ملحمة غريبة مفجعة ، دامية ووحشية الى اقصى حد ، تخللتها احداث اتصفت بالفظاعة حيناً وبالعظمة حيناً آخر . وليس اقل هذه الاحداث تأثيراً ، حتى اليوم ، ذلك الذي أرغم فيه هؤلاء المسايفون ، الذين كانت العائلات الكبرى تضطرهم الى الاقتتال لمناسبة جنازة احد اعضائها ، مائتي زوج من الأسرى على الاقتتال بعد موت احد معاوني سبارطاكوس . ولكن عظمة هذا الاخير لا تتجلى

في تطبيق شريعة السن بالسن تطبيقاً فظيعاً، بل في اتساع الخطة التي رسمها. فعلى نقيض سابقيه، الذين قادوا رجالاً شرقيين بنوع خاص، اضطر هو، بعد الحروب ضد « الكبر » و «التوتونز»، وبعد نمو علائق روما بالبلدان الشمالية، الى قيادة عصابات تضم كلتيين وجرمانيين في الدرجة الاولى. لذلك، فعوضاً عن ان يفكر بالسلب دون غيره، واقتناعاً منه بأن الفشل والموت سيكونان نصيبهم المحتوم في ايطاليا، قد قرّر ان يقودهم الى الحرية الحقيقية بشق طريق اوطانهم لهم من الجهة الشمالية. ولكن المأساة التي لا نعلم أسبابها الحقيقية — ونرجح ان احدها هو جاذب ثروة شبه الجزيرة — قد حدثت حين عاد الى ايطاليا الجنوبية بعد ان بلغ غاليا ما وراء الالب ظافراً. فقد قرر عمله هذا مصير الثائرين. كان كراسوس قد أعطي صلاحيات استثنائية وجند عشر جوقات فدحرهم حتى طرف شبه الجزيرة، بينما كان فيريس يفرض رقابة شديدة على صقليا. وجاءت النهاية في اوائل السنة ٧١ وطورد الهاربون في كل مكان ولم يرحم المنتصر وبومبيوس — الذي اصطدم في بلاد الاتروسك باحدى عصاباتهم — شخصاً واحداً منهم: وقد نصب كراسوس على الطريق « الآبية *Appia* » بين كابوا وروما ٦٠٠٠ صليب علّق على كل منها رجل محكوم بالموت.

اذا ما نظرنا الى الرعب الذي أثارته ادوار الازمة رأينا ان الارهاب الظالم لم يحل المعضلة. وعلينا ان نكتفي بالافتراضات، اقله بصدد اواخر الجمهورية واوائل الامبراطورية، لنفسر عدم اندلاع حرب اهلية بعد ذلك. واقرب هذه الافتراضات الى الحقيقة ان الحروب الاهلية قد وفرت امكانات عديدة لابعد العناصر مغامرة وعنفاً. وفي سبيل تجنيدهم، اعتق الخصوم العبيد او استقبلوا الفارين. وانتسبت قوات سكستوس بومبيوس، الذي كان مقيماً في صقليا وارغم اكتافيانوس فترة من الزمن على التخلي عن حقوقه للاتفاق معه، في أكثريتها الى هذا الاصل، وبعد ان استند اليها المنتصر حجة من حجج دعاوته، لم يرضيراً في ان يستخدم جنود المغلوب وبجارته. ونحن نرجح ان اعتماد هذه الطريقة قد ساعد، بفعل انتهازية تخضع لمشاغل اخرى، على تجنيب الخطر الاكبر، حين لم تكن روما لتستطيع بذل الجهد الذي بذلته ضد سبارطاكوس ثلاثين سنة من قبل. وبعد ذلك، في عهد الامبراطورية، تضاءل الخطر تلقائياً، دون ان يعالج قط، بعد معرفة حقيقية بالضبط، بالادوية اللازمة: ولكن ما حدث، باستثناء بعض التوقف بعيد الحروب الظافرة الكبرى، هو ان عدد العبيد قد اخذ يتناقص تدريجياً بسبب العدول عن السياسة الداعية للحرب وتزايد عدد المعتقين وهبوط ايطاليا اقتصادياً.

٢ ـ الفلاحون الاحرار

ان ازدياد اليد العاملة العبدية، المقابل للفتوحات العظمى في القرن الثاني، ما كان ليجر سوى العواقب الوخيمة على المصير المادي لرجال احرار يعيشون من عملهم. ونحن نعرف، من هذا القبيل، متوسطي وصغار الفلاحين الذين كانوا يزرعون اراضيهم بأنفسهم. ولكنهم في

الحقيقة ألفوا ، في شبه الجزيرة التي عرفت فيما مضى اقتصاداً زراعياً بسيطاً، غالباً الى حد بعيد، طبقة وسطى ، وهامة ايضاً ، لأنهم قدموا لروما هيكلا اجتماعياً وعسكرياً – جمع المشاة من بينهم – لا نظير له من حيث المتانة . فكل ما قد يصيبهم يهدد بالخطر ، اول ما يهدد، الدولة التقليدية .

الازمة: الاملاك الخاصة والاملاك العامة

لا مراء في ان عددهم قد تدنى . وليست منافسة العبيد السبب الوحيد وحتى الاهم في ذلك لانها قد اضرت في الدرجة الاولى بالعمال الاحرار الذين يؤجرون سواعدهم للملاكين . بيد انها ، بصورة مباشرة ، وبتسهيل استثمار الاملاك الواسعة، قد اضرت بالاملاك الصغيرة . واثر واقع الحروب نفسه تأثيراً مؤسفاً؛ فخلال السنوات الخمسة عشر التي امضاها هنيبعل في ايطاليا اتلفت الجيوش الارياف . ثم ان التجنيد المتكرر وطول مدة الحملات فيما وراء البحر قد سلخا الفلاحين عن املاكهم التي حرمت من ثم ادارة وعمل السيد. واذا هم عادوا من هذه الحملات بالغنائم، فقد اكتسبوا عادات لا تشجع العمل الشاق المستمر . ولكن جميع هذه الاسباب ، مباشرة كانت ام غير مباشرة ، تتضاءل امام تطور الاقتصاد الزراعي الايطالي . وقد سبق لنا وبينا كيف استحال العيش على الفلاحين الايطاليين من بيع الحبوب باسعار متدنية فرضتها الواردات وكيف اضطروا لان يوجهوا عنايتهم الى نشاطات اخرى لا سيما تربية المواشي وزراعة الاشجار المثمرة . ولكن ذلك لم يتوفر الا لذوي رؤوس الأموال القادرين على توظيف المبالغ الضرورية لهذا الغرض . وقد توفرت رؤوس الاموال هذه باطراد للاغنياء ، المستفيدين الرئيسيين من اثراء الحروب . فتجمعت بالتالي الاملاك العقارية ونمت بينما هاجر الملاكون القدماء المستثمرون الى المدن ، والى روما بالتفضيل ، او تحولوا الى عمال ريفيين مأجورين، بائسين بفعل منافسة العبيد .

وازدادت خطورة الداء بسبب وجهة استخدام الاملاك العامة في ايطاليا، وهي بالضبط ما كان بالامكان ان يوفر له الدواء . فقد شملت هذه الاملاك مساحات كبرى من الاراضي المصادرة لمنفعة روما حين الفتح او بعد الثورات ، وقد انتهبها الخيانات التي حصلت اثر نداء هنيبعل . وطالما استعملت الدولة بعض اقسامها ، بين وقت وآخر ، لتوزيعها انصبة مجموعة او متفرقة على مواطنين رومانيين او حلفاء « لاتين » : فحدث من ثم بزل في طبقة كادحة قديمة او حديثة العهد وتألفت مرة ثانية طبقة من الزراعين الاحرار . ولما كان امر ادارة ممتلكات الدولة يعود لمجلس الشيوخ فان هذا الاخير هو من تولى هذا التوزيع . غير ان احد المحامين عن حقوق الشعب قد تجاسر مرة واحدة ، في السنة ٢٣٢ ، وطلب الى الشعب الموافقة على ان تفرز وتوزع على المواطنين الفقراء منطقة محتلة وراء الابنين بمحاذاة الادرياتيك . ولكن مجلس الشيوخ ، بفضل السلطة التي جعلته الحرب البونيقية الثانية يستعيدها ويوطدها ، قد توصل الى تجنب تجدد هذا النهج الذي اعتبره نهجاً ثورياً . واستفاد من احتكاره للسلطة فقرر في اوائل القرن الثاني

بعض التوزيعات وانشأ بنوع خاص قرابة عشرين مستعمرة . ثم وضع حداً لهـذا التوزيع : فالاملاك العامة ، في نظر الاوليغارشية المجلسية ، يجب ان تستخدم لغايات اخرى.

لقد بيعت منها بعض القطع فقط لان الخزانة العـــامة لم تشك من العجز الانادراً . وحاول الكثيرون استئجارها ، وتولى مراقبو الاحصاء التلزيم الذي تناول اجمالاً مساحات كبيرة: ذاك كان مصير البراحات *Landes* والمراعي بنوع خاص. واخيراً كان مسموحاً لاي كان ان «يحتل» الارض التي لا يشغلها احد مقابل ضريبة سنوية الغاية منها التذكير بملكية الدولة . وعملياً ، اذا استمرت الجماعات المحلية، عن طريق الالتزام او بدونه، في استثمار اراضي الجدود التي سلخها منهم الفتح الروماني مبدئياً ، فإن الريفيين المفتقرين لم يستفيدوا من الاملاك العامة الا بهذه المداورة مستكملين تغذية مواشيهم القليلة في المراعي المشتركة . اما ما تبقى منها فقد استأثر به الاغنياء بالنظر الى ان استثماره او مجرد استخدامه يستلزم ابداً رؤوس الاموال؛ وقد تألفت جمعيات من الملتزمين لتعاطي تربيـــة المواشي كما وظف كبار الملاكين ولا سيما الشيوخ اموالهم في الاراضي المجاورة لاملاكهم لان تشغيل ثرواتهم في الاستثمار الريفي كان وحده جائزاً . ولهـــذا السبب احجم مجلس الشيوخ خلال الربع الثاني من القرن الثاني عن توزيع القطع الفردية .

وهكذا لم يتلق الفلاحون الاحرار ، في ازمتهم الخانقة ، اي شيء يعوض عليهم ، وعوضاً عن ان تساعد املاك الدولة على استمرار التوازن الاجتماعي فانها قد ضاعفت امكانات التوسع التي توفرت من قبل للاملاك الخاصة في التطور الاقتصادي .

الحركة الاصلاحية

لقد لوحظ نهج هذا التطور منذ العصور القديمـة . ويبذل المعاصرون اليوم جهدهم في اكتشاف بعض مفارقاته . وأهمهـــا اختلاف زمن حصوله وفاقاً لمناطق ايطاليا . لنستثن في الدرجة الاولى ايطاليا الجنوبية التي هي ، كما نظر اليهـــا بوليب ، حديقة غناء مخصبة زهيدة الاكلاف . فقد كان ايضاً في شبه الجزيرة مناطق يعسر الوصول اليها من الساحل ولا يدخل القمح الاجنبي اليها ، اعني المناطق الجبلية في ايطاليا الوسطى . امـا على مقربة من رومـــا ، في اللاتيوم واتروريا الجنوبية ، فقد فضل الاثرياء توظيف رؤوس اموالهم في الاراضي حتى يستطيعوا مراقبة استثمارها مراقبة اجدى. ومن جهة ثانية غدت ايطاليا الجنوبية كلها، وهي التي قد عمها الخراب خلال الحرب البونيقية الثانية، المنطقة النموذجية لتربية المواشي على نطاق واسع : ولعل نظامها الزراعي الراهن قد تحدّد منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

اكتشف بعض المسؤولين الرومانيين الداء ، اقله من خلال بعض نتائجه . فلمسوا الصعوبات في تعبئة الجنود ولاحظوا انخفاض مستواهم : حصلت حوادث مؤسفة مؤلمة لا سيما خلال الحملات على نومانس في اسبانيا . ولاحظوا ايضاً الارتفاع العددي في الطبقـة الكادحة المدنية والرذائل التي اذلتها. فبرز في ايطاليا النقص في الرجال الذي علموا ان اليونان شكت منه ولا تزال .. اجل نحن نفتقر الى المعطيات الواضحة حول الايطاليين الاحرار غير المواطنين ؛ ولكن قضاة مدنهم

قد اشتكوا احياناً من الصعوبة التي يصادفونها في جمع المتطوعين للجيش الروماني. اما المواطنون فان عددهم بعد ان بلغ الرقم القياسي ٠٠٠ ٣٣٧ في السنة ١٦٤ قد اخذ بالانخفاض ، من احصاء الى احصاء ، الى ٠٠٠ ٣١٨ في السنة ١٣٦ ، أي ما يقارب ٦ ٪ . فرأى الداء بعض المسؤولين الذين رضوا بفتح عيونهم وادركوا بسهولة احـــد اسبابه : طغيان الاملاك الواسعة واقتصادها العبدي على الاملاك الصغيرة : يعزو بلوتارك الى كايوس ان اخـاه طيباريوس غراكوس ، حين مروره في اترووريا ، « رأى هذه البـلاد الجميلة المقفرة التي لا زراع ولا رعاة فيهـــا سوى الاجانب والبرابرة » .

برز كذلك اثر الافكار الداعية الى حب البشر وحتى الى المساواة التي طلع بها بعض المفكرين الهلينيين . فلا مجال مثلاً لنكران هذا الاثر عند طيباريوس غراكوس . ولكن اذا وجب ربط اسم هذا المحامي عن حقوق الشعب بحركة الاصلاح استناداً الى مبادرته ونهايته المفجعة ، فان فكرة وكيفيات هذا الاصلاح قد لاقت صداها لدى شيوخ من المرتبة الاولى ، من امثال «رئيس المجلس » آنذاك . وفي الحقيقة فكر هؤلاء الارستوقراطيون المستنيرون ، في الدرجـة الاولى ، تفكير رومانيين مفعمين بالتقاليد القومية ، وبمفهوم دقيق لمصلحة روما ايضاً . وكلنا يعـــلم المضادة البليغة الشهيرة التي جعلهـا طيباريوس غراكوس بين الوحوش البرية التي تمتلك اوجرتها على الاقل وبين اولئك الذين يموتون ذودا عن ايطاليا وليس لهم بيت تأوى اليه عائلتهم. ولكننا نلاحظ ، اذا ما امعنا قراءة صفحة بلوطارك بكاملها ، ان الخطيب لم يقصد سوى المواطنين دون غيرهم الذين « يطلق عليهم اسم اسياد العـــالم » والذين « لا يملكون مدرة » . فلا قيمة من ثم لاعتراض المعترضين انه يستحيل عليه التفوه بغير هذا الكلام امام جمعية من المواطنين .

فلم يفكر المصلحون ، لا في بداية حركتهم ولا بعدهـــا ، بالاقليميين الذين كان استغلالهم وبؤسهم ، مع ذلك ، في الاساس من انهيار الفلاحين الايطـاليين : وكايوس غراكوس هو الذي نظم لمصلحة الملتزمين جباية الفريضة على ولاية آسيا . لا بل لم يفكروا في البداية بالايطاليين غير المواطنين الذين كثيراً ما لجأت اليهم روما في جمع المتطوعين لجيوشها والذين اقصاهم القـــانون الزراعي عن توزيع الاراضي ، مع انه اخضعهم ، شأن غيرهم ، لمبدأ استعادة الاراضي المقطعة . اجل لقد تطوروا بسرعة بصدد هذه النقطة واقترحوا ، منذ السنة ١٢٥ ، حـــلاً يقضي بتعميم حق المواطنية في ايطاليا ، اي بجعل الايطاليين يستفيدون من القانون ؛ وان المثـل الاعلى في المساواة القانونية الذي قالوا به لم يزل بعد ذلك من برنامج الشعبيين . ولكنهم لم يقولوا به الا لاعتبارات انتهازية ، اي رغبـة منهم في جمع الحلفاء من حولهم والقاء مسؤولية الثورة على خصومهم . واذا ما اوجبت المعضلة الزراعية بحث المعضلة الايطاليـة جدياً ، فانها تحتفظ في نظرهم باولوية منطقية تتأيد في اولويتها الزمنية ، ولم يحملهم على التصدي للمعضلة الثانية الا تصميمهم على حلها هي .

هكذا افضى الاصلاح الى اصلاح آخر ، وافضى في الواقع تدريجياً الى عدة اصلاحات اخرى . ومرد ذلك الى ان الاصلاح الزراعي لم يكن ليتم الا على حساب الاوليغارشية العقارية التي ضمت اكثرية طبقة النبلاء المجلسيين . فاقتضى مواجهة مقاومة عنيدة تبديها هذه الطبقة اذ ان هزيمتها لا يمكن ان تعني سوى انهيار النظام السياسي الذي عرفته روما منذ الحرب البونيقية الثانية والذي القى في الواقع بزمام السلطة الى مجلس الشيوخ . امام مثل هذه النتائج لا يدهشنا ان يتخلى عن آل غراكوس بعض انصارهم الاول .

التشريع الزراعي

بديهي انه يستحيل هنا عرض تطور التشريع الزراعي عرضاً مفصلاً لا تتفق عليه الآراء احياناً .

كانت نقطة انطلاق هذا التشريع القانون الذي اقره الشعب بناء على اقتراح طيباريوس غراكوس المحامي عن حقوق الشعب ، وقد تقدمه بصورة اكيدة قانون آخر على الاقل . اختلف العلماء حول عدد هذه القوانين وتاريخها . ولكن لا نعبأن بذلك اذ ان قانوناً واحداً لم يطبق . وقد وضعت ايضاً ، منذ زمن قريب ، مشاريع كان مصيرها الحبوط . واستندت كافة القوانين او المشاريع الى المبدأ القانوني الذي احتفظ للدولة بمبدأ تملك جميع الاملاك العامة التي لم تنقل ملكيتها الى شخص آخر وفاقاً للانظمة المرعية الاجراء : فكان باستطاعتها من ثم استعادة الاراضي « المحتلة » او المؤجرة والتصرف بها كما يطيب لها . ولم يعرف القانون الروماني ، وشأنه في ذلك شأن القانون اليوناني ، الاستملاك الذي تلجأ اليه الاصلاحات الزراعية الحالية . واكتفى قانون السنة ١٣٣ ، على غرار النصوص السابقة ، بتعيين حد اعلى ، على بعض الاهمية ، مما يعادل ١٢٥ هكتاراً لرب العائلة من « محتلي » الاراضي ، يضاف اليها ٦٢,٥ هكتاراً لكل ولد – تنزع بعده الاراضي العامة الايطالية من مستثمريها ، ومقابل ذلك يصبح هؤلاء مالكين شرعيين للاراضي الباقية . وتقسم الاراضي المستعادة وتوزع على المواطنين انصبة مساحة كل منها ٧,٥ هكتارات لا يمكن بيعها وتخضع لفريضة سنوية تسمح بمراقبة مصيرها : فتتكون مرة اخرى بالتالي طبقة صغار المستثمرين التي اعتبرت ضرورية لعافية المجتمع والدولة .

ذاك كان النظام . وقد أثار في الواقع ، بسبب بساطة تصميمه ، صعوبات سرعان ما تمسكت بها المعارضة . ولم تعرف هذه الاخيرة كللا في معارضتها فادى عنادها الى حوادث تعتبر من اعنف حوادث تاريخ روما الداخلي كموت طيباريوس غراكوس في السنة ١٣٣ وموت شقيقه في السنة ١٢١ . وكانت لها الغلبة احياناً : اجل لم تجرؤ قط على الغاء المبادىء المتفق عليها ، ولكنها علقت تطبيقها او اخرته او حصرته في مناطق نائية هي ثانوية في نظر طبقة النبلاء . ولكن الاصلاح ، بفضل سلسلة طويلة من القوانين الزراعية ، اعتمد في النهاية ونقح ووسع توسيعاً اعظم سخاء على المنتفعين به . ولنكتف هنا ببعض التعديلات . فلم يقتصر على

حصص الـ ٧,٥ هكتارات : بل توصلوا الى ال ٥٠ هكتاراً ، وألغوا الضريبة المفروضة عليها ، الشيء الذي سهل ، من جهة ثانية ، نقلها الى الغير ، واعترض من ثم الهدف المنشود . ولم يقتصر على الاراضي المستعادة من شاغليها : فقد ابتيع منها بمال الدولة . ورغبة في جعل التوزيع اكثر ثبوتاً ، جمعت الانصبة وانشئت المستعمرات . وسلكوا اخيراً ، بتخوف كلي ، الطريق المعدة لان تكون طريق المستقبل ، بان شرعوا بتطبيق هذه التدابير ؛ ليس في ايطاليا فحسب ، بل في الاقاليم ايضاً حيث شملت الاملاك العامة كثيراً من الاراضي الخصبة. وقد سبق لشيبيون ، في السنة ٢٠٦ ، قبل ان يغادر اسبانيا التي انتزعها من البونيقيين ، ان اسس ايطاليكا ، قبالة اشبيليا الحالية ، باسكانه فيها العاجزين والمتقاعدين من جنود جيشه . ولكن هذا المثل لم يقتد به بعد ذلك . ثم عادوا الى هذه الفكرة في عهد كايوس غراكوس ، ولعل هذا العود كان مداورة للتخفيف من صعوبة استعادة الاراضي في ايطاليا ، فاقروا انشاء مستعمرة في افريقيا هي « المستعمرة الجونونية القرطاجية » التي تأسست على مقربة من الموقع اللعين الذي قامت عليه المدينة المهدمة في السنة ١٤٦ . فاخفقت المحاولة . ولكن انشاء ناربونا ، في السنة ١١٨ ، قد عرف نجاحاً كلياً .

وتطور في الوقت نفسه المنتفعون بهذه القوانين . فقد اراد المصلحون الاولون تخفيض عدد المواطنين الفقراء بالاستفادة منهم فوراً . فسُمح منذ ماريوس للكادحين بالانخراط في الجوقات وحرص جميع القادة الظافرين على ايثاق تعلق جنودهم بهم بتأمين المكافأة لهم ، فلجأ المصلحون الى القوانين الزراعية كي يوزعوا على الجنود انصبتهم من الاملاك بعيد تسريح الجيش . ويضاف هذا النصيب الى الغنيمة الفردية ، فيحدث التوق اليه اقبالاً على التطوع عندما تندلع الحرب : كان الريفيون البؤساء يرضون بالمخاطرة بحياتهم بضع سنوات رغبة منهم في تأمين الحصول على قطعة ارض بعد نهاية الحرب . لا ريب في ان الهدف الاجتماعي قد تحقق ، ولكن بمداورة مادية ، وبما هو اخطر من ذلك ، اي بانحراف اخلاقي . والدليل على ذلك ان الارض المقطعة لم تعبر عن اعتراف الدولة بواجبها في مساعدة المواطن على العيش من عمله بل اصبحت مكافأة على خدمات مؤداة . ولكن لماذا اديت يا ترى ؟ في اغلب الاحيان ، لطموح قائد يستخدم جيشه في الحرب الاهلية دونما خجل لا سيما وان انتصاره ، بما يستتبعه من مصادرات ونفي ، يوفر له الاراضي التي يستطيع اسكان جنوده القدماء فيها : وكان سيلا اول من نهج هذا النهج . وقد وجب ان يأتي قيصر ويستصدر خلال قنصليته في السنة ٥٩ ذلك القانون الذي طبقه الى حد بعيد خلال دكتاتوريته ، حتى يعود الى توزيع الاراضي على المواطنين الفقراء على نطاق واسع ويستمر في الوقت نفسه في الانعام بسخاء على الجنود القدماء : فأسكن في كمبانيا ٢٠٠٠٠ رب عائلة لكل منهم ثلاثة اولاد على الاقل ، ولجأ بنوع خاص الى المعتقين المرسلين الى روما لاعادة بناء كورنثوس التي كانت قرطاجة قد هدمتها في السنة نفسها .

نتائج القوانين الزراعية

على الرغم من اللجوء الى الاستعمار الاقليمي، بقيت ايطاليا ، دون ريب، قبلة انظار الايطاليين . ويجب ان لا نقلل من اهمية النتائج التي اسفرت عنها الصراعات الحامية طيلة قرن تقريباً ضد استئثار الطبقات الحاكمة بالاراضي. اجل بقي عدد الاملاك الواسعة مرتفعاً لا سيما في ايطاليا الجنوبية : وقد سمح ببقائها النصيب المتروك لشاغلي الاملاك العامة ، وتولى العمل الباقي حصر الثروات العقارية الطبيعي عن طريق الارث ام الشراء. ولكن الملكية الصغيرة ، في عدة مناطق ، لا سيما المتوسطة ، كانت قد عادت الى الوجود . وألف الملاكون الجدد بورجوازية بدت وكأنها مستقرة. فهل عملوا بسواعدهم ؟ لا يمكننا اثبات ذلك . ولكنهم اقاموا في املاكهم وراقبوا استثمارها مراقبة دقيقة . وتوفر لهم المال أكثر من ذي قبل ، لا سيما اذا كانوا جنوداً قدماء ، فاستطاعوا اعتماد طرائق اوفر دخلاً : وليس ازدهار الكرمة والزيتون في اواخر العهد الجمهوري سوى ثمرة اتعابهم في اغلب الاحيان .

وليس هذا كل شيء . فقد افضى انتقال الملكية الى فرج سكان ايطاليا . اجل لا يمكننا اليوم قياس الصهر العنصري . ولكن تقدم الوحدة اللغوية ، وهي عماد قوي للوحدة الادبية ، يمكن تتبعه خطوة خطوة . ففي القرن الاول زال استعمال اللغة الاتروسكية كما زال في بومبيي ايضاً استعمال اللغة الاوسكية (*Osque*)؛ وقد أسهمت في هذا الزوال القوانين الزراعية، تساعدها في ذلك عوامل اخرى كثيرة، ولا فرق اذا استفاد منها المدنيون ام قدامى العسكريين.

لا سبيل لمعرفة ما اذا كان باعثو هذه النتائج قد ارادوها وارتقبوها : فعلى غرار جميع الظواهر الاجتماعية ، يغلب ان هذه النتائج تمثل تسوية بين التطور التلقائي المتعدد الاسباب وبين الاعمال البشرية المقصودة التي تحاول تعجيل ودعم واستمالة او مقاومة نتائج هذا التطور. ولكن الحقيقة الثابتة هي ان مجهوداً كبيراً قد بذل بغية تقويم نتائج الفتح الوخيمة بالنسبة للفلاحين الاحرار ، وان هذا المجهود قد ذلل أسوأ الصعوبات فلم يبق دون ثمرة . وامام هؤلاء الملاكين المتوسطين وتقدم اللغة اللاتينية تعود بنا المخيلة الى توطين المستعمرين اليونانيين الذي حققته بعض الملكيات الهلينية . ولكن الموضوع ههنا انتزاع الملكية من الطبقة نفسها التي في يدها زمام السلطة . لذلك يجوز التأكيد بأن تاريخ العصور القديمة لا يعطينا أي مثل آخر شبيه بهذا المثل عن تدخل الدولة النافذ بغية التأثير ، على حساب فئة من مواطنيها ، على الواقع الاجتماعي، وبغية اعادة تكوين طبقة هي في طريق الزوال .

٣ ـ الطبقة الكادحة المدنية

غير ان هدفاً على الاقل ، بين الاهداف التي سعى وراءها القائمون بالاصلاح الزراعي ، لم يتحقق بلوغه . فهم قد توخوا تخفيض عدد الكادحين الذين يتجمعون في روما ، حيث تفسد اخلاقهم، باعادتهم الى العمل الحر في الحقول. ولكن هذا العدد لم ينخفض بل استمر في التضخم؛

وجل ما نستطيع قوله هو انه كان من شأن هذا العدد ، لولا القوانين الزراعية ، ان يزداد أكثر من ذلك . وليس في واقع هذا الفشل ما يثير أية دهشة : فبين البؤس في البطالة والكدّ المشكوك في نتائجه لم يترك الانحطاط الاخلاقي لذوي العلاقة مجالاً للتردد ، وقد وجب ان يبرز دكتاتور من امثال قيصر حتى يجرؤ على القيام حيالهم بعمل قسري ، ولو غير مباشر . اضف الى ذلك ان خصوم القوانين الزراعية لم يكونوا ليهملوا حجة فوضى الحكم . ويمكن الحكم على مهارتهم بقراءة تحريضات القنصل شيشرون مقاوماً ، في السنة ٦٣ ، مشروعاً تقدم به رولّوس : « قال هذا المحامي عن حقوق عامة الشعب في مجلس الشيوخ ان لعامة الشعب المدنية مزيداً من الاهمية في الدولة وانه يجب « تفريغ » المدينة منها . هذه هي الكلمة التي استعملها كأنه يتكلم عن فنطاس ما لا عن طبقة من خيرة المواطنين . اما انتم ... فلا تتنازلوا عما هو ملككم ، الرصيد السياسي ، والحرية ، والاقتراع ، والكرامة ، والمدينة ، والساحة العامة (الفوروم) ، والالعاب ، وايام الاعياد وغير ذلك ، ما لم تفضلوا على بهاء هذه المدينة ، بتخليكم عن كل ذلك ، الاستيطان ، بقيادة رولوس ، في جفاف مدينة « سيبونته » او في طاعون مدينة « سالبيس » . فكانت الغلبة لشيشرون . وكانت الحجة مفحمة ، ولكن لجوءه اليها ، مع توفر غيرها لديه ، لم يخدم سمعته كرجل دولة .

اهمية ووحدة الكادحين المدنيين

لما كانت روما المدينة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم في ايطاليا ، فان الكادحين المدنيين الوحيدين الذين كانوا على بعض الأهمية العددية هم الكادحون الذين اقاموا فيها . وكانوا كافين لتعمير اكثر من مدينة . وبسبب افتقارنا الى المعطيات الاحصائية الاخرى ، نرانا مضطرين لأن نقبل بالعدد ٣٢٠ ٠٠٠ الذي كان ، حين استلام قيصر السلطة ، عدد المواطنين المقيدين على لوائح توزيع القمح المجاني . ومع ذلك فلا يكفي هذا العدد لايقافنا على الحقيقة الكاملة . فلو افترضنا انهم لم يدونوا في هذه اللوائح سوى المواطنين القاطنين روما ، فهل أقصي عنها مبدئياً اولئك الذين بلغوا حداً أدنى من اليسار ؟ وما هو خصوصاً المعدل الذي يجب ان نضرب به هذا العدد اذا ما اردنا ان نأخذ بعين الاعتبار عائلات الذين يتقاضون المخصصات ؟ فهو لا يعطينا بالتالي سوى مقياس لأهمية الكادحين ، ولكنه في واقعه لا يخلو من قوّة التأثير . ويمكن ان يقدر تقديراً افضل اذا ما قورن بتأكيد ذلك المحامي عن حقوق الشعب الذي قال في نهاية القرن الثاني ان ليس في روما « ألفا رجل ممن يملكون شيئاً ما » . وعلى الرغم من ان شيشرون لا ينفي هذا التأكيد حين يستشهد به ، فانه يبدو مغالى فيه جداً . ولكن التفاوت العددي ، على كل حال ، كان عظيماً جداً بين الاغنياء والفقراء .

ليست هذه الطبقة مدينة بتكاثرها — الذي نجهل مراحله — لارتفاع عدد الولادات . واذا ما اعوزتنا الارقام فان الشهادات تتفق اتفاقاً كافياً للاعراض عن هذه النظرية . فقد جاز للوالدين الرومانيين ، على غرار الاغريق ، ان لا « يربوا » اولادهم اي ان يلقوا في الشارع مواليدهم الجدد ، ولم يستخدموا هذا الحق ، على كل حال ، بمقدار استخدام الاغريق له . ولكن الوفيات

بين الاطفال كانت مرتفعة. فمن اصل الاثني عشر ولداً الذين انجبتهم كورنيليا والدة آل غراكوس، لم يبق في قيد الحياة سوى ثلاثة فقط. فما هي حال الطبقات الفقيرة ياترى؟ حين تقرر، منذ قيصر، تشجيع العائلات الكثيرة العدد، بدا وجود ولد ثالث مقياساً كافياً.

بعد استبعاد هذا السبب يمكن القول ان تكاثر السكان مرده الاستيطان الذي ليس من سر في اسبابه: زيادة دور المدينة سياسياً واقتصادياً؛ نزوح الفلاحين الايطاليين المفتقرين اليها بعد ان ارعبتهم او ارهقتهم حياة المأجورين التي ارغمتهم عليهـــا، في الريف، خسارة الارض التي اعتاش منهـــا جدودهم؛ نمو الرق الذي كان يفضي، بشكل شبه عادي في رومـــا، الى الاعتاق

واذا كان المستوطنون احراراً، تمتع شطر كبير منهم بصفة المواطنين حتى قبل اقامتهـم. اما الآخرون، الحلفـاء «اللاتين» او الحلفاء الايطاليون، فان التشريع، الذي عاملهم بكل سخاء في اوائل القرن الثاني، قد غدا فيما بعـــد اشد قسوة، ولكنه لم يتوصل قط الى الحيلولة دون حصولهم على حق المواطنية، مع انه قد لجأ عند الحاجة الى مداورات لا تخلو من الغش. وحدث الشيء نفسه للاجانب غير الايطاليين، وهم قلة على كل حال في عهد الجمهورية. امـــا المعتقون فقد استفاد كل منهم من نظام سيده القديم. وهكذا فان التمييزات القانونية، التي لا اهمية لها خارج العلائق بالدولة، كانت تتلاشى خـــلال جيل او جيلين على الاكثر: ولم تقوض وحدة الطبقة الكادحة الرومانية.

يصح القول نفسه في التمييزات العنصرية. فالعناصر الوحيدة الغريبة حقاً والكثيرة نسبياً قد وفرها العبيد المتعددو الاجناس: وما كان اعتاقهم ليتحقق الا بعد فترة اختبارية يمـارسون خلالها اللغة ويقتبسون العادات السائدة. بيد ان الشرقيين لم يتخلوا عن عباداتهـم بسهولة، لا بل انهم نشروا حولهم عقائدها وطقوسها. ومهما يكن من الامر فان الوحدة الادبية قد كملت بالتالي الوحدة القانونية. ولسنا نعرف في روما آنذاك، بين جماهير سجسة بالفطرة، خصومات شبيهة بتلك التي برزت في كبريات مدن الشرق كالاسكندرية مثلاً: ولن ترتدي الكراهية، التي استهدفت اليهود والمسيحيين بعد ذلك، طابع العنف الا بايعاز من السلطات.

البطـــالة

كان من البديهي، في مدينة بلغت هـــذا العدد الكبير من السكان، أن تبرز في الفوارق الاجتماعية ومستويات الحياة المادية خلافات شتى كثيرة. وليس من ريب في ان طبقة الكادحين هـذه ضمت عمالاً شجعاناً وشرفاء؛ فليست امكانات العمل مـــا اعوزهم. وقد بلغ بعضهم اليسار بمهارتهم وجدّهم، لا بل توصلوا الى الانصهار في طبقة الاغنياء. ولكن معرفتنا بهذه الطبقات الوسيطة بسيطة جداً. ولا تلقي مستنداتنا ضوءاً آنذاك إلا على طبقات أشد غمراً، واكثر عدداً. بيد انه يعوزنا معرفة النسبة التي تنطبق عليها، في هذه الطبقات، الصفات المادية، والاخلاقيـــة، التي تعزوها المصادر الى مجموعهـــا. والحقيقة الوحيدة هي، ان

مثل هذه الفوارق التي لم تبد ضرورية للمعاصرين آنذاك لا تبدو كذلك ضرورية لاولئك الذين يحاولون اليوم ادراك وتفسير ما حدث يومئذ في روما .

فنحن لا نسعى وراء المغالطة ، والقعقعة الكلامية ، بل نقتصر على ملاحظة واقع عندما نؤكد ان القسم الاكثر نشاطاً ، في هذه الطبقة ، هو ايضاً اكثرهـــا بطالة . وقد يكفي مجرد وجودها ، بسبب ضخامة عددها ، لأن يثقل على حياة المجتمع كـله وعلى مصير المدينة نفسه . وباستطاعتنا تصور ما يمكن ان تأتيه بفضل سهولة العمل السجس التي توفرهـا لها بطالتهـــا .

ما هو عدد هؤلاء الفقراء الذين يجهلون العمـــل المنظم ، ويتوصلون مع ذلك الى تأمين معيشتهم ؟ يستحيل تقدير نسبتهم في مجموع لا يقع هو نفسه تحت تقدير . ولكن هـذه النسبة تتجاوز ، على كل حال ، تجاوزاً بعيداً مـــا يستطيع ان يقبل به مجتمع حريص في المحافظة على توازن عادي . وشرّ ما في ذلك ، من جهة ثانية ، هو ان هذه البطالة تفعل فعـــل الطعم . فهي تجتذب الى روما ، بالاضافة الى الكسالى بالسليقة ، كافة اولئك الذين يلاقون صعوبة مـا في تأمين معيشتهم من نتاج عملهم العادي ! فالكادحون العاطلون عن العمل في المدينة يرتفع عددهم ارتفاعاً مستمراً ، ولاحدود نظرياً لطاقاتهم ما دام معيلوهم قادرين على تحمل هذا العبء.

فالبطالة تستلزم الطفيلية .

الطفيليـــة

قامت الطفيلية في البداية على حساب الاغنياء . وقد انحرف نظـــام الزبن القديم الذي استتبع حماية « السيد » الأدبية والقانونية عن مفهومه الأول . وقد اصبح من السهل وغير النادر ان ينتخب « السيد » دونمـا تقيد بأي تقليد عائلي ، كما اصبح من واجب السيد ، الذي لا فرق بين قدرته وثروته المتكاتفتين ، ان يؤمن للزبون حماية مادية ؛ هي أعطيـــة مادية أطلق عليهـــا اسم « سبورتولا » التي تعني اشتقاقاً « السلة الصغيرة » الملأى بالمواد الغذائية ، ولكنها استبدلت تدريجياً ببعض القطع النقدية . وقد أضيف اليها ، كما هو طبيعي ، الاشتراك في ولائم الأعيـاد العائلية او الاحتفالات العامة . ومـــا كان الاغنياء الحريصون على الدعاوة لأنفسهم لأن يقصروا سخاءهم في هذه المناسبات على زبنهم دون غيرهم . فالولائم التي ينظمونها يقبل فيهـا الجميع ، ومن لا يستطيع احتلال مكانه حول الموائد التي تعدّ حق في الشاحـات العامة يعطى « السلة الصغيرة » وحتى « اناء الزيت والنبيذ » الذي يستبدل بمبلـغ من المـــال ايضاً . وليس هـذا السخاء سوى ثمن التأثير الاجتماعي والسياسي . ومن واجب الرجل الذي قدّرت له الثروة ان يفيد بها مواطنين أقل حظاً : فامتناعه عن ذلك دليل بخل أي دناءة نفس. أجل لم يجهل الشرق الهليني هذا المفهوم ؛ ولكن نظامه السياسي قد جعله ، عملياً ، مقتصراً على الملوك . ومن حيث ان نبلاء الرومان قد تمثلوا بالملوك وتمتعوا ، كجماعة ، بسلطتهم ، فانهم قد تبنوا هذا المفهوم ، راضين بما يجره من موجبات : ويمكننا أن نتصور التجاوزات التي تدفعهم اليها ثروتهم ومنافستهم على السواء .

أفضى منطق النظام الى الطفيلية التي انتشرت على حساب الشعب - الملك نفسه ، أي على حساب الدولة ، ولكن ببطء . فبينما بدأ عهد اسباغ النعم الكبيرة الخاصة في اوائل القرن الثاني ، اكتفت الدولة خلال فترة طويلة نسبياً بأن تكرس ، شأنها في الماضي وشأن اكثر من مدينة يونانية ، جزءاً من موازنة الاعياد لنفقات الولائم العامة . ولم يفتها من جهة ثانية ان تترك لمنظمي هذه الولائم من القضاة الحرية في ان يجعلوها ، بجودة اصناف مآكلها وبعدد المدعوين اليها ، تتجاوز الاعتمادات الرسمية ، اذا طاب لهم ، في هذه المناسبة ، ان يتباهوا بالانفاق من اموالهم الخاصة . ثم بدأت في ١٢٣ ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي يكفي هنا ان نستعرض تطورها العام . يبدو ان قانون السنة ١٢٣ قد اقتصر على القليل من الموجبات : فمن حيث انه ارغم الدولة على ان تبيع كل مواطن كمية شهرية معينة من الحبوب بسعر محدّد ثابت ، كان بمثابة ضمان ضد ارتفاع الاسعار وطبق عملياً ، على ظروف روما الخاصة التي تجبي عيناً الغرامة المفروضة على صقليا ، مجهوداً سبق للمدن اليونانية ان بذلته . ولم يتبدل القصد إلا بعد ذلك بواسطة مشاريع او قوانين تدخل على ثمن المبيع تخفيضاً عظيماً . واخيراً ، في السنة ٥٨ ، سن كلوديوس قانوناً يقضي بالتوزيع المجاني .

ان هذا التطور لمفيد ببطئه ، وباستطاعتنا ان نكتشف له اسباباً كثيرة لا تتنافى بل ترتبط ببعضها على ما نرجح: قصر نَفَس الاغنياء الحاكمين الذين لا يمكن لسخائهم ان يرافق ازدياد عدد الافواه الواجب اطعامها ؛ اهمال المفهوم الاول للقوانين الزراعية واعتمادها لمنفعة قدامى الجنود وحدهم تقريباً ؛ المزايدة المحتومة في التدابير المتراخية لمصلحة طبقة كادحة اخذت تعي قوتها المتزايدة وتستخدمها ؛ اثراء لا نظير له تحققه دولة توسع فتوحاتها توسيعاً مطرداً . وقد انطلق بعضهم من العدد ٣٢٠ ٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ واكدوا ان الانفاق السنوي قد بلغ آنذاك اكثر من ١٩ مليون فرنك (١٩١٤) : ولكن هذا الحساب يستند الى معطيات غير اكيدة وغير ثابتة . ومهما يكن من الامر فالعبء ثقيل . لذلك ، وعلى الرغم من ان الدولة تستطيع حينذاك تحمله دون ان تفرض ضريبة مباشرة على المواطنين ، يجدر بنا ان نلاحظ ان قبولها بهذا العبء يرتبط ، شأنه شأن امور اخرى كثيرة ، بمفهوم الحق ، الذي يعطيه النصر ، في سلب اموال المغلوب : فلماذا يجعل الاستئثار بمنافعه وقفاً على اقلية من الحكام ورجال الاعمال ؟

وهكذا فان المواطن الطفيلي ، سواء دان بغذائه للاغنياء الذين يجمعون او يستعيدون ثرواتهم على حساب الولايات ، ام للخزانة العامة التي تموّلها الغنائم والغرامات ، يعيش عيّلَ العالم الذي فتحته روما او لا تزال مستمرة في فتحه : ان المجتمع الروماني تحوّل الى نقابة نهابين .

اسباب التسلية

تفسر كثرة المشاهد اعتبارات ووقائع مماثلة . اجل لقد سيطرت على نشوء مواكب النصر والالعاب ومبارزات المسايفين اعتقادات دينية موروثة عن الاتروسك . ولكن معناها التقوي ما لبث ان زال . ولما كان جمهور المواطنين عاطلاً عن العمل ،

توّجب توفير اسباب التسلية له . فصرف الذهن في ابتكار الألاهي وفي مقاومة مله بتنوعها وجدتها . ولما استحال جعل مواكب النصر أكثر تكرراً ، وزع استعراضها على عدة ايام وأدخلت عليها مشاهد تذكر بأهم حوادث الحملة ؛ ثم أحدثت ألعاب جديدة ، استثنائية في البداية ، ما لبثت ان أصبحت عادية . وكثيراً ما حدث ، بحجة الاخطاء الشكلية ، ان أعيدت الالعاب يوماً ثانياً وثالثاً وأكثر احياناً ، حتى سبعة ايام ، منذ السنة ٢٠٥ . ثم تنوع وتحسن برنامجها : فأضيفت ، الى الاحتفالات والتمارين الرياضية ومباريات العدو ، الرقصات الايمائية والتمثيليات المسرحية وعرض الحيوانات الغريبة وقتيلها ، واخيراً مبارزات المسايفين التي لم يعد الافراد ينظمونها تقدمة لأرواح موتاهم بل غدت ، منذ اواخر القرن الثاني ، جزءاً لا يتجزأ من الالعاب المنظمة باسم الدولة . وباستطاعتنا ان نسرد ، في الكلام عن هذا التطور ، تفاصيل لا تحصى . ولنكتف بثلاثة ارقام : أمر سيلا بقتل ١٠٠ اسد ، فرفع بومبيوس هذا العدد الى ٣٢٥ وقيصر الى ٤٠٠ .

وسيتولى الاباطرة ما هو افضل من ذلك . ولكن النظام الجمهوري ، بصدد « الخبز » و « الالعاب » ، لا يلتزم موقفاً وجلاً : فقد حصل الشعب على قسطه من الملذات التي تسمح بها الثروة ، وخشي المسؤولون عن تأمينها له ، منذ ذاك الواقت ، ان يملّ نمطها الواحد .

الافساد والعنف

وجدت هذه المشاهد والالعاب والمبارزات المزيد مما يتممها في تلك التي وفرتها السياسة . ومرد ذلك الى ان الجمهورية لم تقص عنها عامة المواطنين كما ستفعل الملكية بل برهنت عن سخائها النادر في تقديم المشاهد التي لا يمكن حتى للمتطلبين ان يحكموا على الحياة والتنوع فيها بأنها غير كافيين. ومما زاد في جاذبها ان ليس ما يمنع احقر الناس من ان يلعب فيها دوراً نشيطاً ، لا بل ان لعب هذا الدور ، الذي هو الامتياز الملكي بالذات ، كان ، نظرياً ، حقّ وواجب كل مواطن . ولكن شتان بين النظرية والواقع . فمن الجلي ان ابسط المستحيلات المادية لا يسمح لـ ٣٢٠ ٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ ، حتى ولو كانوا قاطنين روما ، ان يجتمعوا كلهم ، أي ان يمارسوا كلهم معاً نشاطاً سياسياً ، لا مستمراً فحسب ، بل مقتصراً على العمل الحاسم الذي هو الاقتراع . وقد غدا هذا النشاط بالضرورة وقفاً على شبه محترفين ينضم اليهم احياناً فضوليون تستهويهم احدى المناقشات الكبرى . فهل يمكن ان ينتمي هؤلاء الاختصاصيون لغير العاطلين عن العمل ، او الهواة ، او المأجورين للمتنافسين ؟

افساد : ولكن لا نستعملن الكلمة بدون تروّ . فان الرابطة بين الحامي والمحمي التي تفرض مساعدة السيد في الحياة العامة تعني ارتزاقاً في نظر المعاصرين . ولكن الرومان ، انطلاقاً من المفهوم الاول ، يرون غير هذا الرأي : لا استعطاء ولا شراء ، بل حماية وعرفان جميل توقيري . وكذلك يبقى السخاء الخاص الذي يتناول الشعب بكليته ، في نظرهم ، بعيداً جداً عن التصميم على الافساد الجماعي : انه انعام مجرّد عن الغايات ، وان القوانين التي حاولت ، في القرن الثاني ،

الحدّ منه ، يجب ان تفسّر كقوانين تقيد النفقات المفرطة . ولكن هذه الفوارق لا تنافي الحقيقة العارية : فعدد الزبن العظيم والمآدب والالعاب تؤمن النجاح السياسي . اضف الى ذلك ان قوانين اخرى حاولت تنظيم « المنافسة » ، أي الدعاوة الانتخابية ، وعاقبت خصوصاً شراء الأصوات الفردية الذي مورس على اتساع رقعة متفاوتين . ففي السنة ١١٠ صاح جوغورتا قائلاً : « مدينة معروضة للبيع وناضجة للزوال اذا وجدت من يشتريها » . وهو انما يفكر بالحكام خصوصاً ؛ ولكن هؤلاء مرغمون ، في الدرجة الاولى ، على شراء وظيفتهم التي تتيح لهم ، بعد ذلك ، ان يبيعوا انفسهم . ظروف جديدة للكسب تسنح للفقراء ، وضربات موجهة الى سير النظام الطبيعي .

وهنالك ما هو اسوأ من هذا الافساد المتستر او السفيه : العنف الذي يدفع اليه الاخلاص المهووس لرجل او لقضية والضمير المسلكي الذي يتميز به الطاغوت المأجور لتنفيذ كافة المهام . وفي ارض الطبقة الكادحة المدنية تجمع عصابات المرجفين، من المواطنين وغيرهم الذين تنفلت صيحاتهم وفظاظاتهم انفلاتاً يزداد تكرره ، مقاطعة مناقشات الجمعيات والاقتراعات ومفضية احياناً الى الحريق والجريمة . ومنذ فاز طيباريوس غراكوس بمنصب المحامي عن حقوق الشعب ، اضطرت جميع الاحزاب لان تلجأ الى مساندتهم ، لان العنف بدا وكأنه الحماية الوحيدة من العنف . فاستقرت الفوضى استقراراً دائماً: وهي مدينة بنجاحاتها المستمرة لوجود جمهور عاطل عن العمل تتولى عناصره المتطرفة ، في خدمة مستخدميها ، إرغام الباقين على الصمت حين لا تجرهم وراءها جراً .

البؤس والدين

الاحتداد امر يسير حين نحاول تهذيب الاخلاق. وفي ما يعنينا، لا يمنع الوقوف موقف الحذر من هذه المحاولات من النزول عندها قسرا ، حتى اذا اخذنا بعين الاعتبار تغرّض الذين يلقنوننا الدروس والذين تفسر ثروتهم الاحتقار الملموس عند اكثر الناس انسانية . ولكن هذا الانحطاط مصدره البؤس . فمنذ القرن الثاني ، اتخذ التعبير « عامة الشعب المدنية » معنى ازدرائياً : فانتسي آنذاك ، بشكل نهائي ، المعنى القديم لـ « عامة الشعب » وتحدد معناها المزدوج ، المادي والادبي ، الذي يرافقها حتى اليوم . وان شيشرون ، الذي يمالق الجماهير حين يتوجه اليها، ليعبر في ظروف اخرى عن اشمئزازه : « قذر المدينة وثمالتها ». لم تخل اية مدينة كبيرة منها ولا تخلو منها اية مدينة كبيرة حتى اليوم . بيد ان المخيف في روما، في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، هو اهميتها العددية . ولذلك يمكننا القول بهذه الاستعارات على ان لا ننسى آلام هذه العامة ولامسؤوليات اولئك الذين شاهدوا قيامها لامبالين ، فتركوها تنمو وتتألم ، مستخدمين عيوبها وسجسها ومحركين حماستها وغضباتها .

اجل ليست اسباب التسلية ما اعوزها . وان غذاءها شبه مؤمن تقريباً شرط ان يبقى عدد افراد العائلة محدوداً . وهي تجمع بصعوبة بعض النقود بقيامها بعمل غير مضمون يزيد في ندرته

وجود العبيد . ولكن ما تجمعه لا يكفي لسد النفقات ، ولسنا نفكر هنـــا بتلك التي تنجم عن البطالة نفسهـــا . فما هو السبيل بنوع خاص لتأمين السكن في مدينة يزداد سكانهـــا بسرعة مطردة ؟

ان تشييد المساكن الكبيرة الجماعية حيث يتكدس الفقراء محرومين من كل رفاهية ، تجارة راودت مخيلة ذوي رؤوس الاموال وانتظروا منها ارباحاً هامة . فالاجور مرتفعـــة والتشريع قاس على المستأجر . واذا كان الاختلاط يفسد الاخلاق ، فان الاستدانـــة والقلق الذي تثيره يفعلان فعل خمير الثورة . وان مسألة الديون ، التي تجعل منها ادنى ازمة معضلة حادة لا تواجه المبذرين الاغنياء فحسب . فهي اعظم اقضاضاً بالنسبة للفقراء الذين يجـد المهيّجون الفوضويون بينهم عدداً كافياً مـن البائسين لتعريض النظام السياسي والاجتماعي للخطر . وقد سبق ورأينا ان مؤامرة كاتيلينا قـد صادفت في الزمن احد هذه الاندفاعات المحمومة . وكانت بداية الحرب الاهلية الكبرى الثانية منطلقاً لاندفاع آخر ، لا سيما وان بعض انصار قيصر قـــد اعتقدوا ان الساعة قد حانت ، بانتصاره ، لتحقيق كل بجبوحة ورخاء . وقد انتهز بعض المحامين عن حقوق الشعب غياب الدكتاتور واقترحوا ، في السنة ٤٨ ، وفي السنة ٤٧ ايضاً ، تأجيـل دفع الأجور وإلغاء الديون ، ولم يعد النظام الى نصابه دون اشتباكات دامية . وحين عـاد قيصر ، توفق ، بعد صعوبات شتى ، الى سن قانون تقدمي يقضي بحسم الفوائد وتأجيل الدفـــع سنة واحدة والغاء سجن المدينين .

ان هذه الاضطرابات ، بتكررها وخطورتها ، تمّ عن شيء آخر غير السجس الخاص بهذه الطبقة : بؤس مادي وأدبي يجعل من ضحاياه أدوات في ايدي عنف أعمى .

الخاتمـــة

ان هذا العرض أبعد من أن يستطيع تبيان كافة مفارقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وايطاليا . ولعل عيبه الاول انه لم يعط استقلالاً كافياً لطبقة لن تهب ريحها إلا في العهد الامبراطوري مع انها اخذت تبرز ، ناشطة جداً ، في العهد الجمهوري : اعني بها « بورجوازية » البلديات الايطالية ، والطبقـــة الوسطى في المدن الصغرى . وهي في الحقيقة تكاد لا تتميز عن الفرسان الذين انضم اليهم أكثر اعضائها حظاً والذين لا يتميز جمهورهم ، بدوره ، عن الملتزمين العموميين . واتصفت بالنشاط فدانت هي ايضاً لاستثمار الفتوحات برؤوس اموالها الاولى ، حتى ولو وظفتها بعد ذلك في الاراضي التي راقبت تحسينها. غير ان دورها السياسي ، اذا كان دورها الاقتصادي هاماً ، قد بقي في العهـد الجمهوري ولا أثر له تقريباً : ولكن عناصر بشرية نشأت فيها لن يفوت النظام الامبراطوري الاستفادة منها للادارة ، وحتى لتولي شؤون الدولة في عهد فسباسيانوس .

لذلك فان الكلام عنها كطبقة مستقلة تقابل الطبقات الاخرى لن يبدل شيئاً في الاستنتاج العام. فقد هدف كل هـذا العرض الى تبيـان مدى العمق الذي بلغه الفتح الروماني في قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الشطر الاعظم من ايطاليا . فهو قد حقق ، على دفعات قوية تلتها تقنية منظمة ارهقت المناطق التي اخضعت لها ، انتقال كنوز ، الى شبه الجزيرة ، كدستها اقدم وأغنى حضارات شواطىء المتوسط . وبفضل هذه الكنوز ، احدث في ايطاليا اقتصاداً دقيقاً وركيكاً بفعل تركيبه . فأتاح للبعض جمـع ثروات طائلة وهوّر البعض الآخر بمنافسة المصنوعات المستوردة والعبيد الغرباء ، واوجد بالتـالي تفاوتاً اجتماعياً بيّناً وأثار معاضل عجز النظام ابداً في معالجتها عن اعتماد حلول غير الحيل واستخدام القوة ، او عن اكتشاف هـذه الحلول نفسها .

ليست اهمية التطور الاقتصادي والاجتماعي ، بغيـة تفسير « موت » الجمهورية الرومانية ، دون اهميـة التطور السياسي نفسه ، وقـد وجه التطورين على السواء مدى الفتوحات وتوسعُها الدائم .

الفصل الرابع

هلينة روما : الديانة

لقد برز ايضاً تطور عظيم في حياة الرومان الادبية ومعتقداتهم وطقوسهم الدينية ومثلهم الجمالية . ومع انه يشبه ، باتساعه ، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، فانه ينطوي على بعض المميزات الخاصة .

مميزات التطور الثقافي

من هذه المميزات انه اقل استقلالاً حيال التأثيرات الخارجية . ويمكننا في الواقع تحديد هذا التطور بكلمة واحدة : « هلينة ». وبديهي ان هذا التحديد موجز ، شأن كل تحديد . لذلك سنحاول في هذا البحث ان نضيف اليه ما ينقصه بالضبط . ولكنه على العموم تحديد مقبول : فان الاغريقي الذي ينزل روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، لا يستطيع ، دون اطلاع مسبق ، ادراك المعاضل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما هو لا يستغرب المشاغل الدينية والفنية والفكرية . ولا يعني ذلك ان قرب ومَثَل الحضارة اليونانية ، الحاسمين هنا ، لم يتركا اثراً هناك . فهناك ايضاً قد فعلا فعلهما وقد سبق وألمحنا الى ذلك ، كأثر مَثَل الفاسيلفس (الملك) على القادة الظافرين . ولكن هذا الاثر ، المحدود دائماً ، لم يلعب سوى دور ثانوي ، ضائعاً بين العوامل الرومانية بالذات . وليس بالتالي ما يستحق المقارنة بما سيظهر الآن .

لما كان هذا التطور قد استطاع ان يجبل ، بصورة ابعد عمقاً ، النفوس والعقول وفاقاً لنماذج اجنبية ، فهذا يعني بالضرورة انه كان مطلق الحرية في العمل . ولا عجب في ذلك . فالدولة والمجتمع قد ابديا مقاومة افضل لان الانظمة والمصالح قد ساندتهما ، بينما كانت الحياة الادبية أكثر مطاوعة . وقد اسهم التطور الذي تناولها في خلخلة التنظيم القديم لانه بدّل مثال الانسان الذي توافق معه هذا التنظيم . ولكن نتائجه كانت ابطأ ظهوراً : فهو لم يصطحب اية ثورة فورية في نظام الطبقات المختلفة وعلائقها المتبادلة . لا بل لم يتضح قط للمعاصرين ان الملكية الامبراطورية قد استمدت اليه لتجعل من نفسها وريثة الفوضى الجمهورية . فعلى نقيض ذلك ، حاول النظام الجديد ، اقله في اول عهده ، مقاومة بعض الشخصيات التي اعتبرها المحافظون

على التقليد افساداً وشراً . فعلى الصعيد الديني تظاهرت النزعة التي يمثلها اوغوسطس بالمحافظة على ما هو قديم . ولا فرق هنـــا اذا كانت صادقة وفعالة ام لا : ولكن الشيء الاكيد ان التطور الثقـــافي لم يرتبط ارتباطاً مباشراً ، بنسبة غيره ، بالتيار الذي افضى بروما الى نظام جديد .

ومن هذه المميزات ايضاً — وهو يرافق الاول — ان التطور ، على هذا الصعيد ، كان اسرع حصولاً . اجل لقد ازدادت سرعته وغدا اثره اعظم انتشاراً وعمقـــاً في القرنين الاخيرين من العهد الجمهوري . ولكنه اخذ بالبروز قبل ذلك بزمن بعيد . ويرد تقدمه النسبي الى انه اقـــل ارتباطاً بالظروف المادية ، ولاسيما الثروة . كان لهذه الاخيرة اثرها : وان نكران ذلك ، بصدد الفن مثلاً ، معناه المغالاة ، حتى الولودية ، في الخوف من التدنيس المادي . ولكن الارتباط ، على صعيد الديانة والادب ، لا يظهر بهذا الوضوح الملزم . لذلك فقـــد اكتفى الرومان ، دون ان ينتظروا الفتوحات الكبرى واستثمارهـــا ، بروابط ابسط وايسر اقامـــة . منـــذ عهد باكر ، لعب الاتروسك دور الوسطاء مع الحضارة اليونانية ، بالاضافـــة الى اثرهم المبـــاشر العظيم بفضل سيطرتهم . ناهيـــك عن ان الحضارة اليونانيـــة لم تكن محصوره في الشرق المتوسطي . فمنذ القرن الثامن استوطن بعض الاغريق ايطاليا الجنوبية . وكانوا على صلة بكافة مناطق شبه الجزيرة . واقتبست عنهم روما الشيء الكثير حتى قبل ان تخضعهم . ومنذ ان بدأت تتدخل في اليونان البلقانية ، في اوائل القرن الثاني ، تكلّم كثيرون من قادتها وساستها اللغة اليونانية بسهولة : منذ ذاك الوقت ، جبلت النخبة الاجتماعيـــة بثقافة اجنبية كان من الطبيعي ، بعد تسربها ، ان يزداد انتشارها . لا بل كان من شأن تفوق الحضارة اليونانية وجاذبها ونفوذها ، لو استطـــاع العالم الهليني المحافظة على استقلاله ، ان يضمن هلينة روما ، ولو ببعض البطء . ولكن فتحه قد زاد، بفضل الصلات المتعددة ونقل الرجال ورؤوس الاموال من الشرق اليوناني الى ايطاليا ، في سرعة تطور ترقى اصوله ونتائجه الاولى الى عهود قديمة جداً .

اجل « ان اليونان المحتلة قد احتلت قاهرها الفظ » . ولكن هوراتيوس ، حين أكّد ذلك، قـد فكّر بأدب معين ، وحتى بعَروض معين . لذلك فلنحذرن الامثال السائرة : اذ ان هذا الجار الفظ لم ينتظر احتلال اليونان كي يلتمس دروسها .

١ ـ الديانة والحياة الدينية التقليديتان

تبدو سرعة هذا التطور بوضوح خاص في الحياة الدينية .

الديانة الاولى

لم يأل الاختصاصيون جهداً في البحث عن الديانة الرومانية الأولى وادراكها. وقد ساعدت مجهودهم هذا ، ولا تزال ، ظروف مؤاتية : معلومات علمـاء الاجتماع وأصول الشعوب عن الذهنية الاولى ، تقدم الألسنية ، اعتماد أساليب المقارنـــة ، اخيراً ،

وخصوصاً ، — اذ ان هذه الظروف ليست وقفاً على الدروس عن الديانة الرومانية — الوفرة ، اقله النسبية ، في المستندات الموجودة المدينة ، هي ايضاً ، للتعمير الاستثنائي الذي عرفته اسماء وطقوس يرقع التحليل ، بجلاء متفاوت، الستار عما يحييها من معتقدات. ولذلك فقد ادى هذا المجهود الى نتائج اكثر اقناعاً ، بوضوحها ، من تلك التي ادت اليها حتى اليوم دراسة الديانة اليونانية مثلاً .

ليس في اي مكان غير روما ما يفرض بمزيد من الاقتناع ، المقارنة المؤثرة بين النزعات الدينية في شعوب العصور القديمة ونزعات شعوب اليوم المتخلفة. فعلى غرار هؤلاء ألّه الرومان الاولون القوة الحيوية والطاقة الخفية والقوة التي تتحكم بالعمل وتحققه ، سواء كان هذا العمل بشرياً ام مستقلاً عن الانسان : والعامل ، يد او شيء جامد ، وهو غير منظور احياناً ، لا قدرة له بدون الارادة التي تستخدمه لعملها . فهذه الارادة اذن ، او ارادة غيرها تناهضها ، هي التي يتوجب على الانسان ان يحاول استمالتها حتى تنفعه اذا كانت متعطفة وحتى يبطل اذاها اذا كانت مضرة .

ان هذا الاعتقاد الذي استمر حياً ، يفسر ميلا طبيعياً دفع الرومان الى ان يكرموا ، كآلهة او عفاريت تدير هذه الأعمال ، اقل عمل ، لا بل اقل مرحلة من مراحله . وقد اعترف الرومان بعدد لا يحصى من « القوى » او الارادات وخصوها بحركة احترام او تقدمة او صلاة قصيرة : فالطفل يرضع بفعل قوة من هذه القوى ويشرب ويأكل بفعل غيرها ، وتقوم « قوة » بالحراثة الاولى ، وغيرها بالحراثة الثانية والاسلاف وقلب الارض ونزع الأعشاب ، وتكون « قوة » عقدَ جذع الحنطة ، واخرى تعطي الحبة غلافها ، الخ . ان هذا الاستعداد العقلي ، الذي لم يتلاش في يوم من الأيام ، قد ادى بسرعة الى تأليه مجردات هي خاصيات رمزية لبعض الآلهة ، ثم افضى ظهور الفلسفة الى اعتماد هذه الطريقة اعتماداً متزايداً : فكان لكونكورديا (اتفاق) معبدها منذ السنة ٣٦٧ ، ولليبرتاس « *Libertas* » (الحرية) ايضاً في السنة ٢٣٨ ، ولهونوس وفيرتوس (الشرف والفضيلة) في السنة ٢٣٣ ، الخ .

لم تمنع هذه النزعة المزدوجة الى تعميم ما هو الهي وتجزئته الى ما لا نهاية له من اعتبار بعض « القوى » اعظم شأناً من غيرها . ومن البديهي ان تسلسل مراتبها قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعية وباختلاف الزمان . ويثير اكتشاف اسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة ، لأن تأثيرات كثيرة ، تتفق تارة وتتناقض اخرى ، قد فعلت فعلها منذ عهد قديم جداً ، ولذلك فان الترتيب ، كما تجدر محاولته ، يرافقه بالضرورة ارتياب وتحكم .

ولا يعقل ان لا يكون الرومان قد ورثوا شيئاً عن اقدم شعوب ايطاليا الاصلية التي انتمت هي نفسها الى مجموع « المتوسطيين » . ولعله من الجائز ان ننسب الى هذا المنشأ عبادات تتجه في الواقع ، من وراء آلهة مختلفة الاسماء ، الى مبدأ الخصب ، ويبدو ترجيح المنشأ نفسه ممكناً

لبعض مظاهر عبادة الاموات لا سيما وان ارتباطها بالعبادات الزراعيـــة ، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء ، امر طبيعي جداً من جهة ثانية .

ويتمثل اسهام الهندواوروبيين بالآلهة السماويين : فان اسم جوبتير ، إله النور والزوبعة ، يحتوي على اسم زفس الذي اضيفت اليه في حالة رفع الاسم ، تسمية « *Pater* » (الاب) . ومما لا ريب فيه ايضاً ان عبادات المنزل (فيستا) والعائلة تتصل بالمنشأ نفسه .

واخيراً فعلت بعض التأثيرات الاتروسكية واليونانية فعلا تنظيمياً بغية تقريب « القوى » المتجاورة واعطاء بعض الآلهة شخصية مميزة . ولكن الاتفاق ابعد من ان يتحقق آنذاك حول طاقتها وتحديدها وموعد مفاعيلها .

تعدد الآلهـــة

اضف الى ذلك ، ان هـــذه التأثيرات الأخيرة ، مهما بلغ من قوتها ، لم تحد قط ، بشكل محسوس ، من تكاثر مطرد لامتناه في عـــدد الآلهة الذين اعترف بهم الرومان . فقد عرفوا أكثر من جوبتير واحـــد خص كل منهم بنعت عبادي يميزه ، وبمعبد او مذبح ايضاً . فقد حمل هذا الاسم آلهة سياسيون : إله المدينة الاعظم الذي اقام له الملوك الاتروسك معبداً على الكابيتول ، وإله اتحاد المدن اللاتينية ، لاتيـــار (*Latiar*) او لاتيال (*Latial*) الذي كان له معبده على الجبل الالبي ؛ وآلهة سماويون ، فكان هنالـــك جوبتير لوسيتيوس (*Lucétius* اللامع) واليسيوس (*Elicius* المطر) وفولغور (*Fulgur* الزوبعة) وسومانوس (*Summanus* البرق الليلي) وتونانس (*Tonans* الرعد) ؛ وآلهة تستجلب السعد ، فكان هنالك جوبتير فيريتريوس (*Férétrius*) ، إله الشجرة التي تعلّق عليها غنائم العدو ، ولابيس (*Lapis*) ، الإله الذي تمثله صوانة ، ويغلب انه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ ؛ وآلهـــة عسكريون ، فكان هنالك جوبتير بروبونياتور (*Propugnator* المدافع المحارب) ، وستاتور (*Stator* « موقف » الهاربين) وديبولسور (*Dépulsor* « طارد » الأعداء) وفيكتور (*Victor* المنتصر) . وباستطاعتنا ان نمضي في التعداد بعيداً وان نقوم بتعداد مماثل لكثير من الآلهة .

يبدو على بعض الوضوح ، من ثم ، ان مجهود التنظيم ، الذي لم يصبح قط قياسياً ، والذي لم يتجل إلا بالمماثلة ، قد حقق نتائج محدودة جداً . ويمكن القول نفسه عن مجهود التوضيح . فان الرومان بفعل اعتقادهم بانتشار المبدأ الإلهي في الطبيعة انتشاراً شاملاً ، يبدون وكأنهم قـــد رضوا ابداً عن مفاهيم متردّدة ومبهمة . فهم لم يهتموا إلا بقناعة قصوى مدهشة ، لإعطاء شخصية لآلهتهم وحتى للتثبت مـــن هوياتهم . فلا التشبيه ، ولا الميثولوجيا ، على ما تجيزه من فوارق ، شكلا بالنسبة لهم حاجات او قناعات حقيقيـــة ، حتى ولو تعلموا مبادئها على يد الاجانب . ودرجوا على ان يدخلوا على صلواتهم صيغاً متحذرة كهذه « ذكراً كنت ام أنثى » او « أياً كان الاسم الذي تؤثر اطلاقه عليك » . ومنعهم الاعتقاد نفسه من ابداء أي اعتراض مبدئي

على استقبال إله جديد : فقد كفاهم في السنة ٣٩٠ ان ينبىء صوت مجهول احد المواطنين ، ليلاً، بوصول الغاليين قريباً ، حتى يشيدوا ، دونما اعتبار آخر، مذبحاً لأيوس لوكوانس او لوكوتيوس (*Aius Loquens ou Locutius*) (المتكلّم) . وهكذا ايضاً يمكن تفسير احدى خصائصهم الدينية البارزة ، أعني بها قابليتهم ، التي لا نظير لها في الشعوب القديمة ، حيال الآلهة الاجانب . فقد كانوا مستعدين لكل تقارب ، معتمدين دون صعوبة ما أسموه « بالتأويل الروماني » . أي اكتشاف إله يعرفونه ويعبدونه ، في الإله الاجنبي ، ولم يكونوا من جهة ثانية اقل استعداداً لتبني الإله الجديد باسمه الاجنبي دون ان يبحثوا في زونهم عن إله مماثل او إله يدخل هذا الإله الجديد في الزون (البانتيون) .

الانسان امام الآلهة

مهما يكن من ارتفاع عدد هذه القوى الخفية المبهمة ، وربما بسبب عددها الذي حال دون رغبة المؤمن في ارضائها جميعها ، فقد حدث للمؤمن ان خشيها : ولكنه كان من المستحيل عليه ان يحبها . وليس المقصود هنا بالشعور العاطفي : فكل شيء قد اقتصر على طقوس حدّدت تفاصيلها ووجب الخضوع لها .

لا ريب في ان هذه الطقوس قد ارتدت في الاصل طابعاً سحرياً مكرهاً للقوة التي تقام الطقوس من اجلها . ولم يزل هذا الطابع عنها كلياً : فان استعمال بعض الادوات واللجوء الاضطراري الى لباس التنكر يرتديه المشتركون في الطقوس ، وحتى الشخص الرئيسي ، كالقائد الظافر في موكب النصر، لا تفسير آخر لها؛ واستمرت بعض الصلوات ايضاً بمثابة رقى حقيقية، ولم يتجاسروا في سواها ، إلا بكلّ عناية واهتمام ، على تعديل أية كلمة من كلماتها . إلا ان هذه الطقوس ، حين نستطيع فهمها ، ترتبط في مجملها بالاصول القانونية التي تتفرع ، مع ما يرافقها من ايماءات وصيغ ، عن السحر ايضاً . واننا لنجد احياناً مطابقة مدهشة بين ايماءات وصيغ متماثلة ، نقلت نقلاً احياناً من طقوس الى اخرى ، في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة . « فالتقوى » تعتبر قبل كل شيء آخر كعدالة نحو الآلهة ، أي كتنفيذ ، غاية في الامانة والدقة ، لكل ما هو متوجب لهم وما نعلم علم اليقين بأنه يرضيهم ، حتى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم . اضف الى ذلك ، في اغلب الاحيان ، ان الصلاة والذبيحة يرافقها نذر ليس سوى صفقة مؤخرة الاجل ، يعبر المؤمن فيه ، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أي تهرب ممكن ، عما يلتمسه وعما يتعهد بتنفيذه حين يستجاب ملتمسه .

اجل ليس هذا المفهوم خاصاً بالديانة الرومانية : فالانسان ، في ضعفه يستخدم كل وسيلة لديه تجعله يأمن شرّ القوى الفائقة الطبيعة . ولكنه لا يبرز، في اية ديانة اخرى ، بمثل هذا الوضوح وهذا الشمول .

الديانة العائلية

كان هنالك تعبّد خاص . ومع ان الدولة لم تفرض اية عقيدة ، فقد كان لها الحق في مراقبته . ولكنها لم تستخدم هذا الحق الا عرضاً ، وفي عهد متأخر ، بغية منع العبادات التي اعتبرتها خطرة . ولذلك فقد ازتدى هذا التعبد اشكالاً مختلفة جداً . ونحن

نشاهده خصوصاً في مظاهر العبادة المنزلية لا لاننا نعرفها معرفة جيدة عند الرومان فحسب ، بل لانها عندهم اعظم شأناً منها عند اي شعب آخر .

فهل كانت علّة ام معلولاً يا ترى ؟ وهل هي قاعدة تنظيم العـــائلة الرومانية الوطيد ام انعكاس وجودهـــا السابق على الصعيد الديني ؟ لقد اخذ فوستيل دي كولانج ، بقوة منطقه المعروفة ، بالتفسير الاول جاعلاً من العائلة بعد ذلك الخلية الاولى التي كونت المدينة بانضمامهـا الى خلايا اخرى. ولكن اكثرية الناقدين الساحقة تميل منذ زمن بعيد نسبياً ، كما يبدو ، الى التفسير الثاني . ومهما يكن من الأمر ، فان هذه العبـــادة قد جاشت بحيوية ومقاومة اقوى منهما في العبادات الرسمية .

استلزمت عبادة فيستا العائلية ، التي لم يكن مذبحها سوى الموقد المنزلي الذي لا تنطفىء ناره ، والذي تلقى فيه القرابين في ساعات معينة ، فيندلع منه اللهب الراقص ، ويقدم له رب العائلة قرينته حال زواجه منها وطفله حال ولادته . واستلزمت ايضاً عبادة « جن » العـــائلة الذي غالباً مـــا تمثله حية مرسومة على الحائط قرب الموقد ، وهو روح الجدود والقوة الحيوية للذرية المتجسدة في رب العائلة ، بينما كان لربة العائلة إلهة حامية هي « جونون » . ولم تهمل العبـــادة شتى « قوى » المنزل وحيّاته ، ابتداء من آلهة البيت (*Pénates*) الذين اشتق اسمهم من كلمة *Penus* (المؤن) . وقد دخل عليها آلهة من الخارج لا سيما الـ « لار » (*Lares*) آلهة الاملاك : فمنذ اواخر القرن الثالث يتأيد وجود « لار » عائلي.

وما كانت الديانة المنزلية لتنسى الموتى . ولكن عبادتهم على ما يبدو ، كانت الجزء الاضعف فيها ، ما لم يشتركوا ، كجدود ادنين ، في عبادة جن العائلة ورئيسهـــا . ولكنهم اعتبروا مستمرين في حياة غامضة ، دون ان يشعر ذووهم بحاجة الى توضيح اقامتهم تحت الارض . وكان من المهم ارضاؤهم بالقرابين ، وقد عنى اسم « مان *Mânes* » ، الذي ظهر في عهد متأخر نسبياً ، الموتى الذين امكن ارضاؤهم . امـــا امثال الموتى الآخرين ، الـ «لارف» (*Larves*) والـ « ليمور » ، فقد جعلهم يعودون الى الأرض ، قلقين ومؤذين : حاولوا من ثم طردهم من المنزل باحتفالات خـــاصة . وهنالك اكثر من سبب يجعلنا نشك في ان كل ذلك كان رومانياً حقاً في الأصل . وانما تجدر الاشارة الى ان الذعر الذي استحوذ على الاتروسك لم يتسرب قط الى هذه العبادة .

ديانة فلاحين

لما كانت حياة الروماني القديم العادية حياة فلاح ، فقد رافق العبادة المنزليـــة بالضرورة عبادة لمنفعة الأملاك ، معدّة للمحافظة على المواشي والبذور والحصائد وازدهارها . ولدينا ، بهذا الصدد ، في بحث « كاتون » في فن الزراعة ، تفاصيل عديدة دقيقة عن الاعياد الواجب الاحتفال بها والذبائح الواجب تقديمها والصلوات الواجب تأديتهـــا وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمه حول الأملاك . فكل عمل من اعمال الحياة الزراعية يجب ان يرافقه

عمل ديني يلتمس نجاحه او يحاول تهدئة غضب اله المكان ، قبل القطاف ، تقدمة نبيذ وامعاء خنزيرة لـ « سيريس » ، ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلوى يضاف الى كل منهما لـ « جانوس» وجوبتير ؛ وقبل تخفيف شجر الغابة او الشروع باحياء الارض ، تضحية خنزير ؛ الخ . وكان يتولى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد ، كرب العائلة للعبادة العائلية . ولكنه بذلك كان يسهم في الأزدهار الجماعي : فقد اقتنع « كاتون » بانه مواطن فاضل حين يقوم بواجبه كملاّك فاضل .

ومن جهة ثانية تسربت المشاغل الزراعية تسرباً عميقاً الى الديانة الرسمية ايضاً . اجل لم تأت أبعد الروزنامات قدماً ، التي نسب تحديدها الى الملك « نوما » (*Numa*) ، على ذكر جوبتير الكابيتولي ؛ ولكن العدد الاكبر من الاعياد التي لحظتها هذه الروزنامة وغيرها قد مثلت ، بمواعيدها ، وطقوسها حين يمكننا تفسيرها ، وبالآلهة موضوع العبادة ، أعياداً من الحياة الريفية . وقد اشترك عدد كبير من عظام الآلهة في هذه الحياة منذ القديم او اشتركوا فيها بمداورة ما . فكان هنالك « جوبتير ليبر » (*Jupiter Liber*) إله الكرمة وأعياد للنبيذ الجديد . وقد كان « نبتون » (*Neptune*) إله الينابيع قبل ان يغدو إله البحر . واشتق اسم « ساتورن » *Saturne* من كلمة *Sata* التي تعني « الاراضي المزروعة » . وان « مارس » *Mars* نفسه ، الذي اعتبر في النهاية إلهاً للجيش والحرب ، قد قام في البداية بدور ليس دون هذا الدور شأناً كحام للعمل الزراعي ومحاصيله : فهو من أقيمت لأجله احتفالات « التطهير » بتطواف دائري تعقبه ذبيحة كبرى ، وصفها « كاتون » كما وصف الصلاة ايضاً ، مورداً كلماتها الكثيرة التدقيق «ان تمنع وتطرد وتبعد الامراض المنظورة وغير المنظورة والجدب والتخريب والكوارث وآفات الفلك ... » .

الديانة الرومانية القديمة هي قبل كل شيء آخر ديانة ارباب العائلات والفلاحين : ويجب ان نفكر هنا بما كانت عليه ، زمناً مديداً ، حياة الطبقة الحاكمة اقتصادياً واجتماعياً في روما حيث اتاح التملك قيام واستمرار العائلة المجموعة حول رئيسها. وليس عرضاً انها كانت في الوقت نفسه ديانة حقوقيين : فليس من التحكم ان نكتشف فيها ، مع اعترافنا بأن هذه المشاعر قد بلغت في هذا الشعب درجة خاصة من القوّة ، الحرص على المصالح وتفهم الواقع ، وكلاهما محتومان ، او أقله أكثر طبيعية من الظواهر الصوفية الحارة ، في ملاكين ورؤوساء كتل عائلية يتحملون اعباء المسؤولية . فكان من المتوجب ان تتبدل أمور كثيرة كي تتبدل نفس البشر وتتبدل معها ديانتهم ؛ ولكن هذه الديانة ، بفعل القوة التي يوليها التقليد ، قد قاومت التبدل مقاومة عنيفة .

الكهنوت

تبنت المدينة بين الآلهة الكثيرين عدداً كبيراً ، ولم تكف عن تبني آلهة جدد ، دون ان ترضى ، في أي حال ، بالتخلي عن إله قديم واحد . وسيتباهى اوغوسطس بأنه أعاد بناء ٨٢ معبداً في روما : فاذا ما فكرنا بالمعابد السليمة والمذابح البسيطة جاز لنا ان

نتخيل عدداً مرتفعاً جداً . وقد اقتضى لهذه العبادات الرسمية من يؤمنها ويحتفل بأعيادها باسم الدولة . فعاد نصيب كبير من هذا العبء ، كما في المدن اليونانية ، الى القضاة الذين هم الوارثون الرئيسيون للسلطات الدينية التي تمتعت بها الملكية القديمة ، لا سيما حق استطلاع الحظ وتقديم الذبيحة باسم الجمهور والتعهد بالنذور التي تقيده . ولكن بينما كان لدى الاغريق كهنة دائمون قليلون ، كان لروما عدد كبير منهم .

ان كلمة « *Sacerdoce* » تنطوي على واقع من الصعب جداً تحديده بسبب فقدان كل صفة مشتركة حقيقية . لا بل ان التحديد السلبي نفسه يجب ان يفسح مكاناً للاستثناءات . واذا ما نحن أهملنا اقل هذه الاستثناءات خطورة ، يكفي ان نقول ان أعضاءه لم يؤلفوا اكليروسا او هيئة كهنوتية . فجماعاتهم قد بقيت مستقلة بعضها عن البعض . وكانوا جميعهم مكرسين ترافقهم صفتهم الكهنوتية حتى الموت . ومع ذلك فقد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العادية دون ايقاف نشاطهم السياسي الذي قد يرغمهم ، مثلاً ، على التغيب عن روما وتولي قيادة احد الجيوش . إلا ان وظائفهم لم تكن شاغلة ، ولم تجعل منهم وسطاء بين المدينة والآلهة . فقد قاموا خصوصاً بدور القيّمين والمستشارين الدينيين لدى السلطات العامة . بيد انه يجدر القول مرة ثانية هنا ان أياً من هذه التأكيدات لا ينطبق تماماً على كافة الأعضاء . فقد مثل الكهنوت الروماني سلسلة من المؤسسات المتلاصقة التي ظهرت في تواريخ مختلفة واستجابت لرغبات مختلفة بمصادرها ومبادئها وتنظيمها . لا بل لا يجوز القول ان الكهنوت بجميع فئاته قد خضع لتطور عام : فكان للتطور سرعته الخاصة في كل من الفئات التي تناولها ، وقد تملّص بعضها منه .

فبالنظر الى مثل هذا التنوع في الفئات الكهنوتية والى عددها الكبير ، نرانا عاجزين عن استعراضها استعراضاً كاملاً ، لذلك نكتفي ببعض الأمثلة .

كان هنالك كهنوت فردي . حافظ « ملك الذبائح » (*Rex Sacrorum*) على الصلاحيات الدينية التي لم تنتقل الى القضاة . وأشرف على الذبائح والولائم المقدسة والاعياد : وليس هذا سوى دور تمثيل . وكان هنالك ١٥ كاهناً خاصاً افرد كل منهم لإله معين ؛ وقد خدم ثلاثة منهم إلهاً عظيماً ، جوبتير ، ومارس ، وكويرينوس (*Quirinus*) . واحيط ديناليس (*Dialis*) ، كاهن جوبتير ، بأمجاد عظيمة ، ولكنه اخضع ، كما أخضعت امرأته « الكاهنة » لمراسم عبادية مازمة جداً ولألف تقييد ، كلها قديمة المنشأ وغالباً ما يخيم الغموض على تفسيرها . فيجب ألا يلمس الجلباب ويشذّب الكرمة ويستهلك شراباً او طحيناً مختمراً ويرتدي ملابس كتانية او غيرها مما يقتضي عقدة او حلقة ، ويلمس او يمتطي الحصان ويرى سلاحاً او يشاهد ميتاً ، الخ . وتفسر شدة هذه المحرمات ، دون جهد ، كيف ان هذه الوظيفة ، في اواخر العهد الجمهوري ، قد بقيت شاغرة طيلة ثلاثة ارباع القرن بسبب عدم تقدم مرشح اليها بين الأشراف الذين استبقيت لهم .

ومع ان الفيستاليات (*Vestales*) قـــد انتظمن في هيئة ، فانهن قمن ايضاً بدور بشيط ككاهنات . كن ثلاثاً في البدء ثم غدون ستاً ترئسهن احداهن ، « الفستالية العظمى » ، وكانت مهمتهن الرئيسية الانتباه الى العناية بالنار المقدسة ، رمز حياة المدينة ، التي يجب ان تشتعل باستمرار في معبد « فيستا » . وكن ينتخبن صغيرات من العائلات الكبرى ، ويقمن في المعبد الذي يجب ألا يلجه أي رجل . وكن يؤدين ، من جهة ثانية ، نذر عفاف تعرضهن مخالفته لأن تدفن حيّات في حال ان عقوبة السوط تكفي لمن تكلف منهن العناية بالنار فتتركها تخبو . ولكنهن ، في سن الثلاثين يعدن الى الحياة العامة ويستطعن الزواج .

اما اعضاء بعض الاخويات ، كاللوبيرك (*Luperques*) والساليين (*Saliens*) والأرفال (*Arvales*) ، الخ ، فقد احتفلوا باعياد طقوسها قديمة جداً تستلزم التطوافات وسباقـــات العـــدو والرقصات والأغاني . ولكن احتفالاتهم ، في الحقيقة ، ترتبط بالعبادة العادية . وعلى نقيض ذلك فان هيئة العشرين قاضياً وكاهناً تكتفي بإيفاد بعض اعضائها للقيام بالطقوس التي لا حرب « عادلة وتقوية » بدونها ، اي معلنة وفاقاً لقواعد القانون الانساني والديني ، ولا معاهدة مقبولة شرعاً : فلاعلان الحرب يلقي احدهم بقوة نبلة لا رأس لها في ارض العدو بينما يحمل آخر اعشاباً مقدسة مجموعة من الكابيتول يسلمه اياها احد القضاة .

ولا تتعدى الطقوس الظرفية ايضاً تلك التي يقوم بها ، بفعل دعوة إلهية ، الاحبار المجموعون في هيئة من ثلاثة او خمسة اعضاء اولاً ، ثم من تسعة ابتداء من القرن الثالث ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، يرئسهم « الحبر الأعظم » (*Poutifex maximus*) . انطلق هؤلاء من وظـــائف وضيعة واعترف التاريخ القديم كله بان اسمهم عنى « صانعي الجسور » ، ويبدو هـــذا المعنى الاشتقاقي واجباً على الرغم من تردد بعض المعاصرين . فقد اسندت اليهم ابداً مهمة العناية بجسر « سوبيسيوس » ، الوحيد والمهم جداً ، الذي وصل ضفتي نهر التيبر ، ويغلب انه بني من الخشب فقط دون اية قطعـــة معدنية . ولكن تطورا مجهلا جعلهم يسمون الى مصف حراس التقليد ، ومفسري الأنظمة ، وقضاة القانون الديني ومنظمي ومراقبي التعبد الرسمي . وبصورة خاصة راقب رئيسهم الفيستاليات ؛ وكانت مراسيم الهيئة حول الاخطـــاء الشكلية ملزمـــة للقضاة وللكهنة الآخرين . فمن الطبيعي اذن ان يتمسك اوغوسطس وجميع خلفائه بحمل لقب « الحبر الأعظم » . واذا مـــا اقصرنا الكلام على العهد الجمهوري ، نرى ان تقدم سلطة الاحبـــار على حيـــاة روما الدينية قد ادخل النظام اليها ، ولكنه اسهم ايضاً في إحاطتها بالخطر والتمسك المفرط بالشكليات .

وكانت مهمة هيئة العرافين المؤلفـــة من ثلاثة ، ثم من تسعة ، ثم من خمسة عشر ، تطبيق تقاليد العلم التفاؤلي ، لا سيما بموجب مراقبة طيران الطيور داخل بقعة محددة في الفلك وبواسطة القضيب المنحني الذي امسى الشارة الرمزية للعرافين : ومن حيث انهم يعرفون مـــا اذا كانت

استعدادات الالهـــة موافقة ام غير موافقة ، فان آراءهم يجب ان تتقدم كافة افعـــال الحياة العامة .

وانيطت العرافة ، عن طريق استقراء امعـاء الضحايا ، ولا سيما كبدها ، باختصاصيين اطلق عليهم اسم *Haruspices* ينتمون باغلبيتهم الى اتروريا بسبب ما اشتهر عن الاتروسك من اتقان هذا العلم والاحتفاظ به .

احل التقليد في عهد الملوك الاتروسك إتباع مجموعة من الأوامر الطقسية وهتافـات الغيب صادرة عن عرافة كوم *Cumes* في كمبانيا ، اي في منطقة يونانية . وبغية المحافظة على « كتب العرافة » هذه ، واستشارتها — حين تبرز الحاجة الى ذلك لمجلس الشيوخ — وتفسيرها ، نظمت هيئة من عضوين ، ثم من عشرة في القرن الرابع ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، كان يشار اليهم بهذا التعبير « القائمون بالذبائح » مـــع ذكر عددهم . فهم يكلفون ترؤس الاحتفـالات التي يستصدورن امراً بها بعد استشارة الكتب . وان سلطة هذه الكتب اعطت الهيئـة دوراً فعالاً جداً في ادخال العبادات والطقوس الهلينية الى روما .

كهنوت الدولة

لا نذهبن الى ابعد من ذلك في استعراض الكهنوت الروماني . فهو كاف لتبيان عدد الفئات الكهنوتية وتنوعها والأهمية والمرتبة اللتين احتلها بعضهم في تنظيم المدينة . كانت مثل هذه المؤسسات شبه مجهولة في المدن اليونانية . ولكن معرفتنا بها في روما ، على ما رأينا ، لا يستنتج منها انها ابتكار روماني : فان لاكثر من كهنوت مما استعرضنا ، كما نرجح ، اصوله في العادات الاتروسكية او الايطالية . اما ما يلفت النظر ، وما قد يكون رومانياً حقاً ، فهو ، على الرغم من تعدد هذه الفئات ، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بان تلعبه في حياتها بالذات : ويفسر هذان الواقعان احدهما الآخر ؛ على كل حال ، فقد كان لهـا خلال زمن طويل ، يدوم بالنسبة لاكثرها حتى آخر العهد الجمهوري ، قوة جـــاذب حقيقية ، ومن الطبيعي جداً ان يعلق قيصر ، الذي لم يكن بعد متقدماً في مراتب الأمجاد ، اهميـــة استثنائية لنجاح ترشيحه للقب « الحبر الأعظم » ، فلم يكن ذلك ، بالنسبة له مجرد لقب ، بل وظيفة من الدرجة الاولى . ولكن شيبيون الافريقي كان « سالياً » الشيء الذي اوجب عليـــه ، في زمن العيد ، ان يبقى شهراً واحداً دون تنقل من مكان الى آخر ، وهو واجب مزعج حقاً لقائد من القواد . وقد تباهى شيشرون بلقب العرافة . وفي العهد الذهبي للنظام المجلسي ، سعى النبـــلاء وراء وظائف الكهنوت ، وقد بلغ منهم انهم جمعوا منها اكثر من واحـدة حين استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وكانت هذه المهام ، شأن مناصب القضاء ، « امجاداً » تذكر بعنـاية في الكتابات المدفنية التأبينية ، التي تنوه بمراحل تألب الراحلين منهم في المناصب ؛ وكان اغلبها في البداية ، شأن مناصب القضاء ايضاً ، وقفاً على الأشراف ، وقد احرزت عامة الشعب نصراً ، في السنة ٣٠٠ ، حين فتحت لها ابواب الهيئات برفع عدد اعضائها الى تسعة ، على ان ينتمي خمسة منهم

الى هذه الطبقة . وهدفت الحركة الشعبية بالاضافة الى ذلك ، اقله فيما يتعلق بالهيئة الحبرية ، الى تغيير طريقة التعيين بواسطة الهيئة نفسهـــا : فقد فرضت ، في اواخر القرن الثاني ، ان يتولى المواطنون انتخاب سبعة عشر قبيلة ، بالقرعة ، بين القبـائل الخمس والثلاثين الراهنة ، واذا ما الغى سيلا هذا الاصلاح ، فان اعادته في السنة ٦٣ قد جاءت في الوقت المناسب لتسمح بانتخاب قيصر حبراً اعظم .

كل ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الديني العميق الذي ترتديه المدينة الجمهورية . فالحيـاة السياسية والحياة الدينية فيها قـد ألفتا كلا واحداً يقوم به الرجال انفسهم . حمل رب العائلة مسؤولية العبادة المنزلية . وتوجب كذلك على المسؤول الروماني ان يتحلى في آن واحد بخبرة دينية وخبرة سياسية ، كما توجب على عالم القانوني ان يتخطى القانون المدني والقانون العام ويشمل القانون المقدس . وقد لفت شيشرون النظر الى ذلك بحق : « ان الذين اكتسبوا المزيد من المجد في حسن ادارة شؤون الدولة مكلفون الاهتمام بالديانة ، كما ان اوسع مفسري الديانة علماً مكلفون المحافظة على الدولة » . وقد عم الاعتقاد بأن روما مدينة بعظمتها لتعطف الآلهة الذي قابله ، بكل نزاهة ، ارضاء لمتطلباتهم بلغ دائماً الحد المطلوب ، دون ان يتخطاه .

العبادة العامة

المثل الأعلى هو التوازن ، او ما دعي « بالصلح مع الآلهة » .

فاذا ما حدث ان اختل ، بفعل خطيئة بشرية لم يعلم بهـــا احد ، فان الآلهة يظهرون استياءهم الحق « بالمعجزات » . ولم تنطو هذه الاخيرة ، بحسب مفهومها الاول الذي لم يتبدل قبل اواخر الألف الثالث ، على أية دلالة طبيعية على المستقبل؛ وليس من مفسر يستطيع ان يقرأ فيها مستقبلاً لا تنبىء به . فلا معجزة مفيدة اذن . بل كلها ، الصاعقة ، والفيضان ، ومطر الحجارة ، وولادة المسخ الغريب الخلقة ، وعرق او حركة التمثال في المعبد ، وصعود الثور الى السطح ، الخ . تشير ، بانقطاع مجرى الامور الطبيعي ، الى الغضب الإلهي . فيقدم بها احد القضاة تقريراً الى مجلس الشيوخ الذي يتخذ المقررات او يشك في علمه فيلجأ الى الاحبار او الهيئة الموكول اليها امر استشارة كتب العرافة او مستطلعي امعاء الضحايا ، وينتظر اجوبتهم للتداول فيها . وهكذا تصدر الاوامر باقامة احتفالات التطهير والتكفير التي تشكل « علاج » المعجزات وتعيد الصلح .

كان من الافضل ، في سبيل تجنب فترات تأزم غـــير مقض ، اذ ان كل شيء يتم وفاقاً لاجراءات حازمة مدهشة ، بل مستكره ، الانتباه بعناية ودون ملل الى تأدية كافة واجبـــات الجماعة نحو الآلهة . فانصرفت السلطات إلى ذلـك . وكان لكل معبد عام نظامه الذي حدده العرف للقدماء و « قانون » حقيقي للجدد ، وفصل الاحبار في صعوبات التفسير . فكانت النتيجة حلقوساً لا يحصى لها عدّ ، تخلو منذ زمن بعيد عن فهمها ، كما ان العلماء المعاصرين ابعد من ان يفهموها فهماً افضل .

فهنالك في الدرجة الاولى ، الذبيحة ، أي تقدمة الغذاء للإله . ليس من ريب في ان الذبيحة البشرية قد اعتمدت في العصور القديمة . وقد عادت الى الظهور بين الحين والآخر . ففي السنة ٢١٦ ، تحت تأثير القلق الذي أثارته كارثة « كانا » وبعد استشارة كتب العرافة ، دفن زوجان، يوناني وغالي ، لا يزالان على قيد الحياة ، واذا ما أكد « تيت ليف » *Tite - Live* ، بهذا الصدد، ان الطقس « ليس رومانياً على الاطلاق »فقد يقصد بملاحظته احدى طرائق الاحتفال فقط. بيد ان هذه الضحايا البشرية ليست دموية . فقد اكتفي على العموم ، بظواهر خداعة كالاشخاص الخشبية السبعة والعشرين التي ألقي بها في نهر التيبر أثناء عيد الارجيه (*Argées*). ولم يذبح سوى الحيوانات المختارة . فلكل إله تفضيلاته ولكل احتفال تقاليده فيما يعود للنوع والجنس والسن — حيوان لا يزال رضيعاً ، او نبتت اسنانه العليا والسفلى، او بلغ أشدّه — واللون وانعطاف الجزة : ففي احتفال التطهير العام الذي جرى في ظروف مختلفة ، فرض « مارس » ذبيحة قوامها خنزير ونعجة وثور . ولم تقدم الدولة ، شأن الافراد ، على الاستعاضة عن الحيوانات بأشكال من الخبز والشمع . ولكن ضحاياها ترافقها قرابين أخرى ايضاً ، زهور وسنابل وطحين وحلويات وحليب وعسل ونبيذ الخ . وليس لكل ذلك من قيمة ، على كل حال ، إلا اذا لم يبد الإله استعدادات مضادة باشارات غير موافقة ، كتلك التي يستطيع الاختصاصيون إبصارها جلياً بفحص امعاء الضحايا . ومن المهم جداً ، فوق كل ذلك ، ألا يرتكب أي خطأ او اهمال في القيام ببعض الايماءات واستخدام بعض الصيغ في الصلوات والنذور : بينما يتوجب على الحاضرين المحافظة على صمت مطلق . ومن شأن اقل اخلال بأحد هذه الشروط ان يجر الى بطلان العمل وايجاب إعادته .

وهنالك الأعياد ، الثابتة او المتنقلة ، التي يعود أمر تحديدها للأحبار . فقد ورد ذكر خمسة واربعين عيداً في الروزنامات الكتابية التي وصلت الينا ، ولا تحجم الدولة عن التدخل ، مكتفية بنشاط الأفراد ، الا في عدد ضئيل منها . وقد تنوعت الطقوس بصدد الاعياد بنوع خاص مضاعفة المراسم المختلفة المنشأ والدقيقة التفسير . فلنأخذ مثلاً ، بين امثلة اخرى كثيرة ليست دونه غنى بالالغاز والاحاجي ، طقوس « حصان تشرين الأول » في عيد « الاكوبريا » التي يحتفل بها في الخامس عشر من هذا الشهر : اكراماً لمارس . يقلد جيد الحصان الأيمن في العربة محرزة السبق عقداً من خبز ، يذبح كاهن مارس الخاص الحيوان الذي يتنازع رأسه سكان محلتين بغية اثباته في هذا البناء او ذاك ، يحمل العداؤون الذنب الى منزل الحبر الأعظم حيث يرفعونه فوق الموقد حتى يتساقط دمه عليه . تحتفظ الفيستاليات بما تبقى من الدم مع رماد الحملان المستخرجة من بقرات مذبوحة في عيد آخر ، مع العلم ان هذا الرماد نفسه يستخدم لتطهير المواشي في عيد ثالث . ولن يعجب احد من التردد والاقرار بالجهل حين يتوجب تفسير طقوس على مثل هذا التعقيد .

الفت الألعاب المشهد الرئيسي ، والوحيد احياناً ، في الأعياد التي تجري هي فيها . ويثير

كل منها مسائل شائكة جداً في اغلب الأحيان : تاريخ ظهورها كالعاب غير اعتيـــادية ، ثم تقريرها كالعاب عـــادية ؛ طقوسها الأولى وتطورها ، منشأ ومغزى العناصر القديمة في هذه الطقوس . فبدون ان نتعرض لهـذه المشادات يكفينا اقصار الكلام على مـا هو اكثر بساطة وأقرب الى المعقول . ان التقليد ، الذي يُجل في العهد الملكي تأسيس ابعد الألعاب قدمـــاً ، « الالعاب الرومانية » ، اكراماً لجوبتير الكابيتولي ، التي بقيت ابداً « الألعاب العظيمة » وحتى « العظمى » ، والتي شيد من اجلها « الملعب المستدير الاعظم » ، نصيباً كبيراً جداً من الصحة . فقد استلزمت منذ البدء تطوافا ورقصات ايمائية واستعراضات وحركات جماعية وتمـارين . ثم اضيفت الى برنامجها السباقات ، والمصارعـــات ، وفي النصف الاول من القرن الرابـع ، عرض ممثلين عرفوا باسم « هيستريون » ، وهو اسم اتروسكي ، و « لوديون » ؛ ومنذ عهد باكر نسبياً ، ووفاقاً لعادة تمشت عليها شعوب ايطالية اخرى ، تركت حدة ذهن الممثلين الشعبيين المرتجلين لنفسها العنان ، بهذه المناسبة ، في انواع التمثيليات المضحكة . فاعدّ بذلك ادخال التمثيليات المسرحية على الطراز اليوناني ، في عهد لاحق . منذ القرن الثالث فعل التأثير الهليني فعله دون وسطاء : فله يعود الفضل في الملاكمات والجوقات المنظمة والمهـازل والمآسي . وعلى الرغم من ذلك استمرت بعض العادات الاتروسكية سائرة . ومن هذه العادات ، على الرغم من اقتباس اسمها عن اليونانية ، عادة « البامبا » او التطواف الذي تفتتح به الألعاب الرومانيـــة حتى في اواخر العهد الجمهوري والذي يقفو اثر موكب الظافر حتى في لباس القاضي الذي يرئسه . ومنها ايضاً عادة مدعوة لانتشار غريب ، هي معارك المسايفين التي ضمت الى الألعـــاب العامة في اواخر الألف الثاني دون ان تدخل على برنامجها بالذات .

فقدت الالعاب اخيراً طابعها الديني : وكانت قد فقدته في اليونان ايضاً الى حدّ بعيد . فنظر اليها الحاضرون نظرتهم الى مجرد مشاهد . وان في الهوى الذي أثارته لدى الجماهير تعليلاً لمضاعفاتها السياسية التي سبقت الاشارة اليها ولتطويل مدة كل منها ولتزايدها ، فقد استغرقت الألعاب الرومانية خمسة عشر يوماً في عهـد قيصر . وظهرت « الالعاب الشعبية » بعدها بأمد قصير ، وأضيفت اليها بعد ذلـك إكراماً لابولون وسيريس والام الكبرى (*Grande Mère*) وفلورا (*Flora*) . وفي اواخر العهد الجمهووي غطّت الالعاب العادية خمسة وستين يوماً مـن ايام السنة . وأكملتها ألعاب ظرفية بعضها عام « ينذَر » خلال الحروب والبعض الآخر خاص كالألعاب « المأتمية » اكراماً للموتى . اما الالعاب « القرنية » المعدّة لافتتاح قرن جديد — ولكن طرائق الحساب عديدة — فلم تبلغ بعـــد الشأن والروعة اللذين سيعطيها اياهما اوغسطس .

تلك هي الطقوس العبادية الرئيسية في الجمهورية الرومانية . اجل لقد كانت هنالك طقوس كثيرة غيرها : ولكن هذا البحث ، تجنباً للاطالة ، لا يستطيع ان يتناول بالوصف ، على الرغم

من طرافتها ، لا « الالتماسات » التي يزور المؤمنون أثناءها المعابد طيلة ايام عدة بغية استنزال انعامات الآلهة على المدينة او بغية تأدية الشكر لهم ؛ ولا « المآدب » المقدمة لإله أو عدة آلهة التي يشترك فيها القضاة والكهنة والمواطنون العاديون ايضاً ؛ ولا المآدب المقدمة للآلهة الغرباء حيث توضع رسوم الآلهة وفاقاً للجنس ، على غرار الآدميين ، على أسرّة او على كراس ؛ ولا « الوسادات » التي توزع هذه الرسوم عليها بغية السماح لها بمشاهدة الالعاب او السماح للمؤمنين بتأدية واجب الاحترام لها ؛ الخ .

العبادة والدولة

مهما يكن من الامر ، فقد قيل ما فيه الكفاف للاعتراف بأن المشاغل الدينية تعتبر بين المشاغل الرئيسية في الدولة الرومانية . وهي لا تنفصل عن المشاغل الاخرى ، بـل ترافقها ابداً وتشترك معها اشتراكاً حميماً. وهي نتيجة وجود روما، والواجب الاول الذي يفرضه هذا الوجود عليها ، وشرط مستقبلها .

اجل ليست الفكرة بجديدة في التاريخ القديم . لا بـل نحن نرجح ، اذا ما اقتصرنا على الحالات المميزة ، ان مصر وبلاد ما بين النهرين قد خصتا الديانة بنصيب مماثل في حياة الدولة . ولكن يجب ألا نقارن إلا ما يمكن مقارنته ، سواء في شكل الدولة او ذهنية الرجال الذين تضمهم : ففي كل مكان وزمان ، حرصت الملكية على الابقاء على الانظمة الدينية التي اعتبرتها بمثابـــة سور من اعز اسوارها ، وليس تضامن العرش والمذبح ابتكاراً من ابتكارات القرن التاسع عشر الذي اشتهر بمناداته بالحرية المدنية والدينية وبمعاداته للاكليروس . فلا يبرز تميز روما من ثم إلا بمقارنتها بالمدن اليونانية بنوع خاص . الفرق بينهما ، في الحقيقة ، فرق في الدرجة لا في الجوهر : فان ما يستمر هنا خاضعاً لتسوية معتدلة ، ينمو هناك نمواً عظيماً جداً . ولكن هناك أكثر من ذلـك ، اعني الفرق في التفكير ، اذ لا نصادف إلا في روما ذاك الحرص القانوني وذاك التمسك بالشكليات اللذين سيطرا على تفسير الفرائض العبادية ولم يحد عنها المسؤولون . كان الروماني رجل واجب ، ولعله كان بنتيجة ذلك رجل حق ايضاً .

٢ ـ المستحدثات

الروابط الدينية بالحضارة اليونانية

كان الاغريقي اوسع مرونة وأعمق تمييزاً . وهو لم يدن بهذا العمق وهـــذا الاتساع الى سرعة تطوره فقط . وليس من ريب في ان لنجابته الخاصة نصيباً كبيراً في ذلك ، اذ ان سرعة هذا التطور ليست نتيجة المصادفة . فهو قد كان شاعراً وفناناً قادراً على تخيل الاساطير والاشكال العارمة بالسحر والظرف والحياة. وكان عالماً وفيلسوفاً يميل بالسليقة الى ان يذهب الى ابعد حد بتفكيره حول الكون والطبيعة ونفسه بالذات . وقـــد تجاذبته نزعة عقلية تقوده الى أعظم الانكارات جسارة ونزعة صوفية غذاها ابداً اتصاله القديم المستمر بالشرق ونفخ فيها التعايش الذي اوجده فتح الاسكندر قوة

عجيبة نادرة . اما روما ، فقد استطاعت ، بفضل ثروتها ، ان تضفي على الاحتفال بعباداتها فخفخة ما كان العالم اليوناني ليستطيع مضاهاتها . ولكن العالم اليوناني قد برهن عن تفوق واضح في كل ما لم يكن ثروة مادية، أي في الفكر والعاطفة الدينية والذوق في مظاهره الخارجية .

كان من الممكن ان يبدي الرومان ، بفعل تعلقهم بتقاليد ملزمة محددة ، مقاومتهم لكل جديد . ولكننا رأينا ، في ما سبق بيانه ، ان مفهومهم الواسع للالهيات لم يكن ليقبل بهذا التعصب . ولعلهم شعروا ايضاً ، شأن آدميين كثيرين ، بحاجة الى شيء آخر هو القناعة العاطفية والفكرية والجمالية التي لم توفرها لهم عباداتهم الخاصة . ولم يبلغ بهم الامر ، في عهد الجمهورية، ان يسمحوا بتفتح التقوى الفردية في صوفية حارة متحررة من شتى ضروب الضغط. فقد حرصت الدولة على الاستمرار في التنظيم والرقابة . بيد انها قبلت بعبادات وطقوس غريبة دون ان تعي انهـا بذلك تفتح ، للمستقبل ، ابواب المدينة لحصان طروادة .

والدليل على انها قامت بذلك دون جزع وتردد ان الاقتباسات الاولى قد حصلت في عهد مبكر جداً . لم يتم ذلك باتصال مباشر باليونان نفسها ، او اقله لا يمكننا إثبات ذلك على ذمة روايات يشك في صحتها ، بـل عن طريق الاتروسك والشعوب الايطالية حيث تركت الحضارة اليونانية اثراً عميقاً لا سيما في الاتروسك . اضف الى ذلك ان هذا الاثر قد صادف ، في روما ، ارضاً خصبة متمثلة بالجماعات الهندو اوروبية المنشأ التي كانت لها بعض النزعات الدينية . واقتصرت السيطرة على كمبانيا في القرن الرابع وعلى كافة أنحاء ايطاليا الجنوبية في القرن الثالث على تسهيل استمرار تسرب – تعود بدايته الى ما قبل التاريخ – سابق للوقت الذي كان باستطاعة روما فيه ، حين وعت قوتها ، ان تحاول ، بدافع الكبرياء ، – ولكنها لم تحاول – مقاومة تقليد المغلوبين .

الاقتباسات القديمة

يجدر بنا ان نعطي فكرة عن اهمية الاقتباسات القديمة ، دون حاجـة منا الى تعدادها وخصوصاً الى توقيتها والبحث عن طرق حصولها .

منذ العهد القديم جاء روما من اليونان آلهة يغرينا ان ننعتهم « بالجاهزين » سواء حافظوا على اسمائهم اليونانية ام لا : ابولون الذي كان موضوع اكرام عظيم لا سيما في مدينة فيس القريبة ؛ سيريس، التي ليست سوى ديميتير (*Demeter*) ؛ مركور الذي هو هرميس *Hermès* نفسه ؛ كاستور وبولوكس ، الخ . ومنذ هذا العهد ايضاً مثلت ببعض الآلهة اليونانيين آلهـة ايطاليين تبنتهم او « قوى» جسدتها ، ولم يحصل هذا التمثيل قط دون تنقيح منقول عن النماذج اليونانية : فاقتربت ديانا من ارتيميس، وجونون من هيرا الخ . فغدا من ثم الزون الروماني ، في جوهره ، تابعاً من توابع الزون اليوناني ، ان لم يكن نسخة وفق الأصل عنه . امـا الميثولوجيا فقد اقتصرت ، منذ ان وجد ادب روماني ، على نقل او تقليد الميثولوجيا اليونانية .

وتبنت روما بعض الطقوس ايضاً . وقد سبقت الاشارة الى مـدى التحويل الذي طرأ على

برنامج الألعاب القومية الكبرى ، بحيث استلزم هـــذا البرنامج تمثيليات مسرحية على الطريقة اليونانية . واذا صعب علينا تحديد زمن دخول المآدب المقدمة للآلهة الغرباء ، مع ما تتطلبه من أسرة ووسادات ، فليس من ريب في انهـــا مقتبسة عن الطقوس اليونانية . ويبرز الاثر نفسه بوضوح في ممارسة العرافة . فلم تتح الطرائق الرومانية سوى معرفة مـــا اذا كانت استعدادات الآلهة مؤاتية ام غير مؤاتية . ولذلك فقد لجأوا ، بغية التزود بالنصائح ، الى هاتفي الغيب من الاغريق . وقد جاء في التقليد ان آخر الملوك تاركوينوس قد اوفد من يطرح الاسئلة على ابولون في « دلفي » . وكي لا يقطعوا هذه المسافـة الطويلة اكتفوا على العموم باستشارة الكتب التي ابتاعها الملك نفسه من « العرافة » (*Sibylle*)، نبية ابولون في كوم . فلا عجب من ثم اذا ما ادت هذه الاستشارة اكثر من مرة الى تبني عبادات وطقوس يونانية . ولنأخذ مثلاً عبادة الاله الشافي اسكلابيوس : ففي اوائل القرن الثالث ، وبمناسبة انتشار احد الاوبئة ، ارسلوا الى بلاد ارغوس من يطلب اسكلابيوس في ابيذوروس (*Epidaure*) مركز عبادته الرئيسية ؛ نزلت الحية التي تمثـل « قوته » الى اليابسة في الجزيرة التيبيرية حيث شيّد معبده ؛ تولى الإله المعالجة فيه ، كما في المعابد اليونانية ، بأن أرسل الى المرضى الذين يقضون ليلهم فيه ، أحلامـاً فسّرها الكهنة واعطوا « الوصفات » اللازمة . ثم أخذت « المعجزات » تدريجياً ايضاً ، كما حدث في اليونان ، تعتبر دلالات على المستقبل ، لا دلالات غير مؤاتية فحسب .

ازمة الحرب البونيقية الثانية

قد تجيز بعض العلائم الاعتقاد بأن الجماهير قد برهنت ، في هذه الحقبـــة القديمة ، انها اكثر قابلية لمثل هذه الأشياء الجديدة من مجموع المسؤولين . بيد ان هؤلاء ايضاً قد اضطروا الى تغيير موقفهم . وقد اضطروا الى ذلك خلال الحرب البونيقية الثانية بنوع خاص، حين هزت مداهمة الخطر الضمير الديني في روما كلها حتى أعماقه . وقد وصف كافة المؤرخين القدماء الدّوار الجنوني الذي استحوذ في بعض الفترات على النفوس . فكتب تيت ـ ليف ، بصدد السنة ٢١٣ : « خيّل ان تغييراً مفاجئاً أصاب البشر أو الآلهة . فـلم تلغ الطقوس الرومانية خفية فحسب ، أي بين جدران المنازل ، بل ان جمهوراً من النساء لم يتقيدن ، حق في الخارج ، في الفوروم وعلى الكابيتول ، في ما يعود للذبائح والصلوات الى الآلهة ، بالعرف الموروث عن الجدود » . اتخذ المجلس بعض التدابير آنذاك ، فأمر بتسليم كافة « مجموعـــات النبوءات وكتب الصلوات والدراسات حول الذبائح » ، وحظر « تقديم الذبيحة في مكان عام أو مكرس ، وفاقـاً لطقس جديد أو غريب » . لكن هذه الابتغاءات التأثيرية قد بلغت من القوة حداً لم يعد من مورد للحاكمين إلا محاولة تقنينهـا : ولم يهتموا ، كما سنرى ذلك ، لاتلاف الأوراق التي سلّمت اليهم دون ان يطلعوا عليها .

يبدو كوينتوس فابيوس مكسيموس (*Quintus Fabius Maximus*) ، في مرحلة الهزائم الأولى الكبرى ، وكأنه تجسيد التقوى الطقسية . وفي الحقيقة نمت هذه التقوى ، بفعـل حثّه

المنظم ، مع ما تستلزمه من شدّة : فبسبب إخلال بنذر العفاف دفنت احدى الفيستاليات حيّة وانتحرت أخرى ، بينما مات شريكها في المخالفة تحت ضربات العصي التي كالها الحبر الأعظم بنفسه . ولكن هـــذا التدقيق لم ينحصر في العبادات الرومانية بالذات ، لا بل ان صلات « المتمهل » (*Temporisateur*) ببلاد الاتروسك ، قد فتحت أمامه آفاقاً أوسع . فهو الذي كرّس « الجبـل ايريكس (*Eryx*) » ، الذي كان فيما مضى حصن السيطرة البونيقية في غربي صقليا ، معبداً لفينوس الايريكسية (*Vénus Erycie*) : فكانت هذه الإلهـــة المتعددة العنصريات ، وهي صقليّة متأثرة الى حـد بعيد بعشتروت الفينيقية وافروديت اليونانية ، الإلهة الاولى التي قام معبدها داخل النطاق الروماني . وفي السنة ٢١٦ أوفد أحد اعضاء طائفتهـا ، المؤرخ فابيوس بيكتور ، لاستشارة هاتف الغيب في دلفي ، ولم يهمل شيء ممـــا أوصى به هذا الهاتف . وقد حظيت عبادة أبولون العراف آنذاك بنفوذ كبير . فأرسلت بانتظـام الى دلفي قرابين من أصل الغنائم المجموعة من العدو . وفي السنة ٢١٢ ، وبموجب نبوءة اكتشفت في مجموعة صودرت في السنة السابقة وأيدتها استشارة كتب العرافة ، نظمت إكراماً للإله ألعاب أثارت الحرارة الشعبية وما لبثت ان اصبحت سنوية : ومنذ البداية اعتمد الطقس اليوناني بشكل صريح بصدد الذبيحة التي تفتتحها .

كانت اليونان متصلة بآسيا الصغرى ، ومنذ زمن بعيد كان لأسطورة « اينه » (*Enée*) التي تربط روما بطروادة ، صفة رسمية . وهكذا ، في اواخر الحرب ، وبغيـة استمالة طالع جديد اليهـا ، قبيلى حملة شيبيون على افريقيا ، قرّ الرأي على الاقتبـاس عن عالم غير العالم اليوناني . وقد جاءت فكرة هـــذا المسعى عن كتب العرافة ايضاً التي اضاف اليها هاتف الغيب في دلفي نصائح عملية . وفي السنة ٢١٤ اخيراً ، عاد وفد يرئسه شيخ تولى فيما سبق منصب القنصلية مرتين ، من فريجيا (*Phrygie*) حيث حصل في «بسينونتي» (*Pessinonte*) ، بفضل الملك البرغاموسي أطال الاول (*Attale 1er*) ، على « الحجر الاسود » ، رمز « سيبيل » (*Cybèle*) «ام الآلهة» و « الام الكبرى في جبال ايدا (*Ida*) » . وعملاً بمـــا فرضه هاتف الغيب ، حمل « افضل » رجل في المدينة ، كان ب . كورنيليوس شيبيون نازيكا في نظر المجلس ، الإلهة من المركب الى شاطىء « اوستيا » (*Ostie*) ، ورافقتها « السيدات الرومانيات الاولى » الى روما حيث احتلت مكانها ، هي ايضاً ، داخل « النطاق » الروماني . لا سبيل لنكران أهمية هذا الحدث الشهير الخالد الذكر . فللمرة الاولى تنظم في روما عبادة إلهة شرقيـــة ؛ وقام بخدمة معبدها خصيان فريجيون كانوا يتجولون في الشوارع ، ايام الاعياد ، بأزيائهم وينشدون ترانيمهم القومية الغريبة . يجدر بنا ألا نهمل الاحتياطات المتخذة : منع عبادة اتيس (*Attis*) الشبيهة الى حدّ كبير بسيبيل ، وتحظير الانتماء الى الاكليروس على المواطنين . ولكن الخطوة الاولى قد خُطيت وستعقبها خطوات .

القمع

بيد ان هذه الخطوات لم تحدث فوراً . فغداة الحرب بدا النظام المجلسي اقل حفاوة : ولعله خشي انتقال العدوى الى الجيوش المرسلة الى اليونان وآسيا . ومـــا لبثت مقاومة العادات الجديدة، التي تجسّدت في كاتون وتأيدت في فترة تسلمه منصب قاضي الاحصاء ، ان ظهرت على الصعيد الديني .

تظهر لنا هذه المقاومة خصوصاً في فضيحة الرقصات الخلاعيـة ، حيث لا يزال الغموض محيطاً بنقاط عديدة ، على الرغم من جهود المؤرخين ، ولكن ملابساتها الكثيرة لا تحول دون بقائها قضية دينية في الدرجة الاولى . في السنة ١٨٦ اكتشفت الشرطة الحكومية او تظاهرت بأنها اكتشفت ان أسرار ديونيسوس قـــد حققت تقدماً مخيفاً في جميع انحاء ايطاليا الجنوبية وتسربت الى روما نفسها ، وان فجوراً مخزياً يقترف فيها مقترناً بالاختلاسات والتقتيل ، وان المؤامرات تعد فيها لا لإفساد الاخلاق فقط بل لإفساد المجتمع والدولة ايضاً . فتوالت آنذاك ، طيلة خمس سنوات، التحقيقات والوشايات والاستجوابات وأعمـــال التعذيب . وانفجرت اعمال القمع : دخل السجون سبعة آلاف شخص تقريباً وقضي على عدد كبير بالاعدام بعد محاكمة سريعة .

ليست قضية الكتب البيثاغورية دون هذه القضية مغزى مع انها دونها عنفاً . كانت روما حتى ذاك العهد قد افسحت المجال للبيثاغورية ، تلك الفلسفة المتشبعة بصوفيـــة حافظت ، على الرغم ممـــا اعترضها من صعوبات ، على حيويتها في ايطاليا الجنوبية ، ولا سيما في طارنتا . ومن حيث انها لم تنفّر الرومانيين ، فأننا نرجح ان تلطيفات ملموسة قد ادخلت عليها . ومهما يكن من الأمر ، فان التقليد الذي جعل من الملك « نوما » تلميذاً مباشراً لبيثاغور ، قد حفظ ، فيما يعود لعهود اقل قدماً، ذكرى قرارات رسمية مؤاتية. ولعل« كاتون » نفسه، قبيل السنة ٢٠٠، حين مر في طارنتا ، اعار اذناً صاغية لبعض الأحاديث . ومـع ذلك ، ففي السنة ١٨١ ، حين اكتشفت في احد المدافن نصوص بيثاغورية تعزوها احدى الكتابات الى نوما ، كان كافيـاً للمجلس ان يعلنها احد القضاة ، بعد الاطلاع عليهـــا ، متنافية والديانة الرسمية ، حتى يأمر باحراقها دون أن يقرأها احد .

عـدم جدواه : ادخال العبادات الشرقية

ولكن انّى لمثل هذه الديانة الفاترة التي لا تهتم للاجابة على سؤال مقض يطرحه الفرد حول مصيره بالذات ، ان تجد ، في عون السلطات دون سواه ، الوسائل لمقاومة نجاحات عقـائد افضل تجهيزاً واعظم نفوذاً ؟ وأنى لها ايضاً ان تقاوم العدوى بينما الرومان موجودون في الشرق وبينما الشرق ، اقله بواسطة العبيد ، موجود في روما؟فالموضوع، منذ ادخال سيبيل وتوسع المصالح الرومانية،لم يعد موضوع الآلهة الذين كيفتهم ونقّتهم الحضارة اليونانية الكلاسيكية، بل اولئك الذين خوّلهم العالم الهليني وتبناهم ارضاء لفرديته المخالفة الصواب ، واولئك الذين توفق العـــالم الشرقي الى ابقائهم

بعيدين عن كل تأثير يوناني ، احيانا . اجل كان من المعترف به ، في القرن الاول ، ان تتلقى الشخصيات الرومانية المرموقة ، اذا ما مرت في اثينا ، مبادىء اسرار الفسيس (*Eleusis*) . ولكن هذا نفسه لم يعد كافياً اذ ان الشيء الذي لا مفر منه قد اخذ بالظهور .

قارن بعضهم احيـــاناً قضية الرقصات الخلاعية بالاضطهـــادات التي سوف تتناول الديانة المسيحية . ولكن المقارنة عرجاء ، اذ ان المحاكمة الامبراطورية ستلاحق الديانة المسيحية كديانة بينما لم يتجاسر مجلس الشيوخ ، في السنة ١٨٥ ، على تحريم ممـــارسة الطقوس الديونيسية على المؤمنين الزاعمين بانها مفروضة عليهم بنذر شخصي . فقد اجازها لجماعات محدودة يجب ان لا تتجاوز رجلين وثلاث نساء لا يخضعون لتنظيم ولا تربطهم عهود متبادلة ، ملزماً اياها بالاعلان عن نفسها للسلطات وبالحصول على موافقتها بحسب القانون . ولكن هـــذه التسوية انطوت على مُحـــال هو استمرار الرقابة الشديدة . فاخنى الدهر على المرسوم المجلسي ، وفي اواخر العهد الجمهوري ، احتفل باسرار ديونيسوس في منازل كثيرة من « بومبيي »

اما ما تبقى ، مما لم يتناوله اي اضطهاد ، فلم يكن بحاجة لاي سماح بالدخول . وسنعود فيما بعد الى كل ما كان مدعواً للشهرة . فلنكتف اذن بالاشارة إلى انه قامت في رومـــا ، في زمن قيصر ، طوائف بيثاغورية على جانب من التأثير ، وان وجود عبادات شرقية مختلفة في ايطاليـا لامر ثابت ؛ فمنذ الحملات على « ميتريدات » ، استورد الجنود عبادة عرفوهـــا في آسيا هي العبادة الدموية للإلهة الكبادوكية « ما » (*Mâ*) التي اسرعوا واطلقوا عليها اسم « بلّونا » : اثناء العيد ، وفي وسط الشارع ، ينشد كهنتها الاناشيد ويجرحون اجسامهم بالفأس المزدوجة التي ترمز الى الإلهة ؛ وستكتشف في احد معابدهم أوان خزفية ملأى باللحم البشري . ومنـــذ القرن الثاني نشاهد عبـــادات سيرابيس (*Sérapis*) ، وايزيس الاسكندرية في ديلوس حيث يتعاطى التجارة ايطاليون كثيرون ، وفي بوزوليس ، المرفأ الرئيسي في ايطاليـــا ؛ وتدخل ايزيس روما في عهد سيلا . ثم يدخل « ميترا » نفسه ايطاليا بواسطة قراصنة كيليكيين سابقين وجنود اشتركو في حملات بومبيوس الشرقية . ولعل صمت المصادر حيال آلهة آخرين من قبيل المصادفة لا من قبيل عدم وجودهم في ايطاليا . ومهما يكن من الأمر فان رومـــا تجتـذب اليهـــا ، في عهد مبكر ، عرافين ومنجمين شرقيين لا يخامرهم شك في انهم سيجدون فيهـا زبناً كثيرين .

من الثابت ان الدولة قد تحاشت ان تتبنى اية من هذه العبادات تبنياً رسمياً . لا بل ان المجلس قد اتخذ احياناً تدابير بوليسية سريعـــة الزوال : طرد المنجمين في السنة ١٣٩ ، وفي اواسط القرن الاول اصدر اوامره تكراراً بهدم معابد ايزيس التي شوهدت حتى على الكابيتول .

ولكنها استيقاظات باطلة ، ونادرة على كل حال . فباستثناء عبادة « ما — بلّونا » ، ستعرف هذه العبادات الشرقية ، وعبادات اخرى كثيرة ، في تاريخ لاحق ، نجاحـات مدهشة واسعة

جداً . اجل لم تكن بعد في اواخر العهد الجمهوري سوى في مرحلتها الأولى . ولكن وجودها ينبىء بالمستقبل ويحضّره .

المظاهر الاجتماعية والسياسية للتطور الديني

ان موجة التدين القلق هذه عمت الطبقات الاجتماعية الدنيا بنوع خاص . فهي بفعل تألمها أكثر من غيرها قد شعرت أكثر من غيرها بحاجة الى التأثر والوعود . اضف الى ذلك انها كانت على اتصال يومي وودي بعبيد يلتمي الكثير منهم الى الشرق . وقد بدا هذا الميل نفسه خطراً للحكام . اجل ، لقد اعتبروا الديانة امراً ضرورياً للشعب . فمنذ اواسط القرن الثاني لم يتردد بوليب ، الذي عاش قريباً من شيبيون اميليانوس ، في ان يرى في العبادات الرومانية بناء صنعياً مصمماً خير تصميم لخير الدولة والمجتمع : « يخيل الي ... ان الوجل الخرافي يحمي مصالح روما ... وبتنمية هذه العاطفة ، انما فكروا بالشعب في الدرجة الاولى . قد لا يكون هذا الاحتياط ضرورياً في دولة لا تضم سوى العقلاء ؛ ولكن لما كانت الجماهير تتصف بتقلب الرأي والاهواء المشوشة والاحقاد العنيفة والغير المتبصرة ، تستحيل السيطرة عليها إلا بالخوف من كائنات غير منظورة ، وبشتى انواع الاوهام » . وقد نجد هذه الفكرة عند كثيرين غيره بأقل وقاحة في التعبير . ولكن العبادات الغريبة ، من حيث هي تتوجه الى مؤمنيها دونما اهتمام للاطارات الاجتماعية التقليدية ، كانت في نظرهم خطراً ممكناً على النظام الضروري للمجتمع والدولة .

لذلك ، قامت النخبة الاجتماعية ، في ما يعنيها ، بمجهود كبير للابقاء على تنفيذ كافة الطقوس . أما دلائل التخلي التي يمكن ملاحظتها فنادرة ، ولا أهمية حقيقية لها : الاهمال في ترميم بعض المعابد ، والشغور المستمر ، منذ آخر السنة ٨٧ ، في منصب كاهن جوبتير الخاص . وفي القرن الثالث ، قام بين المسؤولين أنفسهم ، من يتظاهر بالالحاد في ممارسة وظائفه بالذات ، ولا يتقيد بنصائح العرّافين . ولكن مصلحة الدولة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ، والتضامن الطبقي ، بعد الحرب ، وضعا حداً لهذه الجسارات : وان احتقار قيصر للعراقيل الدينية التي أقامها ، في السنة ٥٩ ، زميله في القنصلية ، في وجه قوانينه ، يمثل الشذوذ الوحيد عن القاعدة . ولكننا عبثاً نبحث عن تقوى حقيقية وراء هذه الظواهر المؤثرة . فلم يقم في الارستوقراطية الحاكمة ، على ما نعلم ، أي مشايع للعبادات الشرقية بالذات ، التي تركت للشعب ؛ بل على نقيض ذلك ، قام بعض الملحدين ؛ وقام بنوع خاص تلاميذ مذاهب فلسفية تنظر الى الآلهة التقليديين كما الى رموز أو خاصيات . ويبدو شيشرون معبراً عن الحقيقة ، حين يكتب في بحث عن العرافة : « على العاقل ان يحافظ على عادات الأجداد بالتقيد بالعبادات والطقوس . ويرغمنا جمال العالم ونظام الأجسام السماوية على الاعتراف بوجود كائن أزلي يتوجب على الانسان إكرامه ، والاعجاب به » ؛ حكمة سياسية من جهة وتفسير فلسفي من جهة ثانية : لقد زال الايمان من الديانة الرسمية .

أعطى العالم الهليني ، باستمراره في ممارسة ديانة الأولمب القديمة ، المثل عن هذه المواقف . ولكنه أعطى ، كذلك ، المثل عن المثالية الدينية التي توفر للملكية مرتكزها : الانسان المتفوق الذي يختاره الإله ويلهمه . أنّى لروما من ثم ان تنجو من العدوى؟ فقد سمح شيبيون الافريقي، قبلاً ، بأن تنتشر حول ولادته الالهية أساطير مماثلة للأساطير التي انتشرت فيما مضى حول ولادة الاسكندر ، وأمضى ساعات كاملة في معبد جوبتير الكابيتولي يناجي « أباه » الذي ينعم عليه بنصائحه ، فاتهمته مصادرنا بالخرقة والخداع . واقتفى الكثيرون اثره منذ اواخر القرن الثاني ، على الرغم من عنادية عدد كبير منهم كانوا أشد اشمئزازاً من ان يحافظوا على أقل ايمان ، وأبعد مهارة من ان يهملوا التظاهر بأنهم مختارون من الله منذ الأزل . واتجه تفضيلهم الى فينوس ، والدة « اينه » وإلهة روما القومية . فعزا سيلا انتصاراته الى فينوس « السعيدة » ، وتبنى هذا اللقب لنفسه؛ والتمس بومبيوس النعمة من فينوس « المنتصرة » ؛ وأدى قيصر بأبهة العبادة لفينوس « الأم » ؛ إذ ان عائلته ، آل جوليوس ، تنحدر منها مباشرة .

وهكذا ، فبينما كان كل شيء يخلخل الدولة الجمهورية ، وحين لم يعد هيكلها الديني سوى مجرد ظاهر ، تباهى أشد خصومها خطراً ، امام الجماهير المستعدة لأن تؤمن بكل معجزة ، بالانعامات الفائقة الطبيعة التي دانوا بنجاحاتهم لها . فانضم التطور الديني من ثم الى التطورات الاخرى في سبيل القضاء على النظام القائم

الفصل الخامس

هلينة روما:
اليقظة الفنية والفكرية

بدأت اقتباسات روما الفنية والفكرية عن الحضارة اليونانية ، شأن اقتباساتها الدينية ، قبل تدخل الدبلوماسية الرومانية والجوقات الرومانية في قلب العالم اليوناني بزمن طويل : فان التأثيرات التي اصابت الاتروسك وانتقلت بواسطتهم قد فعلت فعلها منذ عهد مبكر جداً ، كما فعل فعله ايضاً مثل اليونان الكبرى وتعليمها عن طريق كمبانيا والشعوب الايطالية . ولعل الاستدانة ، على هذا الصعيد، من هذه الحضارة المتفوقة، قد فاقت الاستدانة على صعيد المعتقدات الدينية . فليس هنا من معطية سابقة ، ولو بدائية ، يكفي تنظيمها وتصعيدها وانماؤها، بل طاولة شبه ملساء ، او شعب خشن جداً استيقظ ، بصلاته غير المباشرة ، على مشاغل جديدة ؛ ومنذ ان برزت مثل هذه المشاغل في روما واخذت تلقى فيها رضى ليس على شيء من السخرية، نتراءى اثر الحضارة اليونانية .

بيد ان هذا الاثر قد برز بقوة نادرة منذ ان بسطت روما سيطرتها المباشرة على ايطاليا الجنوبية . وقد شعر المؤرخون القدماء ، من هذا القبيل ، باهمية الاستيلاء على طارنتا في السنة ٢٧٢ واشاروا اليها . فاستُعرض آنذاك للمرة الاولى، في احد مواكب النصر ، بعض الاسرى اليونانيين أو المستغرقين ، والتماثيل ، واللوحات ، والزخارف والنقوش التي ازدانت بها مدينة يونانية كبرى : غنيمة مزدوجة اجاز قانون الحرب للمنتصر التصرف بها تصرفاً واحداً ، وكان لامتلاكها اثر واحد دائم ، اذ قد اكمل الاسرى العبيد ، بقولهم وبانتاجهم ، التربية التي وزعها ، صامتاً وساحراً ، مشهد التحف الفنية . ولم يكن ذلك ، في الزمن ، سوى الانتقال الاول بين انتقالات بشرية ومادية ، على مدى واسع ، ضاعفتها الانتصارات اللاحقة وتمادى فيها ، بعد الانتصارات ، استثمار الاقاليم اليونانية استثماراً لا يعرف للشفقة معنى. وان التقدم الذي احرزه العالم اليوناني منذ زمن بعيد قد جعل من فتنة هذه التحف وهؤلاء الرجال قوة لا تقاوم : فاستسلم الرومان لها دونما صعوبة لا سيما وان تمرنهم قد بدأ قبل ذلك العهد .

مهما يكن من الأمر ، فانهم لن يلبثوا ان يدينوا بالكثير لفن اليونان وفكرها . ولكن الى اي حد سيتركون هذا السحر يفعل فعله فيهم يا ترى ، وماذا سيفعلون من هذا الدرس ؟ كان بامكانهم ، اذا مـــا استفادوا من خبرة الغير وحافظوا على ميزتهم ، ان ينقلوا التقنيات المجربة الكاملة الى خدمة نزعاتهم الخاصة . وكان بامكانهم ايضاً بفضل القوى الجـديدة والثروات المادية التي فاض بها شبابهم ، ان ينوبوا ، على طرق شقها مثقفوهم ، عن حضارة يونانية اتعبها مجهودها وانهكهـــا السلب الذي كانت خاضعة له . وكان باستطاعتهم اخيراً ان يبقوا تلامذة منقادين لاساتذة قد يستمرون في التقدم عليهم،او اقله مجرد زبن لعملاء ماهرين في إرضـــاء اذواق اوجدوها فيهم .

ثلاثة امكانات غدا كل منها ، هنا او هناك وبحسب العهود ، امراً واقعاً . وليس من ريب ، على العموم ، اقله خلال العهد الجمهوري ، في ان الامكان الثالث هو الذي كان غالباً : وعلى الرغم من الفوارق التي سنشير الى اهمها، ومن الازدهار الادبي الذي برز اخيراً في روما ، فان رومـــا آنذاك قد دخلت في فلك العالم الذي اخضعته لسيطرة قسوتها المغرورة الجشعة .

١ ـ الفـــن

لا يستدعي هذا التأكيد ، تحفظاً يذكر بصدد الفن .

الاثر الاتروسكي

لما كانت روما قريبة جداً من مركز حضارة زاهرة هو اتروريا، فقد دانت لها بفنها البدائي . فالملوك الاتروسك الذين اعطوها انظمتها الاولى كمدينة انعموا عليها بابنيتها الاولى ايضاً . وقد اجمع التقليد على ان يذكر بين هذه الأبنية المعبد المكرس على جبل الكابيتول لجوبتير ولاقرانه من الاناث. فقد رمّم، واعيد بناؤه وربما حوّر اكثر من مرة ، وبقي على الدوام المعبد الرئيسي للديانة الرسمية. وقد حافظت روما ابداً، حتى بعد ان وطدت استقلالها بالقضاء على الاستبداد الاجنبي ، على الروابط الثقافية التي شدتها الى بلاد اسيادهـــا القدماء . ثم احتلتها تدريجياً ولم تهمل الكسب الفني الذي احرزته باحتلالها : فكم وكم من عملية استلاب مجهولة اقدم الرومان عليهـــا في مدن اخرى قبل عملية استلاب الـ ٢٠٠٠ تمثال من فولسينيا في السنة ٢٦٤ ؟ لذلك فقد جاءت التربية الاولى من الاتروسك بنوع خاص .

تميزت هذه التربية ، من جهة ثانية ، بالسرعة، في مدينة لم تخل ، كما رأينا، من الموارد المالية، وتجنبت النخبة الاجتماعية فيها ، التي أحسنت استقبال نخب المدن الايطالية الاخرى ، كما رأينا أيضاً ، احتقار ما من شأنه تجميل اطار وجودها . ومن الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الرومان ، في القرون الاولى من العهد الجمهوري، لم يكترثوا بالمشاغل الجمالية .فعلى الرغم من استمرار صفة حياتهم الخاصة بذلوا الجهد لكي يكرموا بأبهة الآلهة الذين دانوا هم بالنجاح لرضاهم، وقد حرصت كل عائلة كبيرة على تخليد ذكر الجدود الذين أكسبوها الشهرة . لا بل ان بعض الرومان على الاقل

قد شعروا بسحر الفن الدنيوي اللطيف الذي تعلموه بواسطة جيرانهم . اجل يبدو انهم افتقروا الى العبقرية الخلاقة ؛ ولكنهم يستقبلون التحقيقات الاجنبية بسهولة ، وقد حدث ان استساغوها بمرونة .

الفن البدائي

منذ القرن الخامس شيدت روما عدة معابد . وقد عكست معابدها طرازاً اتروسكياً طبع هندسة العمارة الدينية الرومانية بطابع دائم . تميز هذا الطراز عن الطراز اليوناني ببعض الصفات الخاصة التي يجدر بنا ، دونما حاجة الى تبيانها كلها ، ان نشير الى أهمها ، او بالحري الى تلك التي تظهر بأجلى صورة في شكل هذا الطراز . فقد بقي تلاصق قاعات المعبد الداخلية الثلاث ، مثلاً ، التي فرضها جمع بعض الآلهة في ثواليث (جوبتير وجونون ومينرفا ؛ سيريس وليبير وليبيرا) طرازاً كلاسيكياً دائماً في معابد جوبتير «الافضل والاعظم» (*Optimus Maximus*) أي جوبتير الكابيتولي . ثم ان الرومان قد شيدوا عدداً كبيراً من معابدهم على مصطبة او قاعدة على بعض الارتفاع في البناء ؛ فاضطروا من ثم الى تجهيز سلّم يؤدي الى جبهة المدخل بينما انتصب جدار القاعات الخلفي ، والجدران الجانبية في أغلب الاحيان ، على حافة القاعدة تقريباً .

شيدت هذه المعابد الاولى بالأخشاب ، واستخدم كثيراً ، في سبيل صيانتها وتزيينها ، الخزف المتعدد الالوان : وكانت هذه العادة واسعة الانتشار ، ليس في اتروريا فحسب ، بل في كمبانيا وايطاليا الوسطى ايضاً . ولم تسفر أعمال التنقيب في روما ، حتى اليوم ، عن اكتشاف أي شيء يذكرنا بمجموعة ابولون في فييس . ولكنه يتوجب علينا ، مع ذلك ، القول بأنهم لجأوا بمهارة الى التزيين الناتىء بواسطة لوحات التلبيس الترابية التي نضدوا فيها النقوش السعفية الشكل والرؤوس الصعراء الوجه وابتكروا مجموعات التماثيل لأعلى جبهات المعابد والمثلثات في الجبهات نفسها والتماثيل المنصوبة داخل المعابد . فمن الثابت ان فن التشكيل بالغرين قد اعتمد بالتفضيل طيلة قرنين او ثلاثة قرون في روما ، وقد حدث ، حتى في عهد سيلا ، انهم لجأوا اليه ، احتراماً منهم للتقليد ، لتزيين المعابد الجديدة ، بينما كانوا قد اخذوا يستخدمون للمدافن والتماثيل المدفنية النصفية ، مواد أغلى ثمناً واقل قصماً .

وفسّر فنّ التصوير طريقة أخرى للتزيين . فان الذوق الذي أوحى به للرومانيين ، وهو قديم ايضاً ومقتبس عن الاتروسك والكمبانيين واللاتين ، قد استمر زمناً أطول . وقد لجأوا اليه في داخل المعابد وعلى جدران المدافن تحت الارض وحتى على جدران الابنية العامة ، ان لم يلجأوا اليه آنذاك – ترتقي اقدم رسوم بومبيي الى زمن أكثر تأخراً – على جدران المنازل الخاصة . ولم يأنف بعض اعضاء النخبة الاجتماعية من ان يتعاطوه شخصياً : فهنالك معبد دشن في اواخر القرن الرابع بعد ان زين جدرانه بالرسوم المدعو ك. فابيوس فحمل ، بفضل ذلك ، لقب « المصور » الذي انتقل الى ذريته . لم يبلغ الينا شيء من التصوير الديني . وعلى نقيض ذلك ،

ظهرت في احد مدافن الاسكويلينوس بقايا مشاهد تاريخيـــة ، معركة ومفاوضة ، رسمت في القرن الثالث على الارجح ، يبرز فيها نشاط قائد روماني يدعى ك . فابيوس . وكذلك فقد أمر م . فاليريوس مكسيموس ميسالا ، في اوائل الحرب البونيقية الاولى، بتصوير معركة ظافرة على جدار قاعة جلسات مجلس الشيوخ . ومن الجائز ان نرى ، في اختيار هذه المواضيع ، ظهور ميـل مبكر سوف يُمنح الفن الروماني إجناحاً دائماً نحو تمثيل الأحداث الواقعيـة التي تستعاد بوقار اظهاراً لمجد روما ومجد حكامها وآلهتها : المعـارك ، الاستعراضات الظافرة ، الذبائح ، الاحتفالات العامة .

جلي ان هذه المشاهد التاريخية قد جمّلت ونظمت بدافع من حرص الفنانين على إظهار عظمة تحرك العواطف، كما ستجملها وتنظمها فيما بعد النقاشة العظمى . وعلى نقيض ذلك ، فقـد برزت منذ اوائل عهد صورة الشخص المصنوعة بالتراب او المنقوشة ، واقعية فظة جداً وكأنها تعند في ان لا تخفي أية بلية من بلايا الطبيعة او السن. وقد تولدت هذه الصور من قوالب شمعية تؤخذ عن وجه الموتى بغية صنع « الصور » والاقنعة والتماثيل النصفية التي تحفظ في الاروقة العائلية ويؤلف منها موكب في جنائز الحفدة. لم تبلغ الينا أية قطعة قديمة من هذا النوع ، وانما يمكننا ان نتخيلها بالاستناد الى مجموعة الرؤوس شبه الهزلية التي سارت على هذا التقليد حتى اوائل الامبراطورية ، وهي مجموعة تحرك النفس ولا تعرف للشفقة معنى .

لذلك يستهوينا ان نعرف ما كان من امر التماثيل التي يغلب انها نصبت في روما منذ عهد باكر اكراماً لأبطال قوميين ، وحتى لألقيبيادس وبيثاغوروس : فهذان الاخيران هما اللذان لم يتردد مجلس الشيوخ في أن يعترف بأنهما ، كل فيما خصه ، الاولان بين الاغريق بسالة وحكمة ، واللذان امر هاتف غيب دلفي ، حين استشير أبّان الحرب ضد السمنيين في القرن الرابع ، دون أي ايضاح ، بأن تنصب لهما التماثيل . واذا ما تعذر الكلام آنذاك عن الصور المتقنة ، فما هو الحد الذي بلغه النقاشون ، حتى الاجانب منهم ، الذين توجب عليهم ان يأخذوا اذواق زبنهم بعين الاعتبار ، في مسعاهم لتحقيق تعبير مثالي شامل ؟ ولكن المصادر القديمة التي تشير الى هذه التحف لم تترك لنا وصفها .

بدت اذن بعض المقاصد الجمالية على الصعيد الجماعي . اما البذخ الخاص ، باستثناء مظـاهر تكريم الموتى ، فلا نعرف منه سوى نتاج صناعـــة تعدين الشبه الناشطة والمتقنة جداً منذ ذاك العهد عند الاتروسك والمنتشرة بواسطتهم في جميع انحاء ايطاليا الوسطى . ومن اطرف هـــذا النتاج مرايا وعلب مستديرة مزدانة برسوم محفورة بالازميل . ويبدو منذ القرن الرابع ان المركز الرئيسي لهذه الصناعة كان بريستا *Préneste* (بالسترينا الحالية)، احدى مدن اللاتيوم. واما المرآة « فيكورني »، وهي واحدة من اجمل امثالها، فتحمل كتابة تثبت انها صنعت في روما على يد فنان اجنبي لاحدى نساء بريستا. واستوحى الفنانون طريقتهم والمشاهد المصورة من الرسوم

المصورة على الخزفيات المزخرفة ، وقد صدرت اليونان القديمة زمناً طويلاً – كورنثوس اولاً ، ثم اثينا – هذه الخزفيات الى ايطاليا ، ثم استوردت ، ابتداء من القرن الرابع ، من اليونان الكبرى ، ثم من فاليريا ، وهي مدينة قريبة جداً من اترووريا والتيبر ، شمالي روما .

الحضارة اليونانية والحضارة الايطالية والحضارة الرومانية

تمثل الصور المحفورة على مرآة فيكوريني احدى حوادث رحلة الارغونوط : والاثر اليوناني جلي فيها باختيار الموضوع وبمعالجته ، ولعلّها تقليد لتحفة من تحف فن التصوير العظيم . وباستطاعتنا ان نسرد امثلة اخرى كثيرة عن الاثر اليوناني في الفن الروماني البدائي . ثم ان اكثرية التحف التي عرفت مباشرة او عن طريق الوصف لا يمكن ان تفسر الا باللجوء الى الميثولوجيا اليونانية او الديانة اليونانية . ونحن نعلم من جهة ثانية مدى اقتباس الاتروسك عن الفن اليوناني . كما ان اليونان الكبرى وكمبانيا قد ضمتا مراكز اخرى للنشر هذا الفن . وقامت اخيراً علائق مباشرة احياناً : فمنذ اوائل القرن الرابع اتى الفنانان اليونانيان ، داموفيلوس ، وغورغاسوس ، وهما مصوران على الارجح ، الى روما بغية زخرفة معبد سيريس .

ولكن هناك بعض الطوابع وبعض الميول التي لم ترتد قط في اليونان الحيوية نفسها مع انها لم تكن مجهولة تماماً فيها : قد يمكننا التجادل حول قيمتها الجمالية ولكن لا يمكننا التجادل حول حقيقة وجودها . لا يجوز ، على ما يبدو ، نسبتها الى الرومان دون غيرهم اذ اننا لا نجدها في روما وحدها بل نجدها دائماً في فن مدن اخرى من اللاتيوم ايضاً وحتى في كافة انحاء ايطاليا الوسطى . واذا ما استهدفت جهود المؤرخين اليوم استخلاص هذه الميزة ، فان اكتشافات علم الآثار لا تهيب بنا الى نسبتها الى الرومان فحسب بل الى الايطاليين عموماً . وليس في الحقيقة ما يثير الدهشة في ذلك . فالحضارة الاتروسكية نفسها ، حتى اذا سلمنا باصولها الشرقية ، قد استساغت إرثاً ايطالياً ونزعات ايطالية . اضف الى ذلك ان روما ، على الرغم من اسطورة «اينه» الطروادي ، لا تمثل جسماً غريباً في شبه الجزيرة . وما كانت عناصر سكانها الاولى لتختلف كثيراً عن عناصر سكان المدن المجاورة . اما ما يكوّن شخصية روما بينها فهو في الدرجة الاولى موقعها في مكان انتقال وبالتالي تلاقي البشر والمحاصيل ؛ وهو في الدرجة الثانية مصيرها العجائبي في تحقيق الفتوحات . وقبل ان تصبح عاصمة العالم فانها قد اصبحت عاصمة ايطاليا مبتلعة وناقلة باسمها للمستقبل كل ما بقي من الميزات الايطالية الخاصة .

الاشغال العامة الكبرى

هل كان بمكنة ظروف اخرى ورجال آخرين تأمين بقاءات اكبر عدداً وابعد مغزى ، وتميزاً احلى عذوبة؟ قد يصح القول بذلك. انما يجدر بنا ، على كل حال ، الاعتراف بان روما ، بفضل عنادها الصبور والجرأة التي عرفت كيف تبرهن عنها في وجه المسائل العملية ، قد خدمت ما ابقت عليه من هذه الحضارة الايطالية .

لا شيء ، في هذا الصدد – اذ لم يكن هنالك من حد فاصل بين الفن ، الذي قلما يكون

اختياريا ، وبين الاشغال الكبرى ذات المنفعة العامة – يعطينا شهادة ابلغ من تحقيقات مهندسيها الاول . فقد كان علمهم وتقنيتهم مدعوين لان يبقيا احد اختصاصات روما المجيدة . برزا منذ هذا العهد القديم وبقي اسم ابيوس كلوديوس ، الذي لقب « بالاعمى » (*Caecus*) في شيخوخته السقيمة ، مرتبطاً بمشاريع عظيمة كانت منطلقاً ، طيلة قرون عدة ، لسلسلة متصلة الحلقات دامت ما دامت رُوما بالذات .

تولّى منصب قاضي الاحصاء في السنة ٣١٢ وبنى « القناة الآبية » التي جرّت الى روما مياه ينبوع يبعد مسافة تتجاوز ١٦ كيلومتراً . اجل لقد امكن ، في الريف الروماني ، توصلا لهذه الغاية ، استخدام أقنية سابقة محفورة لأعمال التجفيف توفرت للاتروسك والايطاليين الخبرة القديمة فيها . وعلى الرغم من ذلك فان تحقيق هذا المجرى تحت الارض كان نجاحاً جميلاً لا سيما وقد جهّز على أكثر من ١٥ متراً عمقاً في بعض الاحيان ، بعلوّ ١،٥٠ متر وبعرض متر تقريباً . ولم تستند القناة الى الاقواس إلا مسافة قصيرة جداً (٩٠ م) فوق منخفض في المدينة . ومنذ السنة ٢٧٢ ، استلزمت قناة جديدة ٣٠٠ متر من القناطر . ولما كان ارتفاع عدد سكان المدينة والاهتمام برفاهيتهم قد زادا باطراد ، فقد أفضى ذلك تدريجياً الى أبنية ازدادت أهميتها شيئاً فشيئاً ايضاً : « فالقناة المارسية » التي شيدت ما بين السنة ١٤٤ والسنة ١٤٠ قد بلغت ٩٢ كيلومتراً طولاً منها ١١ كيلومتراً على القناطر .لا شك في ان الاغريق، منذ زمن بعيد ، – تعود قناة افباليتوس في ساموس ، مع النفق الذي استلزمته ، الى القرن الرابع – قد حققوا مثل هذه الاعمال المعدّة لتموين مدنهم بالمياه . ولكنهم لم يحققوا ، ولم يصمموا على ما نعلم ، أعمالاً على مثل هذه الأهمية .

تجدر الملاحظة نفسها بصدد الطرقات . فان شعوباً أخرى قد أنشأت طرقات في السابق : وهنالك تقليد ، يشك فيه كثيراً على كل حال ، يعزو الى الرومان انهم استوحوا في ذلك أساليب القرطاجيين في صقليا . ولكننا لا نستطيع ان نعمطهم فضلهم في إنشاء اولى الطرقات الطويلة المدى . فحين كان ابيوس كلوديوس قاضي احصاء ايضاً ، وضع تصاميم الطريقة « الآبية » ولزم اعمالها، وهي التي وصلت روما بـ «كانا» –١٩٥ كم – في كمبانيا، والتي سيدعوها احد شعراء العهد الامبراطوري « ملكة الطرقات » . وقد اخترقت المستنقعات البونتية بخط مستقيم فوق ردميات بلغت ٢٨ كم طولاً . واعتمدت في إنشائها الطبقات الحجرية التي شدّها الملاط الى بعضها البعض وتناقصت قياسات حجارتها بين الاساس والسطح ، واللوحات التي غطت هذا السطح فيما بعد ، فكانت اول تطبيق لتقنية ستعطي ، طيلة قرون وتحت كل سماء ، في الجبال والمنخفضات ، براهين أخرى كثيرة عن تفوقها . وفي العهد الجمهوري اخترقت ايطاليا بنوع خاص ، في كل الاتجاهات ، طرقات عظيمة مماثلة تولت الجمهورية بعد ذلك تعميمها على الاقاليم على نطاق واسع . لكن هذه الطرقات لم تستخدم للسير السريع . فان هدفها الرئيسي

كان تسهيل انتقال القوات المسلحة والبريد ؟ كما ان عمليات المساحة قد استندت اليها في تقسيم الاراضي . فجعل منها هذا الدور العسكري والاداري ، مع اتساع شبكتها ، دعامة من اوطد دعائم السيطرة الرومانية على ايطاليا اولاً وعلى الامبراطورية بعد ذلك .

فهل كانت هذه المشاريع وهذه النزعات رومانية يا ترى ؟ العدل يقضي ، في الحقيقة ، ان نصفها بالايطالية ، او باللاتينية على الاقل : اذ ان عائلة كلوديا سابينية المنشأ . فيجب بالتالي ان لا نضفي قيمة نوعية على العنصرية التي يفسّر الانصهار البشري الباكر استخدامها التقليدي في مفهومها العريض. واذا ما تم الاتفاق على ذلك، فان الاشارات الوجيزة السابقة الى هذه الاشغال العظيمة تكفي للدلالة على ان التصميم على قهر الطبيعة المعادية واستخدام الطرائق الفعالة في هذا السبيل قد سبقا ، في روما ، قيام الاتصال الودّي بالحضارة اليونانية خلال القرن الثالث . فقبل هذا الاتصال توفقت جرأة مهندسيها الى الانطلاق وأثارت سواعد عمالها الاعجاب — ولكن كم بينهم من العبيد ؟ — كما قام جنودها ، في كل مرحلة ، ببناء معسكرهم .

قبل ذلك بألوف السنين ، حققت حضارات الشرق الادنى الامبراطورية اعمالاً اعظم ضخامة . فهل كان ما أتته ابعد تجرداً عن المصلحة يا ترى ؟ يجدر بنا ان نجد مقياساً مشتركاً للمصلحة . فان اليد العاملة ، مندفعة كانت ام راضية بنصيبها ، التي استنفدت قواها في خدمة الآلهة وابنائهم او خلفائهم الملكيين ، قد آمنت بأنها توفر للجماعة ، على الدوام ، احسانات قوى كلية القدرة . اما الرومان فقد كونوا ، عن المنفعة العامة ، فكرة اقل غموضاً واقل بعداً . فمن حيث ان ديانتهم كانت ديانة قانونية ، او دنيوية اذا صح التعبير ، فانها لم تفتح امامهم آفاق مثل هذه الاعتبارات . ومن حيث هم لم يؤدوا واجباتهم مسبقاً لآلهتهم، بل اكتفوا نحوهم بوعود مشروطة ، فانهم قد تحاشوا القيام بتعهدات على مثل هذا النطاق . وهم قد كيفوا مجهودهم ، لا ضناً به، بل اقتصاداً، وفاقاً للكسب المباشر الذي ارتقبوه منه. ولم يبرز كبرياؤهم في الاعتداد بقوتهم وثروتهم إلا بعد حين ، وقد بقي زيغانه الشنيع امراً نادراً .

لا يجدينا ، على كل حال ، ان نسير الى ابعد من هذا الحد في مقارنة تصرفات على مثل هذا التباعد : فالمقارنة المفيدة يجب ان تجرى مع الاغريق . في الحقيقة تفوق الرومان عليهم على هذا الصعيد : اجل لقد اعوزهم ذلك الانسجام المرن وذلك التآلف السهل بين المنطق والتأثير اللذين احلا الفن اليوناني في المرتبة الاولى . ولكن ما ان شعروا بحافز المنفعة التي فهموها على طريقتهم والتي لم تختلف قط عن طريقة الاغريق ، حتى برهنوا ، باكراً جداً ، كما رأينا ، عن حدة خيال وسعة تفكير . وحين توفرت لهم بعد ذلك وسائل خلق ما هو اعظم ، عرفوا كيف يضفون على تحقيقاتهم العملية ، الخالية من الزخرفة، والمطابقة، منذئذ ، لمثل أعلى من الجمال الوظيفي ، طابعاً من الجلال الصافي .

نقل التحف اليونانية

حافظ الرومان اذن ، فيما يعنينا ، على عبقريتهم الخاصة . ولكنهم لم يحافظوا عليها على صعيد الفن الحقيقي .

فقد حدث امر جديد هو احتلالهم لايطاليا الجنوبية وصقليا وشبه الجزيرة اليونانية وآسيا الصغرى المستغرقة . وقـــد حدث معه ، لا استلهامهم فناً لم يكونوا ليجهلوه ، بل استئثارهم وتمتعهم المباشر بكل ما استطاعوا ، مادياً ، نقله الى وطنهم بعد ان اختاروا ما طاب لهم اختياره من نتاج كدّسه ارفع الشعوب فناً .

وليست الامثلة ما ينقصنا عن هذا الاستيراد الضخم للتحف الفنية . لن نعود مرة اخرى الى مواكب الظفر التي كانت تقدم ، طيلة ايام عدة احياناً ، لاعجاب الجماهير ، الغنـائم التي تشترك فيها . فلننظر بالاحرى الى تصرفات القنصل ل . موميوس الذي هزم ، في السنة ١٤٦ ، الجيش الآخي على مقربة من كورنثوس . ويعود الفضل الاكبر في شهرة هـــذا الحدث الى تقليد ثالب طبنع بعض الروايات بطابع مضحك فاظهر هذا الروماني بمظهر الخشونة والبربرية . واذا هو اقدم على هدم كورنثوس بعد نهبها فانما فعل ذلك نزولاً عند أمر مجلس الشيوخ ؛ وان بوليب ، الذي شاهد زمر الجنود يلقون باللوحات الشهيرة ارضاً ويلعبون عليها بالكعاب ، يمتدح اعتداله وتجرده الشخصيين . وما ان علم بقيمتها حتى اسرع والغى بيع لوحة ، ضربت بجمالهـــا الامثال ، الى الملك البرغاموسي اطـّال الثالث واحضرها الى روما حيث وضعها في معبد سيريس . وعندمـــا انذر ملتزمي نقل اللوحات والتماثيل الى ايطاليا بوجوب التعويض عما يفقد منها بغيرهـــا ، فان انذاره يكون اقرب الى الصواب اذا ما نظرنا اليه كفكاهة لا كانذار حقيقي . اضف الى ذلك ان اعادة الاعتبار للرجل ليست هنا من الاهمية بمكان : فان قيمته كحالة نموذجية تختلف كلياً . وفي نظر « بلين القديم » ، اذا كان القادة الظافرون في آسيا الصغرى مـــا بين السنة ١٩٠ والسنة ١٨٨ قد ادخلوا الى روما عادة المصنوعـــات الفضية المنقوشة والأقمشة الثمينة والاسرة المنزلة بالشبّه ، ان موميوس قد ادخل عادة المصنوعات الشبهية الكورنثية واللوحـــات الفنية . وقد عزا احد معاصري اوغوسطس الى مغانمه اكثر واجمل التماثيل التي ازدانت بها روما . فحين كان قاضي احصاء في السنة ١٤٢ وزع القسم الأكبر منها على كل انحـــاء المدينة تقريباً واستطاع بالفائض منهـــا ان يوزع الهبات على البلديات الايطاليـــة وحتى على مستعمرة ايطاليـــكا في اسبانيا .

هذا مثل بسيط بين امثلة اخرى كثيرة . ولكن المجال ليس مجال احتداد وتظاهر بالفضيلة . فان فاتحين كثيرين قبل الرومان قد اعتمدوا طريقة الاستلاب هـــذه التي تغري ، حتى اليوم ، اكثر من منتصر معاصر . ولعل الاغريق وحدهم انقطعوا ، منذ اواخر العصر القـــديم ، عن استلاب كنوز « البرابرة » الفنية لانهم تغلبوا على هذا الميل — وليس هـــذا اقل الدلائل مغزى على استقلالهم الجمالي . ولم يبد خصومهم ، الفرس والقرطاجيون والفلاطيون مثلا ، ترفعاً مماثلا .

أما الرومان ، فقد سبق لهم ونهجوا هذا النهج في حروبهم ضد الاتروسك ، ولم تنطو الأساليب التي اعتمدوها في العالم اليوناني على أي جديد باستثناء وفرة دخلها النادرة التي تفسرها رحابة هذا العالم ، وما يمكن ان ندعوه بكثافته الفنية . ولم تستلب الممتلكات الخاصة استلاباً منظماً إلا من قبيل العقوبة الفردية أو الجماعية ، وغالباً ما تحلى الرومان بظرف تقوي قضى باحترام المعابد بين الممتلكات العامة . ومع ذلك ، فقد كانت النتيجة وابلاً وتكديساً في مدينة لن تلبث ان تطفح بهذه التحف .

وساعد على ذلك ان النقل الذي اجري لحساب الدولة قد رافقه في الوقت نفسه أو في وقت لاحق نقل اجري لمصلحة الأفراد . وحصلت كذلك صفقات واغتصابات سهّلها تسهيلاً نادراً التفاوت المالي والاداري الذي أوجده الفتح بين الأسياد والرعايا . فما هو مصدر الشحنات الفنية المجموعة في مركبين غرقا في القرن الأول قبل الميلاد ، واكتشفا في اوائل القرن العشرين ، الاول في انتيكيثيروس (*Anticythère*) جنوبي البلوبونيز ، والثاني في مهديه على شاطىء تونس الشرقي ؟ هل هي غنائم حربية استولى عليها سيلا في اليونان ابان العمليات ضد ميتريدات ؟ أم صفقات وطلبيّات ؟ أم مجموعات أرسلها السماسرة بغية بيعها في أغنى الأسواق أموالاً ؟ مهما يكن من الأمر ، فليس أبلغ ، في استعادة الماضي ، من تنوع - أعمدة ، وقطع رخامية وشبهية ، وتماثيل مختلفة الاشكال والقياسات ، ونقوش ناتئة ، وأوان ، الخ .. — وجمال بعض القطع الذي يلفت الأنظار : بفضل هذه الاستيرادات المستمرة ، جمعت روما ، التي غدت مدينة ـ متحفاً ، ثروات فنية يونانية تفوق ما جمعته أية عاصمة هلينية عظمى .

سيطرة الفن اليوناني والفنانين اليونانيين

يكشف هذا العناد المستمر في تحقيق هذا المطلب ، دونما ريب ، عن شعور بكبرياء جشع فطري عند حديثي النعمة : كان من واجب الشعب — الملك على نفسه ان يبزّ الملوك الهلينيين ، وان تبز مدينته مدنهم والمدن الجمهورية اليونانية ، كأثينا ورودوس ، الذائعة الصيت بفخامتها . ولكنه قد وعى في الوقت نفسه مفهوم واجب الاحترام الذي يؤديه المنتصرون لتفوق المغلوبين الفني .

قارب بعضهم أحياناً بين ما حدث في روما ، خلال القرن الثالث وفي اوائل القرن الثاني ، وبين الصدمة التي شعر بها الفرنسيون في اواخر القرن الخامس عشر بعد ما قطعوا جبال الألب ودخلوا ايطاليا . فاذا كانت كل مقارنة قابلة للانتقاد ، فان هذه بنوع خاص تموّه الحقيقة تمويهاً . فبصرف النظر عن أهمية الاتصالات السابقة ، يؤخذ عليها ، في الدرجة الاولى ، انها تهمل فقدان أية حركة توازي النهضة في البلدان اليونانية وفي روما : وما المقصود هنا ، دونما تعرض لمصادر الوحي ، سوى حركة فنية جديدة وقوية ، ربما أسهم فيها هنا وهناك فنانون قوميون .

يلاحظ « بلين القديم »، في اواسط القرن الثاني ، انبعاث الفن اليوناني بعد تقهقره السابق : ولكنه يعني ، وهذا امر آخر ، استعادة الازدهار المادي . شهدت الحضارة الهلينية من قبل

عادة المجموعات . ودرجت هذه العادة في روما مستهدفة التحف اليونانية وغيرها . فقد جمع الرومان منها ما يعود للعهد الكلاسيكي ، وما لبثوا بعد ذلك ان جمعوا مـــا يعود للعهد القديم ايضاً . وشهد الشرق ، في نطاق تجارة المصنوعـات الفنية ، ازدياد النشاط في اوساط هذه التجارة التقليدية، أثينا ورودوس وبرغاموس،التي تردد اليها أثرياء الرومان مبتاعين منها لأنفسهم أو لأصدقائهم أحياناً ، كما فعل اتيكوس (*Atticus*) الذي وثق الناس بسلامة ذوقه . ثم دخلت هذه التجارة روما مع ما يرافقها من حرف تابعة ، كالترميم ، او طفيلية ، كالتزييف . فكان من شأن هذا الولع بالماضي ، انه أضر بالتجديد الذي بدا ، مع ذلك ، وكأن كل شيء يشجّعه : انتشار التقنيات ، ووفرة الأموال ، وامثولة التحف المدروسة على هينة ، وتميز بعض النزعات الايطالية . ولكن كل ذلك بات دون جدوى . أجـــل لم تكن كثرة النتاج السابق لتسد حاجات زبن متزايدين باطراد . ولذلك ، فالنتـاج الجديد لم يهبط ، بل أخذ في الاتساع بنسبة الطلب المتزايد وبفعل انتشار الثروة ؛ ولكنه لم يتبع أي تيـار مجدّد، ولم ينعشه أي نسغ جديد . فاقتصر أبداً على النسخ ، وعـلى بعض الاقتباسات احياناً عن أصول برهنت عن نجاحها في البلاطات والمدن الهلينية .

غير ان هذا الجمود ليس مثاراً لمزيد من الدهشة ؛ فقد كان للاغريق ، بعـــد كل حساب ، مصلحتهم في استثمار مهارتهم وصيتهم . ولكن ما نجد مزيداً من الصعوبة في ادراكه هو كيف ان القليل القليل من الفنانين الرومانيين أو الايطاليين ، عـلى الرغم من الظروف الكثيرة التي توفرت لهم للتحصيل الفني، قد لاقوا آنذاك من التقدير ما أتاح للمصادر أن تحافظ على اسمائهم. فحتى اواخر العهد الجمهوري — ولن تتبدل هذه الحـــال ، في العهد الامبراطوري ، إلا بكل بطء — لم تذكر هـــذه المصادر فناناً رومانياً يحمل اسماً لاتينياً ، سوى كوسوتيوس المهندس المعماري . في السنة ١٧٥ كلّفه الملك السلوقي ، انطيوخوس الرابع ، اتمـام معبد زفس الاولمبي في اثينا الذي أوقف بناؤه منذ اواخر القرن السادس ، والذي لن ينتهي ، على كل حـال ، إلا بعد مرور ثلاثة قرون . كان هذا الملك معجباً جداً بالعادات الرومانية ، فأكسبه ذلك ، وغير ذلك من الغرابات ، ما اشتهر عنه انه نصف مختـل . ولكنه كان ماهراً في العناية بشعبيته ، لا سيما في اثينا . ولذلك يغري بعض العلمـاء أن يروا في كوسوتيوس مواطنـاً رومانياً حديث العهد ، يوناني الاصل ، أضاف الى اسمه الصيغة اللاتينية .

ان صفة التحكم في هذا الافتراض اليائس تنطوي على بعض الرمزية : انهـا لحالة فريدة وشبه مشينة ان يكلف اغريقي فناناً رومانيـــاً القيام بهذا العمل . وعلى نقيض ذلك فليس من سبيل لاحصاء الطلبيات المنفذة في البلاد اليونانية ، والصناعيين والفنانين اليونانيين المجموعين رضى او قسراً والمنقولين فرقاً كاملة والمستدعين او الآتين باختيارهم الى ايطاليا للعمل في خدمة الرومان. فاذا ما انطوى نتاج مغفل ما على بعض الجمال فان تحليل نمطه يدفع بالنقاد في اغلب الاحيـان

الى نسبته الى فنان يوناني مجهول. اجل قد تبدو استنتاجاتهم مشوبة بذلك الميـــل اللاواعي نحو الحضارة اليونانية الذي لا يتخلى عنه مؤرخ الفن الا بصعوبة . ولكنها في الواقع تتفق مع كل ما نشاهده من العلائق الفنية بين الشعبين . وللدلائل الصغيرة بلاغتها احياناً : فقد درج الرومان حتى ذاك العهد على استيراد المرمر من الأتيك (*Attique*) والجزر الايجية ولم يستخدموا مرمر ايطاليا في روما قبل عهد قيصر .

وليس اقل بياناً ان رومانياً واحداً لم يتذمر من هذه السيادة الأجنبيـة . فالتقليد الذي لا ينضب معينه في الكلام عن انتقادات كاتون اللاذعة ضد فساد الأخلاق والبذخ والفلسفة والشعر نفسه والطب عند الاغريق ، لا يروي عنه اي انتقاد ضـد فنهم : ولعله اكتفى بالاعتراض على عدد التماثيل المفرط – ولكن اصبح له تمثاله اخيراً – وعلى استخدام الصور الالهية لاهداف دنيوية. والحقيقة هي انهم خضعوا جميعهم للتيار ولم تبد المتع التي جنوها منه وخيمة العاقبة لاي منهم . ولم تفتهم قط حطة فنهم او بالاحرى عدم وجوده . نحن لا نشك في ان الوطنيين المثقفين قد تألموا من ذلك بعد ان زالت النشوة الأولى التي أثارها فيهم الاعتقاد بان هـــذه البدائع اصبحت منذئذ ملكا لهم ، ولكنهـم لم يعترفوا باستذلالهم . فان شيشرون الذي بحث بشغف عن التحف اليونانية كي يزين بها مقاصفه والذي دفع ثمنها غالياً على الرغم من مشاغله الماليـــة قد تظاهر بنسيان اسم بوليكليت احتقاراً حين وقف خطيباً في جمهور كبير. اذا كان هذا الاسم قد راوده دونما جهد في القسم الاول من كتابه (*Tusculanes*)، فانه بذلك يحاول تفسير خضوع روما حيال الفن اليوناني بلامبالاة الجدود المرعبة : « لو أدي لفابيوس الاكرام الخليق بموهبته التصويرية ، وهو رجل ينتمي الى ارفع طبقات الاشراف ، امـا كنا احصينا بين الرومان فنانين عديدين من امثال بوليكليت وباراسيوس ؟ »اما في الواقع ، فقد اكتفوا كلهم بعذر واهٍ ، معلن او ضمني : كان للرومان ، فاتحي العالم وحكامه ، مشاغل اخرى اعظم شأناً .

النقـــاشة

يجوز لنا والحالة هـــذه ان نمر مرور الكرام بنتاج ليس رومانياً إلا بجنسية زبنه . فنقتصر خصوصاً على الفنون العظمى .

ان منتجات النقاشة لا يحصى لها عد . فالدولة ، او بالاحرى القضاة الذين يمثلونها والذين تباروا بذخاً بالاسهام فيها بثروتهم الخاصة ، وزعت المزيـــد منها على الساحات العامة والأبنية القديمة او الحديثة في « المدينة » . وقد بلغ من زحمة الفوروم بتماثيل النبلاء التي أقامها ذووهم او النفعيون انه تقرر ، منذ السنة ١٥٨ ، ان يزال منه كل تمثال لم تصدر اجازة رسمية باقامته . ولم يهمل الأغنياء متعتهم الخاصة ومقتضيات العرف السائد فزينوا منازلهم في المدينـــة ومقاصفهم وحدائقهم . وحدث مثل ذلـــك في جميع أنحاء ايطاليا حيث سارت المدن الصغيرة على خطى المدينة الكبيرة . فقامت حركة لا تقاوم ، شبيهة بتلك التي جرّت وراءها المجتمع الهليني منذ أواخر القرن الرابع ، مقتبسة طرائقها وتحقيقاتها على كل حال ، على انها أقوى منها لأنهـــا

اقل ذوباناً في الزمان والمكان وأوفر موارد مادية ، فجرّت وراءها كل المجتمع الايطالي الرفيع والمتوسط .

لا ينتظر من هذا الانتاج ، الرائج والوفير ، كما لم ينتظر ذلك من قبل من الفن الهليني ، ان يكون في مجموعه انتاجاً من النوع الاول . ونحن نميل ، امام غزو الفن الاجنبي الذي لم يتجدد لمنفعة زبنه ، الى الاسف لما حلّ بالميزات التي برزت في فن القرون الاولى من العهد الجمهوري ، باقصائها الى مرتبة دنيا ، ان لم يكن باضمحلالها اضمحلالاً كلياً . فلو حوفظ عليها بأن يوضع في خدمتها ما امتلكه الفن اليوناني ، لزمن طويل ، من تقنية وقوة منطق وأناقة وتحريك للعواطف ، لأدّى ذلك الى نتائج ذات قيمة كبرى . واذا ما استمر انتاج الصور الواقعية ، فانها قد بيعت لغير اعضاء الطبقات الاجتماعية العليا ، وما كانت لتطلب من الفنانين المتمتعين ببعض الشهرة : فالتماثيل النصفية والنقوش الناتئة في الانصاب المدفنية ، آنذاك ، أهميتها كمستندات عنصرية واجتماعية ، لا كتحف فنية .

على الرغم من ذلك ، ترك لنا هذا العهد بعض النقوش الجميلة ، ويحاول الاختصاصيون اليوم تعيين تواريخها بغية تبيان تطورها . ليس من ريب في ان أهم عهد ، بهذا الصدد ، هو القرن الاول ، حين استطاعت مقاعيل الثقافة المتبادلة ان تستقر وتحدّد بعض النزعات وتشرع في نشر بعض المذاهب . وتهتم المصادر القديمة اهتماماً كبيراً لحالة اغريقي من ايطاليا أصبح مواطناً هو باسيتيليس الذي بلغ قمة الشهرة منذ زمن سيلا وتتلمذ عليه كثيرون ممن بلغت الينا أسماؤهم حتى ما بعد العهد الميلادي . وتصفه لنا عالماً بأصول الفن وممارساً النقاشة . ولكن لم يصل الينا شيء مما صنعته يداه . وهكذا ، باستثناء حالات نادرة جداً لا شأن علمياً لها ، فان كل ما وقعنا عليه غفل ، وما زالت تواريخ التنفيذ التي يهمنا معرفتها موضوع جدل حاد .

للستعرض اذاً أهم هذه الآثار دون حاجة منا للتعرض لهذا الجدل . فنذكر مثلاً بعض تماثيل نصفية جافة الوجوه آذاها الهوى ، ذلك الهوى نفسه الذي سيطر على المدافعين العنيدين عن هذه الفكرة او تلك في الحروب الأهلية التي اندلعت في زمن ماريوس وسيلا . ونذكر ايضاً تمثالاً لبومبيوس وآخر لشيشرون وآخر لقيصر يتجلّى فيها التحليل السيكولوجي العميق : ولم تضر امانة الصورة فيها بالتعبير الجليّ والعميق . ويجدر بنا ان نشير خصوصاً الى نقشين ناتئين ، احدهما في مونيخ والثاني في اللوفر يعودان الى مذبح دوميتيوس اهينوباربوس . فقد قرّ الرأي تقريباً على انهما إحياء ذكرى تأسيس ناربونا على يد احد جدود ناقشيها ، في السنوات الاخيرة من العهد الجمهوري على الارجح . وهما انتاج فنانين مختلفين ، وعلى الرغم من ان المشهد الميثولوجي الممثل في النقش المونيخي على جانب كبير من المهارة والظرف ، فان النقاد يعلقون مزيداً من الاهمية ، على ما يتصف به من جفاف وتصنع ، على نقش اللوفر الذي يمثل ذبيحة ومشهداً رسمياً اما للتسريح الجيش ، واما لتسجيل المواطنين المعدين لاستيطان المستعمرة الجديدة كما نرجح . وان

مثل هذه القطعة لدليل على استمرار النزعة الخيرة ، اقله عرضاً ، الى معالجة المواضيع التاريخية بنبل ، وهي نزعة ستلهم الكثير من روائع الفن الامبراطوري التي لا اعتراض عليها .

هندسة العمارة

كان على هندسة العمارة ، شأن النقاشة ، ان تواجه تزايداً عظيماً في الطلب . وقد وجدت هندسة العمارة بواعثها ، ونماذجها الكثيرة ايضاً ، في ابتكارات التجميل وتزيين الأبنية التي حققتها الحضارة الهلينية . أضف الى ذلك انها تفوقت على النقاشة في مطابقة الميل الروماني الى التقنية المتينة والمادية التي تتيح للبشر إثبات وجودهم على هذه الارض.

بنى الرومان كثيراً ، عمداً على عين ، بغيـة إعلاء روما فوق العواصم الكبرى في العالم المتوسطي ، والمدن الايطالية الصغرى اقله الى مرتبة شبيهاتها اليونانيات . ولكنهم في الظروف العادية بنوا بلا تبصّر ، دونما تخطيط جامع . وكان هذا الشتات ثمناً لتعاقب القضاة وتنافسهم . وكان على مجلس الشيوخ ، تلافياً لذلك ، ان يقوم برقابة مستمرة : ولكنه شغل بأمور أخرى ولم ير الأشياء من زواياها الطبيعية ، على هذا الصعيد ، بتأثير الفطنة المحافظة ، والحقيرة طوعاً. ولذلك لا نشاهد برنامجاً حقيقياً ، لا مـن حيث وفرة الأبنية الجديدة فحسب بل من حيث تلاحمها الداخلي ايضاً ، إلا حين عادت السلطات الادارية ، او اقله السلطة الادبية ، لفترة طويلة نسبياً ، الى انسان تتوفر لديه الاموال الضرورية ويرغب ، على غرار المستبدين او الملوك اليونانيين ، في تأمين العمل للكتل العماليـة وافتتان الجماهير الشعبية بالتباهي بسخائه وفرض ذكره على الاجيال اللاحقة . فحدث ان توفرت هذه الشروط مجتمعة في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، حين لم يعرف ارتقاء الطامعين حدوداً . فحتى ذلك العهد اقدم هذا القاضي ، او هذا القائد خصوصاً ، على نذر معبد ، وذاك الاخير ، لا سيما بين قضاة الاحصاء الذين كانت الاشغال العامة احدى مهامهم الرئيسية ، على تشييد معبد ملكي — كان كاتون اول من شيّد معبداً ملكياً أطلق عليه اسم بوركيا (*Porcia*) باسم عائلته ، ثم سار على خطاه كثيرون غيره — او رواق او مستودع . لكن الدكتاتورين سيلا وقيصر ، وبينهما بومبيوس ، كانوا أرحب أفقاً فصمموا أبنية كبيرة غير مألوفة ، وبمجموعات ايضاً ، وأنفقوا في سبيل تحقيقها دونما حساب بقدر الغنائم التي كدّسوها .

يجب ان تضاف الى هذه الابنية المعدة للاستعمال العام المنازل الخـاصة التي تزايدت حتى في الريف بفضل المقاصف : منازل بسيطة جداً يتكدس فيها الوضعاء متألمين من عدم توفر الاسباب الصحية وغلاء الأجور ، ولكنها اعظم اتساعاً وزهواً من ذي قبل بسبب نمو الثروات والسعي وراء الرفاهية ، ووراء البذخ الصاخب في اغلب الأحيان .

توجب اذن على مهندسي العمارة ان ينهضوا بعمل ضخم لا سيما في روما . وكان لعدد هـذه الابنية والسرعة في انجازها ذيول سنحددهـا تحديداً افضل لدى دراسة هندسة العمارة في العهد الامبراطوري الذي اتصف بها للاسباب نفسهـا . لم يكن استخدام الملاط ، وسد الفراغ في

الجدران بالرضام ، والقرميد والتلبيس التزييني اموراً مجهولة في المنطقة المستغرقة ، فاضطر المهندسون الى اللجوء اليها بصورة قياسية . وكذلك ، فاننا لن نستعرض ، الا بمناسبة درس الامبراطورية ، اهم نماذج الابنية : ظهر بعضها آنذاك ولكنها لم تعم الا فيما بعد . يكفي الآن القول بان ما يمكن رده منها الى اصول رومانية ليس كثيراً ، لا بل ان اكثر من معبد قد بني آنذاك على الطراز اليوناني . وقد اتى التكيف الضروري بطيئاً جداً ، وكان حصوله وفاقاً للتقاليد القومية ، من جهة ثانية ، اقل منه وفاقاً لحاجات المجتمع الروماني والعادات الرومانية .

فلنحاول بالتفضيل اعطاء فكرة عن العمل الذي حققه « الأباطرة » العظام في القرن الاول والذي يبشر اتساعه بالتحقيقات الضخمة في العهد الامبراطوري .

لسنا نعرف معرفة تامة ما انجزه سيلا في روما بسبب اعمال الترميم والتحوير اللاحقة . بيد اننا نلاحظ انه اعاد تنظيم حي الفوروم القديم رابطاً بينه وبين مرتفع الكابيتول المشرف عليه من الشمال الشرقي . وشيد بين قمتي هذا المرتفع دار المحفوظات التي اطلت على الساحة العامة بجبهة تبلغ ٧٠ متراً طولاً مستندة الى اساس يعلوه رواقان من القناطر . ونرى ان هذا الطابع الفخيم ، تتصف به هندسة تعتمد نوعاً من التزيين المسرحي ، كما اعتمد من قبل في برغاموس عاصمة الاطاليين ، ولكن بتناسق يتفق والذهنية الرومانية ، اشد بروزاً في معبد اله الحظ في برينستا الذي رممه ووسعه : كان هنالك عشرة سطوح منضدة على منحدر الجبل ، مع ما يرافقها من اروقة وسلالم ، تؤدي الى بناء مستدير ذي قبة ترتفع ١٢٠ متراً فوق قاعدة الجبهة . وليست هذه المدينة الوحيدة في ايطاليا التي استفادت من سخاء الدكتاتور .

اما بومبيوس فقد شرع في روما بتنظيم ميدان مارس وراء الكابيتول . فبعد عودته من الشرق ، شيد فيه اول مسرح مبني بالحجر في المدينة ، ومعابد عديدة ورواقاً ذا اربعة صفوف من الاعمدة تحف بالحدائق ، وبناء لجلسات مجلس الشيوخ .

اما قيصر فقد قصد ان يبز سلفيه . ولا سبيل لعمري لاحصاء كافة الاعمال التي قام بها في روما وايطاليا وحتى في الولايات . فهو قد شرع بشراء الأراضي وتنفيذ الاعمال خلال حملاته على غاليا ، قبل ان يصبح دكتاتوراً ، وشيد المعبد الكبير « جوليا » الى جانب الفوروم القديم . ولم يتردد في تنظيم الفوروم الجديد بعد ان نزع الاتربة والانقاض من ارضه . وقد استخدمت هذه الساحة الفسيحة — ١٦٥ م × ٧٥ — المحاطة بالاروقة ، اطاراً لمعبد نذره ، يوم انتصاره على بومبيوس ، للإلهة التي جعل منها جدة عائلته ، فينوس الام . وقد انتصب تمثال هذا المعبد تمثال الدكتاتور ممتطيا حصاناً مفلوج الحوافر على غرار اصابع الانسان كان العرافون قد تنبأوا بان مالكه سيسيطر على العالم .

هكذا قدّمت روما في تجهيزاتها وابنيتها الجديدة الدليل على التغييرات في نظامها السياسي

واخذت ترتدي شكلاً خليقا بقوتها وثروتها وخليقاً ايضاً بالرجل الذي تولى فيها السلطة . لاشك في ان التطورين، البنائي والسياسي ، سيحدثان على كل حـــال وان الموازاة بينهـما ستظهر ايضاً : فالطبيعة البشرية ، في وضع روما آنذاك ، كانت تستدعي ذلك . ولكن ما حدث انما حدث بسرعة بتأثير من سنى الحضارة الهلينية الساحر: فقد عينت هذه الاخيرة الابنية الواجب تشييدها وقدّمت اليد العاملة القادرة على النهوض بهذه المهمة بفضل تعليمها مثلاً اعلى في العظمة لا ترضى السلطة معه ، اقله للتأثير في مخيلة الجماهير ، باطـــار عادي هو دليل الشح والجهل . واذا نحن نظرنا الى ملكية قيصر من زاوية برنامجها الفني ، لرأينا انها هلينية لا رومانية .

ولكن مدينة كبرى لا تتجدد في فترة دكتاتورية دامت سنوات معدودات . فقد توفي قيصر باكراً جداً . غير ان المثل الذي اعطاه سيراود الاباطرة ابداً .

٢ ـ التطور الفكري

على الرغم من ان الحياة الفكرية في روما قد تأثرت بالحضارة اليونانية ايضاً ، فانها تتصف بمزيد من التميز . فقد كانت الحضارة اليونانية لها مهذباً وقدوة. ولكن مجرّد الاستقلال اللغوي قد تنافى والنقل بلا شرط ولا استثناء الذي سهل تحقيقه بصدد النتاج الفني . كما ان الحاجة للترجمة ، بالاضافة الى ما اوجدته من اتصال اوثق اتضح انه أعظم فائدة من حيث الاساليب ، قد افضت اقله الى التغيير والتبديل . وقد تفاوت عمق التبديل ومدى الاضافات الشخصية التي كان هو منطلقاً لها باختلاف المؤلف واللون الادبي والعهد . وقد تطلع بعضهم ، بعـــد تفكير عميق ، شطر الذرى يدفعهم الى ذلـك حنان متغطرس نحو وطنهم تجيش به قلوبهم . فصمموا على استخدام مرونة مهارة الفكر واللغة والنسق التي اعترفوا بأنهم مدينون بهـــا الى المؤلفات الاجنبية رغبة منهم في ان يجعلوا لروما تراثاً فكرياً يتفق والنزعات القومية الخاصة التي يعود الفضل في بقائها او يقظتها اليهم . واذا لم يحالفهم النجاح التام في كل الحقول ، فانه قد جاء هنا وهنالك نجاحاً لا بجدال فيه . وعند زوال الجمهورية كان الرومان قد تجاوزوا مرحلة الوعود . ففي نطاق بعض النشاطات الفكرية ومعزفة بعض العواطف والتعبير عنها نراهم وقد قطعوا مرحلة التلمذة والشراء فيما يعود لبهجة نظرهم وتزيين مدنهم ومنازلهم .

١ ـ اليقظة

شعب فلاح وراقي

ان التركيب العقلي في شعب من الشعوب ابعد من ان يبدو ، بعد التحليل ، حاصلاً بسيطاً ، كما انه لا يتثبت كما تثبت النظريات الهندسية . ولكن من يحاول تحديد وفهم هذا التركيب عند الرومان ، يرى ان مفهوم الشعب الفلاح حقيقة مازمة لا تقاوم . فان عامة الشعب الروماني التي تعيش من نشاطها التجاري تتميز منذ عهد مبكر

باختلاطها وتأثرها بالتيارات الكثيرة وبقلقها واندفاعها وحتى بقابليتها. ولكنها لا تحمل الناس على الانقياد لقدوتها . فروما لاتينية وايطالية قبل ان تكون رومانية بالذات بما لهذا التعبير من مفهوم ضيق ومدني . فان ما يعتد به في الدوجة الاولى هو الارستوقراطية الحاكمة والطبقة الوسطى اللتان تتألفان في أكثريتهما من الملاكين الريفيين القريبين من الارض المنهمكين باستثمارها شخصياً المتفانين في الدفاع عنها الموزعين اوقاتهم بين الحقول والجيش ومناقشة الشؤون العامة .

هل من داع للدهشة ، والحالة هذه ، اذا ما ساد الحس العملي والواقعي والملموس ؟ فهو قد سيطر على اللغة نفسها التي لم تدخل عليها التعابير المجردة الا في عهد متأخر نسبياً دون ان تتمكن يوماً من تبديل التيارات الصرفية والانشائية التي فرضتها عليها سمتها الاولى . وقد قام احد علماء اللغات ممن يحسنون اكتشاف الفوارق الدقيقة بدراسة « اللاتينية لغة فلاحين » و « اللاتينية لغة المحسوس » فانتهى الى ان اكثر من كلمة ذات معنى ادبي تشتق من الحياة الريفية كـ (*Egregius*) مثلاً (وهي تعني اشتقاقاً « المفصول من القطيع »)فاصبح معناها بالتالي « السامي » ، « المجيد » .

وعلى الصعيد العقلي تميز الشعب الروماني بميل قليل نحو العلوم ، لا سيما المجردة منها كالرياضيات ، ونحو الفلسفة ، وهما النطاقان اللذان شغف بهما الفكر اليوناني وغالباً ما خلط بينهما . اجل لم يعوز الرومان التفكير او الميل الى التنظيم المنطقي . ولكنهم آثروا تطبيقهما على الواقع القريب وعلى الابحاث ذات المنفعة المباشرة. ولن تغريهم العلوم قط إلا بتطبيقاتها العملية : الاحصاءات ، الاشغال العامة ، الشؤون المائية ، المساحة ، الزراعة ، الخ . ومن حيث ان الروماني مجدّ وصبور وكثير التدقيق، فانه يراقب نفسه ، ويطيب له درس الاخلاق وما يفضي اليه من قدح يتفاوت عنفاً وسخرية ؛ ومن حيث هو عضو في مجموع ، يستهويه الاهتمام بالاحداث السياسية والاجتماعية التي يطيب له تقديرها ومحاولة فهمها ؛ وهو يعتز بماضي عائلته ووطنه ويريد ان يجد فيه دروساً للمستقبل . وهذا ما سيملي عليه موقفه حين يواجه نظامين فكريين : فالتاريخ سيستهويه دراكاً لا بما يعرضه من حقيقة مجردة عن الغاية بل كامثولة في السلوك الفردي والجماعي ؛ اما الفلسفة فستستهويه بقدر ما تكون سيكولوجية اخلاقية وتحليلا لانظمة الدول والمجتمعات لا نسجاً نظرياً فحسب . ولم يفته اكتشاف ما للكلام من قوة في النظام الجمهوري ، ولكن ما اعتبره اعظم قوة هو السلطة التي توفرها للمواطن الممتاز ، كما حدده بلوت ، « الثروة والثقة والاعتبار والمجد والحظوة » ، بحيث ان البيان المنمق لم يغره قط . وبالمقابلة ، افضى به عنفه الشديد وحرصه على المصلحة والعمل الى ابتناء نظام فكري جديد هو نظام القانون : فلم يظهر الفكر الروماني في اي حقل آخر ، وبشكل افضل ، طاقاته العقلية واستعداده للتصميم المنظم وحتى لحدة التصور ، شرط الانطلاق من حالات حسية والخلوص في درسها الى وسائل حل سواها .

يجب ان نحذر الاوهام بصدد وضوح ومتانة مثل هذا التسلسل : فان التاريخ والعلوم التي تتناول معطياته لا تستطيع حتى اليوم — وهل ستستطيع ذلك يوماً ؟ — اثبات طابعه الكافي والضروري . من اليسير ان نعزو ما حدث الى بعض الجذور ، ولكنه من البساطة الكلية الاعتقاد بان ليس هنالك جذور اخرى او بان الجذور التي اكتشفنا ما كانت لتنبت فروعاً اخرى . فكم نوابت مجهولة اجهضت يا ترى ؟ وما هي التآليف الخفية المتسعة التي اتاحت تفتح ما ازدهر من هذه النوابت ؟

مهما يكن من الامر ، فليس ما ورد في بحثنا سوى امكانات فقط ، قد لا تكون الوحيدة على كل حال . وكان لا بد من تحقيقها .

اليقظة البطيئة والعسيرة .

ولكن تحقيقها كان ابطأ منه في كثير من الحقول الاخرى . فقد اجمع التقليد على واقع هذا البطء لا بل اعلنه اعلانا : لم يشعر الرومان يوماً بكبرياء لا طائل تحته في تقديم تاريخ يقظتهم الفكرية ولا في انكار فضل الأجنبي عليها اي ، فيما يعنينا ، فضل الاغريق الجلي المباشر .

قد تفضي بنا معرفة الاتروسك والشعوب الايطالية معرفة اكمل الى اطالة لائحة اقتباسات روما القديمة عنهم . ولكن هذه اللائحة حتى تاريخه موجزة جداً . فليس من ينكر اليوم بان روما مدينة بايجديتها للاتروسك الذين استمدوها من اغريق « كوم » على الارجح . اما عن الشعوب الايطالية فقد اقتبست في عهد مبكر ، لاغانيها البطولية الشفهية التي كانت تتلى في الجنائز والمآدب ، الشعر « الساتوربي » المتميز بوزن تتخلله المقاطع القصيرة والطويلة . وقد احتفلت معهم باعياد شعبية يطلق فيها العنان للتنكر الهُجري وللقدح الهازل ؛ ثم اعتمدت رسمياً ، في السنة ٣٦٤ ، الألعاب المسرحية على الطريقة الاتروسكية التي اشترك فيها الراقصون والممثلون الهزليون المحترفون ، فادخل ذلك بعض التنظيم على هذه الاعياد ، ولكن المسرح اللاتيني ، حين قام واقتفى اثر المسرح اليوناني ، قد حافظ على بعض هذه الغرابات .

اما ما تبقى فيغلب ان الاغريق مصدره المباشر منذ ذاك الحين حتى اواخر القرن الرابع . ولا يتردد البعض في هذا الاعتقاد .

تضعنا الشريعة التي حفرت ، في أواسط القرن الخامس ، على « اثني عشر لوحة » من الشبه ، امام مسائل كثيرة . فهي اجلّ أثر من آثار الادب القومي ، وقد استخدم نصها زمناً طويلاً لتدريس التلامذة . ونحن لا نعرفها إلا عن طريق استشهادات مجزأة لا يتيسر جمعها وفاقاً لترتيبها الاصلي بصورة أكيدة . اضف الى ذلك عقم البحث فيها عن نظام قانوني حقيقي : فهي قد وفّرت سلسلة من القواعد المختلفة المصادر التي يعود بعضها الى ماض جاف وينم بعضها الآخر عن أفكار أكثر انسانية . واذا ما صدقنا التقليد ، فقد استلزم تحضير تحريرها ارسال مفوضين يستفسرون في البلاد اليونانية ، حتى اثينا ، عن شرائع صولون . بيد ان الرومان يتباهون

باطراء تفوق القانون المدني الذي حدّدته على قانون أية مدينة يونانية . ولكن قيمة هـذا التقليد وهذا الحكم موضوع نقاش بين المعاصرين . وتقوم أهمية هذه الشريعة التي لا نزاع فيها في انهـا حددت ونشرت للمرة الاولى قانوناً واحداً لكافة المواطنين . فاذا كان جلياً ان الرومان قد استوحوا في عملهم هذا المثل الذي أعطاه الاغريق منذ زمن بعيد ، فان هـذا التأثير سياسي واجتماعي لا فكري .

هل يجدر بنا ان نذهب الى ابعد من ذلك بصدد ابيوس كلوديوس « الاعمى » قاضي الاحصاء العظيم في السنة ٣١٢ ؟ فهو قـد تقدم الرومان النبلاء المولعين بالالسنية فطبق الابجدية على العلم اللاتيني في تركيب الاصوات . لم يكن حرف C الأصمّ كافياً لهذا العلم ، فأوجد من ثم ، — ولكن الرومان لم يتخلوا عن عادة كتابة « *Caius* » الذي يلفظ *Gaius* — الحرف G وأحله محلاً أصبح شاغراً بعد إقصاء الحرف Z النافل . وكرّس زوال الحرف S بين حرفي علة وابداله بالحرف R : فـ « *Fusius* » مثلاً أصبح « *Furius* » . وقد تقدم ايضاً ، على ما نعلم ، سلسلة نبلاء الرومان الذين افتخروا بالكتابة المفيدة ، في مواضيع عملية ، فألّف بحثاً قانونياً ومجموعة حكم اخلاقية منظومة . وقد رأى بعض القدماء أنفسهم ، في هذه الحكم ، أثر حكم بيثاغوروس الذي ما زال مذهبه منتشراً في اليونان الكبرى والذي تجعل منه الاسطورة معلّم الملك نوما. ولكن النتف القليلة جداً التي بلغت الينا من مؤلفاته لا تسمح لنا بالفصل في ما دان به هـذا المجدّد للحضارة الهلينية .

سرعة انتشار اللغتين معاً

غير ان بعض الشيوخ الرومانيين ، منـذ هذا العهد ، قـد تكلموا اللغة اليونانية. ولكنهم كانوا عادمي الحذاقة فيها: ففي السنة ٢٨١ استقبل احد الموفدين الرومانيين بسخرية سامعيه حين خاطب سكان طارنتا بلغتهم . ويدل ذلك ، فيما يدل ، على ان المجتمع الراقي ، الذي يغلب انه امتلك عبيداً يونانيين او مستغرقين واستخدمهم « مربين » ، قد شعر بحاجة الى « لغة ثقافـة » حين لم يجد في التراث القومي ما يرضي بعض الاذواق ». وما لبث فتح ايطاليا الجنوبية، ثم فتح صقليا بفضل الحرب البونيقية الاولى ، ان زادا سرعة هذه الحركة .

ارتفع عدد العبيد الاجانب ارتفاعاً عظيماً . وأتى رجال أحرار وأقاموا في روما وفتحوا، على غرار المعتقين مدارس علموا تلامذتهم فيها اللغتين اللاتينية واليونانية في آن واحد . فتعين اذ ذاك ، لقرون عديدة ، استخدام اللغتين على كافة العائلات التي فرضت على أبنائها متابعة دروس لا تقف عند حد الدروس الابتدائية . وما كان هذا المثل الأعلى ليبقى اضغاث احلام ، وليس نجاحه الشامل في حقل التربية اقل ما يدعو الى الدهشة في تاريخ روما الثقافي .

منذ اواخر القرن الثالث واوائل القرن الثاني أصبح باستطاعة بعض الرومان المريقين ان يضعوا باللغة اليونانية مؤلفات هامة . فان موفد مجلس الشيوخ الى دلفي بعد معركة « كانا » ،

ك . فابيوس بيكتور ، قد كتب باليونانية « اعمال الرومان » ، وحذا حذوه احد معاصريه : ويبدو ان ما دفعهما الى ذلك ليس حرصهما على تأدية الاكرام الواجب لمهارة المؤرخين اليونانيين التي ما كانت اللغة اللاتينية لتسمح لهما ببلوغها ، بقدر رغبتهما في تعريف الاغريق بماضي مدينة اخذت عظمتها في الامتداد الى عالمهم . ولم ينتظر كاتون نفسه سن الشيخوخة ، على الرغم مما جاء في تقليد معين ، حتى يتعلم لغة شعب بدا له انحطاطه داءاً سارياً : فقد كان في الخامسة والعشرين حين أتاحت له مصادفات الحرب البونيقية الثانية وبطاقات السكن ان يتلقى دروساً في البيثاغورية في طارنتا ، واذا هو اسم استخدم ترجماناً خلال جولته الدبلوماسية في اليونان ، فقد تظاهر بالجهل ، كما يوضح بلوتارك ، بدافع من الغطرسة القومية ، وفي العقد الاول من القرن الثاني بدا بطل « سينوسيفال » ، تيتوس كوينكتيوس فلامينينوس ، للاغريق كواحد منهم يحادثهم ويداعبهم : وقد حررت ونقشت باليونانية كتابة اهداء التمثال الذى نصب له في روما . وقد نشر والد الاخوين غراكوس خطاباً ألقاه في رودوس باليونانية : ومما يثير الدهشة عدد المفردات اليونانية التي يستعملها حتى الكتاب الذين يوجهون كلامهم لحشد شعبي « كبلوت » مثلاً — وهذا يكفي لاستبعاد المقارنة بينه وبين رونسار — مقتصرين على انهائها وفاقاً للطريقة اللاتينية : ومن حيث ان عامة الشعب المدنيـــة هي في الاصل مختلفة الاجناس وتشترك بفضل حركة المرفأ التجارية ، في حياة اعظم اتساعاً ، فانها قد احتكت باليونانية على الاقل في اختلاطها اليومي بالعبيد والمعتقين .

شعراء العظمة الرومانية الأولون

ولكن غزو اللغة هـــذا ، من حيث هو رافق في الزمان نقل روائع الفن اليوناني بالجملة الى روما ، قد أسفر عن نتائج مختلفة جداً . فبدلاً من ان ينجم عنه استسلام فاتر ، رافقه مجهود واع لتزويد روما بشعر لاتيني . بدا الادب أبسط بوادر النشاط الفكري ، لأن اللغة واقع راهن ، ولأنه في متناول الجميع . وقد وفر الشعر ما لم يحسن توفيره النثر المخصص للحاجات التقنية التي لا شأن للفن فيها ، أي شكل التعبير ، وهو أكثر اغراء ، بفضل روابطه بالموسيقى ، وأكثر انطباقاً على حاجات الحيـــاة الدينية والجماعية ، بفضل تسهيلاته التذكيرية . وقد نهض بهذا المجهود الاختياري المتواصل أسمى النبلاء اعتباراً بالاتفاق مع الاجهزة الرسمية . فطلب مجلس الشيوخ قصائد تناسب الظرف خلال الحرب البونيقية الثانية ؛ وشجع التمثيليات المسرحية بمضاعفة الالعاب وزيادة محصصاتها ؛ واجاز إنشاء هيئة من الممثلين والمؤلفين تجتمع في احـــد المعابد . فلما احرزت هذه المشاريع نجاحاً تاماً ، ولكن يجدر بنا حقاً ألا نستهزىء بالنتائج .

لم يكن المؤلفون الاولون من اصل روماني . انتسب باعث الحركة ليفيوس اندرونيكوس (*Livius Andronicus*) الى طارنتا التي جعل منه احتلالها عبداً — في الثامنة من عمره اذا كان المقصود حادثة السنة ٢٨٢ . أصبح مربياً في عائلة من قبيلة (ليفيا) الكبرى وأعتق منذ السنة

٢٤٠ كأبعد حدّ حين أخرج أولى مسرحياته « القانونية » أي المنطوية على مغزى متواصل . وجاء الآخرون ، وهم من الاحرار ، من ايطاليا الجنوبية حيث استساغت الحضارة اليونانية ، منذ امد بعيد ، طبقات بلدية كبيرة . اما نافيوس ، وهو مواطن اشترك في الحرب البونيقية الأولى ، فكان كمبانياً ، وان مطالبته بحرية القول التامة وجرأته في انتقاد العائلات الكبرى التي أدّت به الى السجن ، وربما الى الموت في المنفى ، لا يفسرهما تشاخه بمواطنيته الرومانية فحسب : اذ اننا نلمس فيهما صدى الفردية اليونانية المتأججة . اما اينيوس الكالابري اخيراً فكان جندياً « حليفاً » في اواخر حرب هنيبعل حين اختاره كاتون وأحضره الى روما حيث حمـــاه شيوخ نافذون : ضمه احدهم الى حاشيته خلال حملة في اليونان واستحصل له ابنه على حق المواطنية . ففتح ، على غرار ليفيوس ، مدرسة يونانـــية – لاتينية في روما . يتضح من ثم ان الحضارة اليونانية انمـــا اثرت في نشوء الادب اللاتيني عن طريق رجال طبعتهم الى حدّ بعيد بطابعها الخاص .

أبدى هؤلاء الرجال نشاطاً واسعاً جداً بغية تحقيق نتاج متميز في كل الحقول . فألف كل من الثلاثة في مواضيع شتى : المآسي والمهازل والملاحم وقصائد المناسبات ، لا بل ان اينيوس قد وضع بعض الابحاث الفلسفية . وقد توجب عليهم النسج عـلى منوال الاغريق الذين غالباً مـــا اقتصروا على تقليدهم ، لا بل على النقل عنهم كما فعـل ليفيوس اندرونيكوس بصدد الاوديسه (*Odyssée*) . واستوحوا التمثيليات اليونانية ، فاختاروا لمآسيهم احداثاً ميثولوجيـــة عالجها أوريبيد من قبل ، او أي مؤلف يوناني سواه ، وجمعوا احياناً مهزلتين يونانيتين في مهزلة واحدة وفاقاً للطريقة المعروفـة « بالإعداء » . ولم يتردد نافيوس احياناً في إلباس بعض مهازله اسمـاء يونانية صرفة : اكونتيزومينوس *Akontizoménos* « الرجـــل المصاب بالنبلة ») أو كولاكس (*Kolux* « المتملّق ») . ولم يتراجع اينيوس ، الذي أهمل الوزن « الساتورني » الممل واعتمد وزناً دونه مقاطع قلّد به وزن الشعر اليوناني ، أمام قصيدة تعليمية ، ورد فيها ان هذه او تلك من الأسماك أو من الأصداف ، لا قيمة لها إلا اذا كان مصدرها هذه او تلك من المدن اليونانية .

مهما يكن من علاقة هؤلاء الشعراء بالحضارة اليونانية ، فإنهم عـلى الرغم من ذلك اعطوا الشعر اللاتيني استقلاله . واينيوس هو الوحيد بينهم الذي وصل الينا منه أكثر من نتف حقيرة : ٦٠٠ بيت شعر من ملحمة بلغت أبياتها ٣٠٠٠ . وهو لا يزال فيها متصنعاً ومتلبكاً على الرغم من تقدمه الملموس بالنسبة لسابقيه . فقد كتب : « لم يهتم أحد من قبلي لفن اتقان الكلام » . ولكنه ، على ما يبدو ، افرط في هذا الاهتمام ، بينما هو مـا كان ليستطيع الاعتماد على لغة مرنة وذوق سليم . لذلك فقد برهنوا كلهم عن تردّد وخشونة وصبوة . ولكنهم كلهم كانوا عند حسن ظن الارستوقراطية الحاكمة التي ما كانت لترضى بأن يبقى وطنهـــا خالياً من الاناقة الضرورية . فعرفوا كيف ينشئون مسرحاً رومانياً ، حافظ ، على الرغم من اقتباساته عن المسرح اليوناني ،

على بعض التقاليد الايطالية التي كانت من جهة ثانية قد اثرت في المسرح في اليونان الكبرى وصقليا . وحاولوا بنوع خاص معالجة المواضيع القومية . ويبدو ان الأوديسة نفسها التي نقلها ليفيوس اندرونيكوس – منهلاً الالياذة – قد اختيرت عن قصد لأنها تأتي بأوليس(*Ulysse*) الى ايطاليا ، وتوحي بأنها ملحمة ادرياتيكية لا ايجية . وازداد بروز الناحية القومية في مؤلفات نافيوس . فقد دعيت احدى مآسيه « روموليوس » ؛ وكان موضوع مأساة اخرى اسمها كلاستيديوم ، النصر الذي أحرزه الجيش الروماني ؛ في جوار هذه المدينة ، على الغاليين، حين أقدم القنصل م. كلوديوس مرسلّوس ، في السنة ٢٢٢ ، على قتل الملك(فيردومار) بنفسه . أما ملحمته فهي « الحرب البونيقية » التي تنطلق من« اينه »و«ديدون»، قبل ان تصل الى قصة الحرب الاولى ضد قرطاجة بما فيها المعاهدة النهائية التي وضع نصها شعراً . أما اينيوس فقد عالج مؤلفه العظيم « الحوليات »، (*Annales*)بجمل تاريخ روما بنَفَس ملحمي حقيقي احياناً ، أقله في القسم الأول الذي ينتهي بهزيمة هنيبعل ، بينما يتناول القسم الثاني ، على مر السنين ، الاحداث التي عاصرته .

وهكذا ، خلال ثلاثة ارباع القرن تقريباً ، اي من السنة ٢٤٠ حين اخرج ليفيوس اندرونيكوس مأساته الاولى ، الى السنة ١٦٩ حين توفي اينيوس ، كان مجهود المسؤولين المتأثرين بجمال الادب اليوناني آخذاً باعطاء ثماره : أفرغ الفكر الروماني الفخور بماضيه وبتميزه في قوالب لا يمكن ان تقتبس الا عن اليونان لانه لا يمكن تصور قوالب اعظم كمالاً .

بلوت *Plaute*

خلال العهد نفسه برز شعراء آخرون، ولكن شاعراً واحداً هو في نظرنا اكثر من مجرد اسم : بلوت ، الذي ولد ومات قبل اينيوس بخمسة عشر سنة تقريباً والذي يجب ان ندرسه على حدة لانه يختلف كل الاختلاف عن السابقين .

نحن هنا امام ايطالي من شمالي روما ينحدر من اصل شعبي على الارجح ويمارس اكثر من مهنة قبل ان يتعاطى المسرح ويتعلم اليونانية اتفاقاً ، كلما سمحت له حياته المضطربة بذلك في الأرجح : الآخرون احرار في التفكير بارضاء وتثقيف جمهور راق . اما هو فلا اعتبار عنده الا للجماهير التي يعرف لغتها وآراءها السائدة وجهلها للدقة العاطفية وغبطتها الفطرية الزاخرة في ايام الاعياد . فهي الجماهير التي اخذ على نفسه اضحاكها معترفاً دون خجل بان المال الذي يدفعه له ملتزم المشاهد يؤمن حياته المادية . ولكنه ، بفعل قربه اليها ، يسر باطلاق العنان لقريحته الشخصية . ولذلك فالمواعظ ليست قسمته ، واذا برز وطنياً يحتقر الاغريق راضياً ، فبدون غطرسة وادعاء وجفاء وتذمر ، بل اقتناعاً منه بواقع تفوق جلي تثبته الانتصارات المتكررة : لا تشغله قط ابهات ماضي روما ولا هموم المستقبل ايضاً . وليس في مؤلفاته ملحمة او مأساة. ولا يريد ان يكون سوى شاعر هزلي، مع انه طرق المأساة – المهزلة مرة واحدة في موضوع مقتبس عن الاسطورة، امفيتريون *Amphitrion* .

قبل ذلك بقرن، طرق سيراكوزي الموضوع نفسه بالطريقة نفسها : لذلك فبلوت لم يكن مجدداً. وهذه هي حاله في تمثيلياته الاخرى ، التي بلغت الينـــا باتفاق هو اشبه بالمعجزة : فمن اصل الاحدى والعشرين تمثيلية التي اعتبرها فارون اصلية في عهد قيصر ، وصلنا عشرون تمثيلية كاملة ونتف من الحادية والعشرين . لا ريب في انه لم يضع النماذج الجـديدة ؛ ولكن يجب الا نأسف لذلك حتى نتمكن من الحكم على بلوت : فهو يتباهى بالانتحال رغبة منه في ارضـــاء مشاهدين شغفين بالتمثيليات التي لا يعرفونها الا بما ذاع عن مرحها ، ونحن نعلم من جهة ثانية انه لا يحجم عن التركيب والتشويه كما يطيب له ذلك . وتسيطر الركاكة ايضاً على عقدة مهـازله التي هي في نظره مجرد لحمة ينسج عليها المشاهد التي تعجبه . واذا كانت افضل « مهزلة جديدة » هلينية قد نوعت درس الامثلة البشرية والسجايا والعواطف ، فان بلوت لا يحفل لهذا الدرس ايضاً . وليس ابطال تمثيلياته سوى دمى متحركة او ادوار مكرسة : شيخ قاس او حليم ، شاب مبذر ، فتاة ذات جاذب ، عبد محتال ، تاجر عبيد وقح وطفيلي ، جندي مجيد ، الخ . الحياة مفقودة فيها ، والناحية الهزليـــة صنعية مبتذلة . ولكن الضحك الجديد ينفجر من المواقف التي تبتكرهـــا وتنوعها مخيلة لا تعرف الملل بجموح طليق من كل رادع لا يخشى التحـكم ويثق بتوفير التسلية بالتسلي، فيكثر من المفاجآت والالتباسات والحركات والسورات في المهزلة . وينفجر كذلك من الكلمات وتصادم الاجوبة البديهية السريعة والدعابات والشراسات الكلاميـة التي تستخدم مفردات لا ينضب لها معين بفضل الاقتباسات المختلفة والمشتقات المضحكة المستنبطة . ويوفر التحريف اخيراً قسماً هاماً — بينما يسحر القسم الآخر بلمعان شعره — من القطع الغنائيـــة المنشدة ، الغزيرة جداً اذ انهـــا تشغل ثلثي التمثيلية احيـــاناً ، التي تمثل تراث المسرح الايطـــالي .

وهكذا فان بلوت ، على غرار شعراء عصره ، يفرغ في قوالب يونانيـــة مادّة رومانية ، ولكنها مادة من طينة أخرى : لا العظمة الارستوقراطية التي تريد ان تسمو بالنفوس حتى تتفوق على نفسها ، بـــل المرح الشعبي الذي يحييه نسغ التربة القادر . ومن المؤسف ان ينتهي الانحدار المادي والاخلاقي في عامة الشعب المدنية والاهتمام لكرامة رسمية الى وضع حدّ ، بعد ذلك ، لهذا الانفجار الطليق المستعذب .

٢ ـ مقاومة الحضارة اليونانية وانتصارها

كاتون والصراع ضد الحضارة اليونانية

ان كاتون نفسه لا يجسّد مثل هذه الحركة إلا بصورة جزئيـــة ، زائلة ، وغير حاسمة على كل حال. اجل يجب ان يحسب حساب لبلاغته حيث لا يعوز حمّة المعنى ، في المبنى ، لا الافتان ولا الجرأة : عشرون سنة فقط تفصل ولادته عن ولادة بلوت ، واننا لنجد في بعض نبرات قريحته الساخرة « الرجل الجديد » المنحدر من طبقة الفلاحين، ان لم يكن من طبقة الكادحين . ولكن التبدل الحاصل تبدّل في

الفكر المتصلب تصلباً يائساً في صراعه دفاعاً عن مفهوم قديم – لا بل ضيّق – للحضارة الرومانية والحضارة الايطالية في الوقت الذي برز امامها المزيد من الامكانات لكي تطلا على بشرية ارحب .

ان هذا الانسان يفضل الدور الذي يريد ان يلعبه : ولا تتوصل خشونته المصطنعة الى اخفاء ثقافته . ووراء دوره الاجتماعي وقيمته كمثل اجتماعي اللذين اضطررنا للالماح اليهما اكثر من مرة، يجدر بنا انلا نصغّره لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الأدبي. وليس كونه اقدم ناثر لاتيني وصلت الينا بعض آثاره ما يسترعي الاهتمام فيه، ولا يمكن من جهة ثانية ان يكون الاهتمام له من هذه الزاوية الا نتيجة مقارنته بمن سبقوه ، وهذا امر مستحيل . ولكن غرابته عظيمة ومؤلفاته اعظم . حرص على الديمومة بشهرته وعمله وعرف ان المناقشات السياسية لا تؤمّنها ، فصمم على الكتابة وكتب ونشر دون كلل. ليس من لون ذي شأن الا وطرقه : خطب وادب وتاريخ وحِكَم وقانون وفن عسكري واقتصاد ريفي . وقد جدد معالم هذه الالوان احياناً ، كما فعل في التاريخ الذي طارد فيه غطرسة الاشراف حتى انه لم يذكر في « الاصول » اسماً علماً غير اسم احد قبلة بيروس ، والذي وسع آفاق دراسته فتخطى روما الى ماضي المدن الايطالية . والشعر في نظره تبلد ؛ ولكنه اكتشف اينيوس ، ولم ينتقد الا في عهد متأخر جداً، الحماية ، النفعية في نظره ، التي احاطه بها نبلاء يكرههم . وقد استسلم عند الحاجة الى الصنعة الفنية ولكنه حاول اخفاءها جهد المستطاع . وهو قد آثر في كل ذلك الظاهر الخشن على الواقع .

ولكن انى لنا ان ننسى انه يوجه الى الفكر الاجنبي ، اي اليوناني ، تهما واحقاداً تعميه ؟ فهو لم يرض سوى مرة واحدة بالتمييز بين الاطلاع المفيد على ادب الاغريق الذي قد ينطوي على اشياء ممتازة وبين درسه المتعمق المضر . امطر بلواذعه الشنيعة كافة اجدادهم : سقراطهم ، الفصيح الثرثار الفاسد ؛ وايزقراطم ، التافه ؛ واطباؤهم السفاحون المحلفون لتقتيل جميع « البرابرة » ، الذين لم تعوزهم الحيلة لايجاد الثقة في حمل المرضى على دفع اجورهم . ان في مثل هذه المبالغات مثاراً للقلق في كل نفس .

كان النجاح حليف الحركة التي جسدها ، في فترات قصيرة ، ضد الفلاسفة وعلماء البيان الذين يلقون دروساً غوغمية ، ولا سيما ضد الابيقوريين ، الذين تمنى احدهم ، فابريكيوس – فابريكيوس روسو – منذ اوائل القرن الثالث ، لو ان مذهب « اللذة » يستهوي اعداء روما دون غيرهم : في السنة ١٧٣ اقصي اثنان من ممثلي هذه الطائفة . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اتخذ تدبير مماثل بحق جميع الباقين بتهمة تعليم مبادىء نظرية وعملية تسيء الى المبادىء الاخلاقية التي يرتكز اليها بناء الدولة . ولكن جاء غيرهم ، حتى من برغاموس واثينا احياناً ، بصفة موفدين : فاستفادوا من الانتظار الذي يفرض عليهم والقوا المحاضرات . ويعود اشهر حادث

من هذا النوع الى السنة ١٥٥ حين اوفد الاثينيون ، على جناح السرعة ، الى مجلس الشيوخ ، رؤساء المدارس الفلسفية الثلاث الرئيسية ، الرواق والكلية والأكاديميا . فكان ان ممثل هذه الاخيرة بنوع خاص ، وهو كرنياد ، قد سحر مستمعيه بالرشاقة الجريئة التي اتصف بها جدله غير الحافل بالآراء السائدة والقادر على الدفاع ، على التوالي ، عن نظريات متناقضة . حينذاك استصرخ كاتون الناس على الفضيحة وحث مجلس الشيوخ على الفصل سريعاً في القضية الدبلوماسية ، « حتى يعود الموفدون الى مدارسهم ويناقشوا ابناء الاغريق ، وحتى يخضع ابناء الرومان ، كما في الماضي ، للشرائع والقضاة » . يتضح من ذلك وجه الخلاف : ترويض الفكر الفردي ويقظة الروح النقدية هنا وقبول الانظمة التقليدية ككل وكعقيدة هنالك . وهو لا يختلف في الحقيقة عن المسألة التي أثارها في وجه الاغريق ، في القرن الخامس ، تعليم السفسطيين . وهي مسألة حاضرة ابداً يجيب عليها كل منا على طريقته الخاصة . ولكن هل يحق لأولئك الذين ترفعهم هذه الأنظمة الى السلطة وتثبتهم فيها ان يفصلوا في هذه المسألة باسم المواطنين ؟ ومن يجرؤ على الجزم بان رومان ذاك العهد قد بلغوا التقدم الذي يتيح لهم طرح هذه المسألة على انفسهم ؟

ندوات الثقافة اليونانية في القرن الثاني

غير ان النظام المجلسي اعجز من ان يقدم على تنظيم حياة المواطنين الخاصة ، اذ ان من توفرت لديهم الوسائل المادية كانوا مطلقي الحرية في السعي وراء كل اناقة فكرية . فقد راجت رواجاً لم يسبقه نظير سوق « المهذبين » اليونانيين ، واخذ اوسع النبلاء نفوذاً ، ممن تفرض عليهم وظائفهم الاسفار المتكررة الى الشرق والاقامة فيه ، يستميلون رجال الفكر من الاغريق ويستقبلونهم في منازلهم الرومانية استقبالاً ودياً ضنوا به على الفنانين الذين لم يميزوا بينهم وبين الصناعيين تمييزاً واضحاً .

تألفت من ثم عدة ندوات للثقافة اليونانية في الارجح. فكان هنالك ندوة في كنف الاخوين غراكوس ، وليس اقل ما يميزها الدور الذي لعبته فيها امرأة ، هي والدتهما كورنيليا ، الراغبة في ان تؤمن لابنيها ، بعد ان اصبحت مسؤولة عنهما بفعل إرمالها المبكر ، خير تربية وتفتح صفات الرجولة فيهما. فبرزت ردة فعل محافظة عنيفة ضد بعض الأغريق ممن نسب لهم اعداؤهم تأثيراً مشؤوماً : فاعدم احد علماء البيان وطبيباريوس وابعد فيلسوف رواقي .

وتنبئنا المصادر القديمة ، لا سيما بوليب وشيشرون ، بوجود ما اتفق على تسميته بـ « ندوة شيبيون اميليانوس » . احاط والد هذا الاخير ، بولس ـ اميليوس ، طفولته وفتوته بمعلمين يونانيين وكتب يونانية ، ولم يحتفظ لنفسه من المغانم التي اسقطها في يديه القضاء على الملكية المقدونية ، سوى بمكتبة الملك « برسيه » بغية اهدائها ابناءه. وبعد مرور سنوات عدة ، صادق الشاب بوليب الذي كان قد نفي الى ايطاليا وابقي فيها سبعة عشر سنة مع غيره من الآخيين . وعاش معه حياة حميمة كانت جزيلة النفع لكليهما ؛ فدان بوليب له بسهولة الانتقال وسهولة

الاستطلاع اللتين اتاحتـــا له تصميم وتحرير « تواريخه »، بينما استفاد شيبيون من خبرة صديقه العسكرية ومن ثقافته الفلسفية . وبعد ذلك بزمن استُقبل الفيلسوف بانايتيوس الرودسي، بحدد الرواقيـــة ، بدوره ، في بطانة ذلك الذي سينتصر على قرطاجة ونومانس . وقد اشترك في احاديثهما رومانيون عديدون ، اقارب واصدقاء ينتسبون الى العائلات الكبرى ، ممن يتدرجون في « سلم الامجاد » . وكي لا نحصيهم كلهم نقتصر على ذكر كايوس لاليوس وسبوريوس موميوس ـ سبق لنا وتكلمنا عن اخيه ـ الذي يكفي وجوده في هذه الجمعية لالقاء الشبهة على سمعة الفظاظة التي الصقت بهادم كورنثوس . هؤلاء الرومان هم الذين يطيب لشيشرون نسبة الحوار اليهم في مؤلفاته الفلسفية ، واذا هو لم يهتم ، في ما يعنينا ، للأمانة في التاريخ ، فانه يعيد امـــام اعيننا جواً واقعياً لثقافة رفيعة ورقيقة . اضف الى ذلك ان هذه الندوة قد نادت الى حـد بعيد بمبدأ الاختيارية الاجتماعية وبسطت حمايتها على احد المعتقين ، هو الشاعر تيرنس ، فانتشرت شائعات ـ لنتذكر هنا النظريات العصرية المماثلة في موضوع شكسبير ـ عزت الى شيبيون ولاليوس ابوة مهازله : ترهات لا قيمة لها لعمري ، ولكنها قد تكون مستوحاة من بعض النصـائح المعطاة في اطار ضيق .

ينتشر حتى اليوم سحر اخاذ من مثل هذه الندوات التي يجتمع فيها عظماء هذا العالم تسهيلاً لاحتكاك الآراء وبحثاً عن بهجات الفكر . ولكن يجب ان لا نتجاهل خطرها الذي تعرضت له الارستوقراطية الرومانية في القرن الثاني لاسيما وان الثقافة التي تهلل لهـــا ثقافة اجنبية . فخطرها كامن في التنكر لميزة الخلق القومي والانقطاع عن القوى التي تنعش الشعب وتفجر فيه حياة خالصة طبيعية دائمة الجدّة. اضر التصدع بالشعب لانه حرمه من عضد فكري كان على النخبة ان تؤمنه له . وقد اضر بالنخبة ايضاً لانه قادها الى البرودة والكلفة .

أدب الثقافة اليونانية

ان هذه الندوات لم تبلغ هذه المرحـلة بعد ، أو ان المصادر لا تقدم الدلائل الواضحة على ذلك . ولكن الادب اللاتيني ، على أي حال ، لم يفِ آنذاك بالوعود التي قطعها في اوائل القرن الثاني .

كان من بعض نبلاء الرومـــان ، كبولس كورنيليوس شيبيون ، ابن الافريقي ووالد اميليانوس بالتبني ، ان ذهبوا بالمغالطة ، الى الكتابة باليونانية . فوضعوا بنوع خاص كتبـــاً تاريخية و « حوليات » ، وكان فابيوس بيكتور أول من أعطى المثـل . ولكن السبب الذي دفعه الى ذلك قد زال منذ زمن بعيد ، وكان الظرف مؤاتياً لقريحـة كاتون التي لا ترحم ، فثار على واحد منهم لم يكتف بمثل هذا المقصد الغريب ، بل شعر بحاجـة لطلب المعذرة عن خرقه؛ فقد بلغ من هؤلاء الرومان انهم اعتقدوا بأن التاريخ الذي ابتكره الاغريق وأشهروه لا يمكن ان يكتب إلا بلغتهم : لم يعتبروا ان النثر اللاتيني قـــد بلغ النضج اللازم ، ولم يثقوا ، في سرد الاحداث الرومانية ، إلا بمرونة الأداة التي استخدمها معلمون أثاروا اعجابهم .

بيد ان بعض مؤرخي الحوليات ، قد كتبوا ، منذ هذا العهد ، باللاتينية ، وبديهي ان هذه اللغـــة كانت لغة الخطباء . فقد جُمعت ونشرت خطب عديدة سعياً وراء الشهرة الأدبيـة والدعاوة ، لا سيما منذ الأخوين غراكوس اللذين وسع عملهما حقـل المنازعات السياسية وزاد في حدّتها . لم يصل الينا أي نص كامل ، ولا نستطيع ابداء رأينا في هذه البلاغة إلا بمـا نقل عنها فقط أو ببعض مقتطعات ، أهمها ما بلغ الينـــا من كايوس غراكوس . تبدو فيها البلاغة ، على الطريقة اليونانية ، على شيء من تحريك النفَس المصطنع والغليظ . ولكن طيباريوس غراكوس، على الرغم من الحرارة التي تجيش فيه ، قد أدرك قيمة صحة اللغـة والاعتدال كما أدرك أخوه ، المتفوق عليه تأثيراً ، قيمة الإيقاع. وهكذا نشأت الفصاحة اللاتينية كعـلم وفن ، بفقدان بعض بداهتها ونضارتها .

لم يقضِ تقدم النثر على تفوق الشعر . حاد هذا الأخير عن الملحمة وانكبّ عـلى المسرح بنوع خاص. وما فتىء ازدياد الألعاب يحمل على طلبٍ عظيم جداً على الرغم من اعادةالتمثيليات مراراً ، فكانت النتيجة نتاجاً وافراً في المآسي والمهازل . وهنا خصوصاً ، يبرز تيـار الثقافة اليونانية بقوّة .

أعار النقاد القدمـاء ، شعراء المآسي اهتماماً كبيراً آنذاك . أمـــا نحن فلا نعرفهم إلا بالمقتطعات التي وصلت الينـا منهم ، ونرى خصوصاً انهم ولعوا بسعة الاطلاع وبالكلاسيكية الصافية ، فتوجهوا آنذاك الى سوفوكليس واسشيل مفضلينهما على أوريبيد . وعلى نقيض ذلك، فقد بلغت الينا المهازل الست الوحيدة التي ألّفهـــا تيرنس العبد الافريقي المعتق — من أصل قرطاجي لا نوميدي على الأرجح — الذي أدركته المنية قبل سن الثلاثين : فهي تنطوي عـلى صفات وسيئات الالهام المراقب وتمّ عن اتصال حصري بالأدب الأجنبي .

ولد تيرنس حين توفي بلوت . وبين هذا وذاك عالم حضارة منظمة وموسّعة ومصعّدة . فعلى غرار بلوت ، اقتبس تيرنس عن المهزلة الجديدة الهلينية ، لا سيما عن مينانذروس والسائرين على خطاه ، مواضيع تمثيلياته التي احتفظ بأسمائها . ولكنه ، شأن الذين نقـل عنهم ، يتوفق الى تصور عقدة محكمـــة متماسكة . يعرض عن المشاهد التحكية والفواصل الموسيقية . فينتقل من المداعبة الى المهزلة التي تسيطر الوحدة على مختلف مشاهدها . واذا ما حافظ على أمثـلة الأبطال التقليديين ، فانه يعرف كيف ينوعها ، وقـــد ينجح في طبعها بطابع مميز أحياناً اذا أحسن فحص الطبـــاع . ويتفق التحليل السيكولوجي ، الدقيق والمؤثر ، عند الشعراء اليونانيين ، ونزعاته الخاصة : فهو يعتمده ويتوسع فيه ويدخل عليه مفارقات قد تكون شخصية . فهـــل يعني ذلك انه يتسامى فوق ما تسامى اليه بلوت من حقيقة ؟ نعم ، اذا كان المقصود حقيقة عامة أو مجردة ، اذا صح التعبير . اما اذا كان المقصود حقيقة رومانية فيختلف الأمر . يعوزه فتنـة المشاهدة بأم العين : وهو لا يدعي ذلك على كل حال ، اذ ان روايته تدور فصولهـا في البلدان

اليونانية التي رآها للمرة الاولى حين توفي فيها . أما بصدد مراقبة الاخلاق ، فان اتجاه تفكيره يحمله على ان يرى التفاهة بدلاً من حمله على الاستشاطة غيظاً . ان فهمه اوسع من ان لا يعذر ويغضي . وأفضل ما يصفه جملة يضيّق النص صداها ولكن طاب للقدماء ان يوردوها مفصولة عن النص ويجعلوها بمثابة مجاهرة بعقيدة ايمانية : « أنا انسان ولا شيء في نظري ، مما هو بشري ، بغريب عني » .

كثير من الاناقة اذن : وربما مزيد من الاناقة المفرطة في الارستوقراطية ، مع مزيد من الدقة والفكر الواعيين . ولا تلاحظ هذه الرقة إلا عند القراء ، اذ ان وحدة المنوال ، على المسرح ، تخفيها . فلا عجب من ثم اذا تذوقت الجماهير الرومانية هذه الميزة ، بينما هي طالبة ضحك ، دونما اهتمام للنوع . فان « الحماة » (*L' Hécyre*) قد أخلت المسرح مرتين قبل ان تحظى بالاصغاء حتى النهاية : في المرة الاولى اعلن عن مصارعة ورقص على الحبال ، وفي المرة الثانية عن معركة بين مسايفين . هذه اماليح ، حقاً ، ولكنها ستؤدي الى نتيجة لأن لها مغزاها . فالمسرح الروماني سيزول منذ اواخر القرن الثاني وستخلفه كل المشاهد الاخرى : أفليس مردّ ذلك الى انه لم يعرف كيف يسمو باولئك الذين اسندت اليه مهمة التوجه اليهم دون ان ينزل هو نفسه الى مستواهم ؟ فالمسرح الاثيني لم يقطع الأشواط بسرعة قبل ان يثقف مشاهديه .

نشوء الهجاء : لوسيليوس (*Lucilius*)

لم يكتب لوسيليوس للمسرح ؛ ولكنه ، لو فعل ، ربما خدمت صفاته المهزلة . واذا ما انتمى هو ايضاً الى ندوة شيبيون اميليانوس ، فانه قد عاش قرابة ثلاثين سنة بعد انفراط عقدها ، ولعل استقلاله البارز ، مع انه يوفق بينه وبين احترامه الفائق لصديقه الشهير ، قد ازداد عزة بفعل هذا الفاصل الزمني . ومهما يكن من الامر ، فبدون قدوات يونانية هذه المرة ، اقله من حيث المبنى ، قد اوجد لوناً جديداً هو الهجاء . وسيقول كوينتليانوس : « انه روماني بكليته » . وفي الواقع ، اذا لم تكن السخرية وقفاً على شعب واحد ، فان تخصيص القصائد لها امر مميز ويتجلى الخلق القومي في الواقعية الطبيعية والأدبية التي كانت منذ البدء دستور هذه القصائد .

ان تيار الثقافة اليونانية ، الذي يهزأ بعاداته الغريبة المستهجنة ، لا يظهر الا في لغة لوسيليوس . اما ما تبقى فتسيطر عليه قريحة سليمة صادقة ، لا تتردد في ذكر اسماء الاعلام وتبرهن عن قوة عظيمة في وصف الطبائع التي تحيا حياة حسية ، عاكسة عهدها وبيئتها وكيانها الباطن . وهي تعند في إثارة الضحك ، وغالباً ما تزح عن قصد ، وتداعب احياناً . وتتحلى بالاساطير والامثال والنوادر والحوار . ويفوت مؤرخ المجتمع شيء كثير اذا هو لم يتمكن من قراءة كل ما ألفه لوسيليوس ؛ ومؤرخ الادب ايضاً ، اذ ان الادب مدين له ، على الرغم من النقد الذي وجهه اليه هوراتيوس ، بسلسلة طويلة وجميلة من الهجاء الروماني .

٣ ـ تفتح الأدب اللاتيني

انطلاقة القرن الثاني

يكفي مثل لوسيليوس للدلالة على ان اخذ النخبة بالثقافة اليونانية لم يستنزف ينابيع العبقرية الرومانية . واذا استمر القرن الثاني على جانب من الجدب بوجه عـــام فانه قد حضر ازهرار القرن الاولى الذي يوافق ، قبـــل اوغسطوس ، اوائل الكلاسيكية باكثر من نصف قرن . فقد ساعد هذا الاستغراق على خلق لغة متينة ومرنة معاً لا يشوبها سوى انفصالها عن اللغة الشعبية الذي يحول دون التجديدات والزيادات التلقائيـــة . ووفر للناثر جملة جديرة بان تفرغ فى قالب فكره وان تقيس التأثير الذي يريد احـداثه . وعلم الشاعر بعض اسرار وزن الشعر العلمي . وادخل الشعور على النفوس بان سلخ عنها قسوتها الاولى وبان حثها على تحليل احساساتها ان لم يكن بعد قد حثهـــا على العطف على احساسات النفوس الاخرى . وفتح الاذهان بجعلها تلج معرفـــة كدستهـا حضارة عرفت كيف تعمـل للانسانيـــة جمعاء . انتهت قرون التمرين : فالادوات والمواد والطرائق ، كل شيء اصبح جاهزاً او كاد يصبح جاهزاً .

فليست ساحات القتال ، من ثم ، الحقل الوحيد الذي تستطيع روما فيه ان تدعي بانهـــا وريثة الحضارة اليونانية : فان عدد الرومان الذين يطمعون في متابعة عمل هذه الحضـارة يزداد باطراد . اما عامة الشعب المدنية ، المتروكة وشؤونها ، فقد احتفظت بلامبالاتها ، وبعدائهـا احياناً . ولكن الاثراء يفضي ، في وطن يتسع يوماً فيوماً ، الى انتشار بورجوازية رافق رقيهـا الثقافي رقيهـــا المادي وايده تأييداً . واذا ما استمر تأليف النـدوات ، فهي لم تعـــد تحتكر الشغف الفكري الذي يتسرب الى طبقات اخرى غير ارستوقراطيـــة ويجد فيها اتباعاً جدداً متحمسين .

لا شأن للمنازعات التي مزقت روما حينذاك: فهي اقل حدة من تلك التي مزقت العـــالم اليوناني فيما مضى دون شلّ انطلاقة حضارته . اجل ليس من روماني خليق بهذا الاسم يستطيع اهمال الشؤون العامة : فلن يبرز الميل الى الابراج العاجية الا في عهـــد لاحق . ولكن النشاط المفيد للمدينة (*Negotium*) لا يتنافى ونشاط الفكر الذي يشرّف وقت الفراغ ويبرره. ولد الرجال الذين اعطوا روما ، للمرة الاولى ، الزينة الفكرية التي اعتبرها الجميع ضرورية لمجدها ، بعد ان انفجرت الاضطرابات—البكر، فارون، في السنة ١١٦ ، واخواه التوأمان ، سالوستوس وكاتولوس ، في السنة ٨٧ — وعاشوا في جو اضطرابات اشد حدة لعب فيهـا قيصر وشيشرون اعظم الادوار نشاطاً .

وليس من قبيل المصادفة ، عندما انتهت السلطة الى ايدي حاكم فرد ، ان يغدو هذا الاخير، وهو قيصر ، سيد الفكر والادب في عهـــده وادهى سياسييه وانبغ قواده . وليس من قبيل المصادفة كذلك ان يستخدم دكتاتوريته لمحاولة نشر ثقافة يبدو له الانسان بدونها وكأنه يخون

الرسالة التي تحددهـــا له مواهبه . فيكفيه ان ينقطع الشخص ، ببعض الجدارة ، الى « الفنون الحرة » في روما لتبرير حصوله على حق المواطنية : انها لمكافأة عادلة للخدمات المؤداة ، وطعم ممتاز لاستمالة الذين قد يكونون قادرين على تأدية مثلها . وكذلك فأنه قد انشأ في ملحقـــات الفوروم الجديد المكتبة العمومية الاولى في المدينة . فشق بذلك طريقـــاً لن يتوانى احد من الاباطرة عن السير فيها على خطاه؛ اجل لقد كان اكثر قناعـــة من الملوك الهلينيين في عواصمهم واكثر قناعة ايضاً منه في حقلي التجميل والفن ، ولكنه نقل الى رومـــا مفهوماً تجهله هو المفهوم الهليني لواجبات الجماعة وواجبات من يجسدها حيال شؤون الفكر .

الجمود العلمي

بقي تفتح روما الفكري متفاوتاً على الرغم من اتساعه . واذا مـــا ظهرت بعض التأخرات الزمانية ، فهناك تأخرات اخرى لم يتوصل الفكر الرومـــاني الى التعويض عنها ، لا بل لم يحاول ذلك في يوم من الأيام .

ان هذا الجمود يلفت الانظار في الحقل العلمي بنوع خاص . فليس في روما من علماء طبيعة ورياضيين . ونادرون جداً اولئك الذين اعاروا علم الفلك اهتمامهم : وليس من الجسارة الافتراض بان البحثين ، او الابحاث الثلاثة التي روي عن نشرها تقتصر على نقل المؤلفات اليونانية . وقـــد لجأت روما الى الاقتباسات حتى في التطبيقات العمليـــة . ففي السنة ٢٦٣ وضعت في الفوروم ساعة شمسية ؛ ولكنهم لم يضعوا ساعة اخرى ضبط عليها خطّا الطول والعرض لرومـــا الا في السنة ١٦٤ . واذا سارت روزنامات اخرى كثيرة على الاشهر القمرية ، اسوة بالروزنامـــة الرومانية ، فقد اتاحت بعض الانظمة القانونية اصلاح اخطائها عن طريق اضافة يوم الى السنة . اما في روما ، فان اقرار الاشهر الاضافية كان منوطاً بهيئة الاحبار الذين ادى جهلهم ووساوسهم الدينية وحتى تحزبهم السياسي احياناً — اذ ان القرار المتخذ يطيل او يقصر السنة ، وبالتـــالي مدة سلطات القضاة — الى اضطرابات خطيرة: فقد بلغ التقدم على الشمس اربعة اشهر في السنة ١٩٠، وستة واربعين يوماً حتى في السنة ٤٦، وقد تخللت هذين الاصلاحين تغييرات اخرى تثير صعوبات مؤلمة في وجه المؤرخين المعاصرين .

حينئذ ، واخيراً ، جاء قيصر ، أو بالأحرى ، جـــاء من مصر ، حيث أتاحت له اقامته بالقرب من كليوباترا الوقوف على النجاحات التي حققها العلم اليوناني، بفضل ملاحظات الشرقيين الألفية ، علماء اسكندريون كان اوسعهم شهرة سوسيغينيس (*Sôsigénès*) . فطرد الدكتاتور الوساوس التقوية وفرض منذ السنة ٤٥ الروزنامة « الجولية » الشمسية التي كانت تحدد السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم . وهنالك تفصيل اضافي يلقي نوراً فاضحاً عـــلى جهل الرسميين في روما آنذاك : لمـــا كان قيصر قد مات منذ السنة ٤٤ دون ان يتمكن من اجراء رقابة شخصية عـــلى القرار القاضي بتعيين السنة « الكبيس » الاولى ، أساء الأحبار تفسير نص قراره فعينوا في البداية اليوم الثلاثمائة والسادس والستين كل ثلاث سنوات؛ ولم يُصلح خطؤهم إلا بعد مرور اثنتين وخمسين سنة .

على الرغم من النقص الذي انطوى عليه اصلاح قيصر حينذاك ، اذ أن البابا غريغوريوس الثالث عشر قد اضطر لاعادة النظر فيه ، فانه قد اثبت ابعد نتائج علم ذاك العهد تقدماً . ولكن هذا العلم كان اسكندرياً . فقد اقتصر فضل روما ، في ما يعنينا ، على اعتماد احدى هذه النتائج العملية اولاً وعلى تعميم استخدامها ، بفضل شمول امبراطوريتها . وجدير بنا ان نقدر هذا الدور حق قدره ، لا بل جدير بنا ان لا نخشى من اعطائه قيمة الرمز : اذا كانت روما قد نقلت الى البشرية جمعاء ما توصل الاغريق الى اكتشافه ، فان الطريق المختصرة تنطوي على حقيقة مؤثرة ايضاً . ومما يزيد في ملاءمة المثل ان حضارة شرقية قديمة قد اسهمت في العمل المشترك بتقديمها المواد الاولى . ولكن الحقيقة ، على الصعيد الفكري ، هي ان اسهام الاغريق قد استظهر على كل اسهام آخر .

أما الطب ، وهو التعليم الآخر الذي تلقى الاغريق من الشرق مبادئه الأولى التي حاولوا تنظيمها كعلم ، فلم يقف الرومان منه موقفاً مختلفاً. فما قام بينهم حينذاك عالم بأصول هذا العلم ، واذا وجد ممارسون بلديون — يكفي ان يعلن كاتون عن الحذر الذي يوحيه اليه اطباء الاغريق حتى يحكم على استدعاء كل طبيب — فلا يمكن ان يكونوا إلا جهّالاً . وباستطاعتنا التكهن بمستوى خرافات الجماهير ، عندما نرى كاتون، في بحثه عن الاقتصاد الريفي ، يسدي النصائح ويصف الصيغ السحرية ويتوسع في فضائل الملفوف الذي يقي من كل الأمراض ويشفي من كل الجروح والدّمامل ، الخ .. فكيف يعرض الناس عن اطباء الاغريق الذين أموا روما بعدد كبير بغية ممارسة فنهم فيها ؟ ثم برز جرّاح قبيل الحرب البونيقية الثانية ، فعرف في البداية نجاحاً كبيراً : حصل على حق المواطنية ، وابتاعت له الخزانة العامة بيتاً كي يقيم فيه. وزالت بعد ذلك شهرته ، لأن قسوته في « القطع » و « الاحراق » قد اعتبرت مفرطة . فاقتضى ، هنا ايضاً ، انتظار قيصر حتى تدرك الدولة واجبها : انعم الدكتاتور بصفة المواطن على كافة الاطباء الممارسين في روما وكل من يجتذبهم مثل هؤلاء الاطباء اليها .

النزعة الى العلم الواسع والمعارف المتنوعة والقانون

استسهل الرومان المهام التي وافقت واقعيتهم القريبة ، بفعل طابع أقل خطراً ارتدته طرائقهم ، والنتائج المرتقبة منها . ويمكن استخدام التعبير « علم واسع » لجمع هذه المهام : فهو يقابل ، في مفهومه العريض ، أقله ميلاً فكرياً ، أعني به ذلك الميل الى الابحاث الدقيقة حيث يتوفق الجدل احياناً الى بلوغ نتيجة ثابتة . واذا ما اقترن هذا الميل بميل موازٍ يتناول المعارف المتنوعة والتربية معاً ، بغية عرض المعلومات المكتسبة عرضاً واضحاً ومنظماً — ان مسائل التربية و « المتاع المفيد » التي سبق وتسلطت على عقل كاتون ، ستجد أبداً رومانيين حريصين على درسها ، مما ينسجم كل الانسجام ودور روما التاريخي في التكييف والتعليم — فانه لا يبقى دون فعالية منذ العهد الجمهوري . بيد انه يجدر بنا ، بعد الاشارة الى هذه المقدّرات القومية نوعاً ما ، ان لا نقلل من شأن العضد الذي استطاع البحاثون الرومان اكتشافه في العمل الذي انجزه قبلهم ، في المعنى نفسه ، العلماء الواسو الاطلاع والمتنوعو المعارف في العالم الهليني . وان

هذا العمل الذي أفضى الى نتائج عظيمة ، لم ينقطع في المراكز الشرقية الكبرى ، حيث اعطى بحاثون لا يعرفون الكلل ، من امثال أمين مكتبة برغاموس ، كراتيس ، الذي اوفده الملك أتّطال الثاني سفيراً الى روما حيث طرأ عليه طارىء أطال اقامته فاستفاد منها لالقاء المحاضرات ، ومن امثال الاسكندري ديديموس « *Chalkentere* » ايضاً ، امثلة حية أسرع الرومان الى الاقتداء بها . وكان فضل هؤلاء الاكبر في توجيه مجهودهم شطر الشؤون الرومانية .

أدى لهم خدمة جلّى أمر أصدره الحبر الاعظم بوبليوس موسيوس سكيفولا في أواخر القرن الثاني بنشر « الحوليات العظيمة » حيث دوّن الاحبار حتى ذاك العهد ، سنة فسنة ، الاحداث الرئيسية ، في نظره ، في الحياة الرومانية. ولكن ما هي نسبة ضبط اعادة جمع هذه الحوليات التي أدركتها النيران في السنة ١٤٨ ؟ مهما يكن من الامر ، فان مجموعة احداث ، دينية في الدرجة الاولى ، وسياسية وحتى اقتصادية ايضاً — اسعار الحنطة مثلاً — وضعت ، على هذه الصورة ، تحت تصرف البحاثين . وكان باستطاعة هؤلاء ايضاً اللجوء الى لوائح القضاة وتقاليد العائلات الشريفة التي يشتبه بها على كل حال .

نهض بعمل البحث هذا رجال كثيرون ، وقد حفظت لنا المصادر القديمة أكثر من اسم. ومن التفه وعدم الجدوى احصاؤهم لا سيما وان شيئاً لم يبلغ الينا من نتاجهم تقريباً . فأجدر بنا بالتالي ان نقتصر على اقلهم تعقيداً وأعظمهم شأناً ، أعني به فارون . فقد عمّر طويلاً ، مناهزاً التسعين وبلغ من ذيوع شهرته ان مبادئه الجمهورية المحافظة لم تمنع قيصر من اختياره لادارة المكتبة العامة التي أسسها . وفي الواقع ان اتساع وتنوّع اعماله وشغفه شبه الشامل وانتاجه الخصب النادر — ٧٤ مؤلفاً في ٦٢٠ كتاباً — قد بررا هذه الشهرة . انكب على الادب الصافي ، ربما في شبابه خصوصاً ، فكتب ١٥٠ كتاباً في الاهاجي الميبية [1] حيث مزج النثر والشعر ، ومزج كذلك السخرية والتحريف الهزئي والتفكير الرصين والادب الشعبي والنقد الادبي . واهتم للغة والادب اللاتينيين فكان نحوياً ولغوياً ومؤرخاً للشعر المسرحي . وكان مؤرخاً لماضي روما في مؤلفات عديدة لا سيما الواحد وأربعين كتاباً في « الآثار البشرية والدينية » ، ذلك المرجع الزاخر الذي انتهلت منه دونما انقطاع الأجيال اللاحقة . وألّف موجزاً تربوياً تضمن كل ما يجب ان يدخل في التربية الجيدة . وجعل من نفسه اخيراً ، في سن متقدمة ، عالماً في أصول الزراعة والاقتصاد الريفي في كتابه « شؤون الريف » الذي جاء نشره موافقاً لفرجيل مؤلف « الجيورجيات » حول اعمال الزراعة وتربية المواشي. لم يبق اليوم من هذا الانتاج الضخم سوى الحطام. «فالشؤون الريفية » وحده وصل الينا كاملاً ؛ ولا يمكن، بالاضافة اليه ، الحكم على فارون إلا بواسطة بعض الفصول الملأى بالنواقص من بحثه في « اللغة اللاتينية » وبواسطة بعض النتف التي ينتسب اوفرها

---

(١) نسبة الى الفيلسوف اليوناني مينيب *Ménipe* ، وهو من اتباع المذهب الكلبي ، الذي اعتمد في لواذعه اشعاراً مختلفة الاوزان في القصيدة الواحدة .

الى « الآثار » . اجل نحن لا نلمس عنده مزيداً من التوقد . ولا يعني ذلك انه افتقر الى الذكاء النقدي والعقل الرشيد وحتى النزاهة الفكرية . ولكن أنى له ، حتى بمساعدة كتبة يرجح انه لم يستغن عنهم ، الوقت الضروري لأن يراقب ابداً التقاليد التي جمعهـــا ويُغذي فكراً متميزاً حقاً ؟ ومهما يكن من الأمر ، فان الرجل الذي استطاع المجاز مثل هـذا العمل ، غير زاهد في تقلبات زمانه ، يفرض الاحترام .

يمكننا دون تحكم ان نضع ، في جوار الحركة التي نهض بها فارون ، الابحـــاث العديدة التي كرست في القرنين الثاني والاول للحق الخاص والحق العـــام : دروس وتعليقات مرتكزة الى تفسير النصوص ، لا سيما نص شريعة الاثني عشرة لوحة ، والى التاريخ . وقد اعتبر رجـالات روما الاول وضع مثل هذه الابحاث عمـــلاً مجيداً . ونذكر على سبيل المثال حبرين اعظمين ، «ب.موسيوس سكافولا» الذي نشر الحوليات الحبرية، وابنه كوينتوس،واضع مؤلف ضخم اعتبر اساسياً لمدة طويلة لانه المؤلف الاول الذي عني بتوزيع مادة الحق المدني وفاقاً لتبويب منطقي . بفضل هذه الجهود المتواصلة ، وفي الوقت نفسه الذي زال فيه تدريجيـــاً من التشريع كل اثر للماضي القديم ، اعد مـــا سيشرف العهد الامبراطوري ، اعني به تفتح العلم القـــانوني الروماني تفتحاً كلياً .

التـــاريخ

كان لمادة ونتائج هذه الابحاث اهمية تاريخية : فقد تجمعت مصادر اكيدة وواضحة. وفي الوقت نفسه اقدم بعض ذوي المراكز العليا ، على الطريقة الهلينية وبدافع أدبي مزعوم ، على تدوين مذكراتهم : ونكتفي على سبيل المثل ان نذكر سيلا بعد استقالته . كان من المفروض في هذه المذكرات تبيان السيئات التي هي دستور هذا اللون ، ولكنهـــا اوضحت السيكولوجيات وفاقت ، من حيث القيمة ، الذكريات التي يشوهها الكبرياء العائلي . كان الرومان فخورين جداً بماضي وطنهم ومنساقين بدافع السياسة في منازعات الاحزاب والافراد، لذلك فان عقليتهم النقدية كانت بحاجة قصوى الى ان تستيقظ : فاستيقظت عند النخبة . وقـد لعب تأثير بعض الاغريق الشخصي دوره في الاتجاه نفسه. فالمؤرخون الهلينيون لم يبالوا كلهم بأمر الوساوس : فقد قام بينهم خطباء خطرون يهوون التأثير المذوق في النفوس ، ويغلب انهم اوقعوا بعض الضحايا في روما. ولكن اقامة بوليب الطويلة فيها والعلائق التي ربطته ببعض رجالاتها، لا سيما وانه ينتمي الى غير هذه الطبقة ، كان لها صداها . امـــا الاثر الاقوى ، خلال القرن الاول، فهو أثر بوزيدونوس، ذلك العقل الشامل والرواقي الذي جمع الى التاريخ علم الاجتماع وحتى الجغرافيا العلمية : فمن تحقيقاته الطويلة والرصينة في الغرب وصلت الينا، عن طريق غير مباشرة، اكثرية معلوماتنا عن الغاليين قبل قيصر . بيد ان المؤرخين الرومانيين كانوا اقل اهتمامـــاً لمسألة العلل من هؤلاء الأساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد . ولكنهم تعلموا منهم اولوية الوقائع والحاجة الى تبريرها الفردي او الجماعي وقيمة انشائهم الواضح. وهكذا تسامى التاريخ

الى مرتبة لون ادبي لاتيني كبير واقتبس في الوقت نفسه اقله بعض الفضائل العقليـــة التي كونت عظمة مبدعيه اليونانيين .

ولن نذكر ، هنا ايضاً ، بين اسماء كثيرة ، سوى بعض الاسماء الجديرة بالذكر . اضف الى ذلك ان اسماً واحداً ، بين الاسماء المهملة ، قد عرف ببعض مؤلفاته ، هو كورنيليوس نيبوس . ولكن جامع النوادر الموجزة هذا لا فضل له سوى انه ادخل الى روما لون الترجمة باهتمامـــه حتى للأجانب .

هل قيصر مؤرخ يا ترى؟ اعوزه لذلك الوقت والميل : فهو رجل تشرب ثقافة رفيعة جداً، ولكن ثقافته لم تلاش تصميمه المتأجج على العمل بل خدمته وزادته تأججاً ؛ وهو عقل يستهويه كل ظرف يمارس فيه نشاطه ولكنه لا يحيد ابداً عن هدفه الأوحد : السلطـة ، وهو ذو ذوق رقيق يقدر بهجات الفكر وغيرها ويسعى وراءها ولكنه لا يخضع لسيطرة واحدة منهـا . فقد نظم اشعاراً والف مسرحيـة – على غرار الاسكندر – ووضع درساً في النحو ، وذاعت شهرة خطبه بين المتطلبين . ولكن لم يصل الينـــا منه سوى « تعليقاته » على حرب الغاليين وعلى الحرب الأهلية التي انجزت على يد غيره . وهي لعمري مؤلفات دعاوة قام بتحريرهـا على عجل في فترات راحته ونشرها نتفاً متعاقبة بغية تثقيف الرأي العام تحت ستار إعلامـه . ولا وجود مطلقاً للاهتمام التاريخي الصافي ، على الرغم من تجرد ظاهر ليس في الواقع سوى ارب متناه وفن خالص واسلوب ماهر احسن استخدامه بغية ارغام القراء ، ارغاماً افضل ، على ان ينظروا الى الاحداث ويفسروها بحسن التفات وقبول . وليست « تعليقاته » بالاختصار سوى مذكرات فورية وتقارير موجهة .

ولكنها تصدر عن خير شاهد يمكن ان نحلم به لانه لعب الدور الاول؛ وعن اكثر الناس شغفاً بكل شيء ايضاً ، على الرغم من انه اعظم ذكاء ورغبة في العمل من ان لا يقيس مجهوده بالفائدة التي يستطيع جنيها منه ؛ وعن ابعد الناس سيطرة على نفسه اخيراً واشدهم حرصاً على ان لا يبدو عليه اقل شعور قد يؤثر من قريب او بعيد في وضوح رأيه . فالاديب والرجل قد ارادا عملا خالياً من العصبية ، فكان ما اراداه؛ وقد جاء مطبوعاً باعتدال لا يضاهيه اعتدال في تركه الوقائع تصدر حكمها بالمديح او باللوم . وقد اسهم خلوه من العصبية في وضوحه الذي بلغ من كماله اننا لا نشتبه بصنعيته ، بل علينا التفكير ملياً كي نكتشف ان كل شيء لم يُقل مما يجب ان يقال ، وان كل شيء لم يحدث بمثـــل هذه السهولة . فحتى نعرف ونفهم حقيقة فتح غاليا ، يعوزنا « تعليقات » قائد غالي كبير . كان باستطاعة قيصر ، بفضل مواهبه الكثيرة ، ان يصبح مؤرخاً لا يجارى لو انه طمح الى ذلك ، ولكنه ، لو فعل ، لما كان قيصر .

على نقيض ذلك ، تغلب المؤرخ على رجل العمل في سالوستوس أحـد اصدقاء قيصر وأحد اولئـك الانصار المتحمسين ، الجموحين ، والملتكين احياناً ، الذين يستميلهم كل رئيس حزب .

أضف الى ذلك ، أن رجل العمل لم يجد عملاً بعد اغتيال الدكتاتور ، فتوارى أمـــام المؤرخ في المنزل الفخم الذي أتاحت له اغتصاباته الحصول عليه في قلب روما . لذلك ، فان التطور جليّ بين « مؤامرة كاتيلينا » و« حرب جوغورتا — دونما حاجة الى ذكر كتاب « التواريخ »المكرس لفترة مـــا بين السنتين ٧٩ و ٦٦ ، اذ لم يبق منه سوى نتف فحسب . منذ البدء ، اقتفى سالوستوس آثار توسيديد ، واستوحى انشاءه الموجز ، والجامع حتى الخشونة . ولكنه قد اقتدى به احياناً ايضاً في حرصه على استنزاف المصادر بالاستفادة من اقامته فيافريقيا للاستعلام حتى عن البلديين وبالجهد الذي بذله في الفراسة السيكولوجية والتحليل الاجتماعي . وغني عن البيان ان المشايع لا يمكن ان يتوارى في هـــذه الفترات من ماض قريب لا يزال حياً . وهو لا يهتم ، كما توفق قيصر الى ذلك ، لاخفاء اهواء تعبّر عنها دفاعاته ومهاجماته . بيد ان تمرّده يزداد يوماً فيوماً ، فيقدم هـــذا الديموقراطي أخيراً لقارئه عناصر اكرام لممثلي الحزب المناوىء : وهـــذا ما يزيد في قيمة الداعي الى الاخلاق الذي نتمنى كثيراً لو يكون دون مأخذ في حياته الشخصية .

البلاغـــة

على غرار المؤرخين اليونانيين ايضاً ، أكثر قيصر وسالوستوس من الخطب بأسلوبها المباشر او غير المباشر . ولكن الجملة الصافية عند الاول ، والغامضة عن قصد عند الثاني ، والموجزة على غير تنميق عند كليهما ، تنحدر من علم البلاغة اللاتيني الذي تمثل هي احدى نزعاته . فمنذ ذاك العهد كانت البلاغة اللاتينية ، وهي ابنـــة البلاغة اليونانية ، مسيطرة على اساليبها ، أي على النثر الذي ابتدعته ، سيطرة كافية لكي تناقش في استخدامها . ان هذه المنازعات ، المستوردة من العالم اليوناني الذي انهمك بها منذ القرن الرابع على الرغم من فقدانـــه حرياته في تلك الاثنـــاء ، ازدهرت في روما حيث لعب الكلام في الجمعيات والمحاكم دوراً مماثلاً لذاك الذي لعبه من قبل في اثينا الديموقراطية . فكان على الروماني الحقيقي منذ امد بعيد ان يكون حقوقياً وخطيباً . واذا ما تحلى ببعض الذوق ، فلا يستطيع ان يكون خطيباً دون فن ودون تأمل في فنه . وعبثاً اراد المتمسكون بالتقليد مقاومة أثر البلاغة العلميـــة التي أتاحت حيلها تأمين الغلبة لقضية باطلة . فقـــد درّست وفاقاً لتربية مستوحاة من المدارس اليونانية بقواعد نظرية دقيقـــة جداً وتمارين على مواضيع خيالية . في السنة ٩٢ اقفلت مدارس البلاغة اللاتينية ولكنها لم تلبث ان فتحت ابوابهـــا . ولعل التدبير املته ظلامية معادية للديموقراطية ، لأن الخطباء اليونانيين قـــد تركوا وشأنهم منذ اواسط القرن الثاني ولأن النخبة اخـــذت ترسل اولادها في القرن الاول الى رودوس واثينا كي يتابعوا علومهم . فانتقلت من ثم الى روما الطرائق المختلفة المعتمدة في العالم اليوناني والمجادلات التي زعزعته .

اعتمد بعضهم اللون المعروف بـ « الأسيوي » لانه نشأ في آسيا ودرّس في برغاموس بنوع خاص . ومن حيث انه كان منمّقاً جـداً أي مثقلاً بالصور والمفردات المؤثرة ، فقد سعى ايضاً وراء الايقاع الذي هو أشبه بالغناء عند الالقاء . وخير ممثل لهذا اللون في اوائل القرن الاول

هو هورتنسيوس وانتسب البعض الآخر الى الذوق « الأتيكي » بطموحهم الى النقاء الدقيق ، والموجز على بعض الجفاف ، والمتين . وكان هذا بالضبط مثل قيصر الاعلى ؛ وهـــذا المثل هو الذي احرز الغلبة ، في اواخر العهد ، في اوساط الشباب .

وقال غيرهم اخيراً انهم اكتشفوا في رودوس درساً ومثلاً في التسوية : فلا افراط في العري ولا إفراط في التنميق الصنعي ، بل غزارة انيقة في خدمة معنى رصين ومتين . وهذا كان برنامج شيشرون .

شيشرون

انه مدين للفصاحة بارتقائه الاجتماعي . وقد بدأ ارتقاؤه هـــذا بالاثراء اذ ان خدماته قد قابلتها الاعطيات والهبات عن طريق الوصيات والنصائح بالتوظيف المثمر. وبدا خصوصاً بسنى الحياة السياسية، اقله في مرحلتها الاولى ، فأتاحت نجاحاته الخطابية « للانسان الجديد »، المنحدر من عائلة فرسان في بلاد « الفولسك »، ان يتوصل الى القنصلية منذ السنة ٦٣ ، « سنته » ، في السن الدنيا المفروضة لذلك. فمارس ، طيلة السنة التي تولى فيها الحكم، دكتاتورية كلامية حقيقيـــة ، منتزعاً من مجلس الشيوخ سلطات خاصة لسحق محاولة كاتيلينا الثورية ، واستطاع التباهي بعد ذلك ، ربما « بفعل سبب ، ولكن دون غاية » ، بأنه خلّص الدولة والمجتمع . ثم أتى دور الكسوف . ولكن موت قيصر جعله يستعيد دوراً اوليـــاً نهض به بسذاجة وهوى وشجاعة معاً . واذا ما هو مات ضحية طامعين عَنِدَ هو في ملاحقة احدهما واعتبره الآخر شخصاً احمق ، فقـــد مات دون ضعف ، على الاقل ، وماتت معه الحرية الرومانية . وهكذا فانه دان بارتقائه الى حدّة فصاحته العلمية ؛ ودان لها ايضاً بنهـــاية ديموستينس . وانمـــا هو مدين لها حتى اليوم بجوهر شهرته التي لا يضاهيها حقاً سوى شهرة ديموستينس : فالمعاصر الذي يطلب اليه تأليف « تراجم متوازية » لن يتردد في الوقوف موقف بلوطارك ويرى فيه الشريك الضروري للخطيب الاثيني .

لدينا اليوم حوالي الستين من خطبه ، أي ما يعادل نصف الخطب التي عرفها التاريخ القديم . وهو قد اعاد النظر فيها قبل نشرها ، وبلغ منه انه نشر خطباً لم يلقها قط : كأكثرية الخطب « الفرينية » مثلاً . ولكنها ، حتى في مبناها الشفهي قـــد تضمنت مقاطع أعدت كتابة ، وكانت ، على كل حال، نتيجة تحضير متقن . واذا ما انسجم فن شيشرون مع مزاجه الشخصي، فانه قـــد خضع مع ذلك الى تقنية بالغة المهارة والتفكير كما يتضح من الابحاث النظرية العديدة حيث اطال التكلم عنها بغية تبرير اسلوبه . فقد رفع هـــذا الاسلوب الى مستوى النظرية في ما يعود للصوت والاشارات ، والتركيب العام ، وإنماء الافكار بالثقافة العامة ، والبحث عن الحجج وعرضها ، والوقت المناسب للجوء الى السخرية والحفظة ، وتنضيد الجمـــل واختيار المفردات . فاليقين والاقناع والتأثر والاغراء ، من حيث ان كل ذلك يسهم في بلوغ هدف واحد ، يمكن تحقيقها في نظره باعتماد صفات فطرية تزيد في قوتها التربية والمهنة .

ان ما يلفت النظر اليوم هو صنعية هـــذه الاساليب الماهرة . ونحن نستسلم حتى الى الملل امام هذه الجمل الطويلة وتوازن اقسامها المرتقب مسبقاً . ويستهوينا غالباً ان نتصل اتصالاً مباشراً بالرجـل وبهواه الصادق الضائعين في عموميات تافهة وتمحكات حقيرة . ونكون سعداء جداً حين يحدث له ان يكون سيء النية ، لا بدافع بصيرة المحامي في شدة الضيقة ، بـل بدافع الحدّة والحميّا ؛ فنحن حينذاك امام حملات لا ترحم تشن بسخرية متفوقة في المرافعات وببغضاء جنونيـــة في اعنف الخطب السياسية ، كالخطب الكاتيلينية والفيليبية ، مثلاً . ولكن الحقيقة — اوليس ذلك هو الاهم بالنسبة لمحارب خطيب ؟ — هي انه توقف في بعض الظروف الى اثارة حماس مستمعين معادين مبدئياً . والحقيقة ايضاً هي ان اجيالاً متعاقبة كثيرة لم تر ، طالما آمن الناس بفعالية البلاغة ، افضل من ان ينحنوا على كماله حتى ينتزعوا منه الاسرار .

بيد ان الخطيب لم يحدد الرجل كله الذي كان اشد كبار المفكرين الرومـــان ايماناً بامور الروح ، ان لم يكن اعظمهم كمالاً واناقـــة — يجب الا ننسى قيصر — في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

الف قصائد رصينة جداً وتعليمية — نقل كتـاب « الظواهر » السماوية لاراتوس السولي — وسياسية تاريخية : بيد ان فقدانها لم يحرمنا من الروائع في الارجح .

راسل صديقه اتّيكوس بصورة متواصلة . ولم يخضع نشر رسائله، بعد وفاته بتسع سنوات، لاعتبارات الصداقة والادب فحسب ، ولكنه قد اخطأ هدفه بدون شك اذا كان مـــا املاه تصميماً على الثلب والتعيير . ولم تكن مجموعات الرسائل امراً جديداً ! فقد نشر الاغريق اكثر من واحدة منها دون تدقيق في صحة النصوص التي تألفت منها . ولكن الشيء الأكيـد ، على الرغم من ان مجموعة سابقة واحدة لم تصل الينا ، هو ان المجموعات السابقة لم ترتد طابع الغزارة والاهمية الذي ارتدته هذه المجموعة . ومهما يكن من الأمر فان هذه المجموعة لا توفر لنـــا ، بالحياة التي تجيش فيها ، شهادة مشوقة حول عهـد شيشرون وبطانته فحسب ، بل خير شهادة تولد فينا الميل الى البداهة الانسانية والحدة البديعة او العطوفة في ردات فعله .

بحث اخيراً، في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته،عما يحوله عن شق خيبات آماله وآلامه — عن كسوفه السياسي وعن انفلات محزن تستسلم له قوى تفوقت عليه ومزقت منافساتها وطنه ، وعن الدكتاتورية القيصرية التي كمت حرية الكلام ، وعن وفاة ابنة احبهـا — في وضع الدروس الفلسفية . وقد غذى بعمله هذا طموحاً الى إنماء تراث روما . وبديهي ان المقصود هنا هو التراث الادبي ، كما جرى له في دروس البلاغـــة المعاصرة لهذه الدروس : وقد توصل الى ذلك بفضل طريقتها الحوارية ، المقتبسة عن افلاطون ، وبفضل اللهجة المازحة او الحصيفة ، وبفضل اتقان النثر الذي جعلت منه هذه الدروس، بعد الخطب ، وسيلة تعبير واضحة وقوية ومرنة اعتمدها جميع الكتبة اللاتين اللاحقين . كما ان المقصود هو التراث الفكري ايضاً الذي كان يشكو ، اذا

ما قورن بالتراث اليوناني ، من نقص يحز في وطنيته . ولكنه كان بعيد الهمة في ذلك. وفر له الفكر اليوناني نقطة الانطلاق : فعرض بجلاء ، حيال المسائل المختلفة التي تناولهـــا ، المذاهب التي بدت له جديرة بالاهتمام ، اي مذهب ارسطو ومذهب الرواقية ، راجعاً الى الاصول بغيـة تفسير ما صارت اليه آنذاك ، فقابلها وانتقدها بغية التوصل الى « اختيارية » وسيطة معقولة. ولكن الجهد العظيم الذي بذله قد تأثر بالسرعة التي بذل فيها ، على الرغم من صفات استساغـة وذكاء حاد قل نظيرها. اضف الى ذلك ان شيشرون قد حول برضاه صوب علم الاخلاق والسيكولوجيا والحق ، ولا سيما الحق العام ، نظريات لم يتح له فهمها على الأرجح . فمن السخرية ، والحالة هذه ، ان نضيف الى مجده صفة الفيلسوف التي طمح هو اليها. ولكن هذه الناحية من نتاج ادبي مدهش باتساعه وتنوعه وثروته قد اسهمت ، بوضوحها ، والشغف الفكري ، ونوع المسائل المطروقة ، والثقة الموضوعة في العقل وفي تفاعل الأفكار ، والعناد في معرفة الانسان وخدمته ، والشعور الأدبي ، في جعله اعظم الادباء الذين دانت بهم روما اخيراً لمخالطة الحضارة اليونانية .

موت المسرح الادبي

وهكذا فان النثر اللاتيني الذي بقي قاصراً لمدة طويلة ، قد حصل على براءة النبل . لا بل انه تغلب مؤقتاً على الشعر .

وتعود دونية الشعر جزئياً الى انه فقد حقلاً كاملا صمتت النداءات التي كانت تأتيه منه والتي كانت له طيلة قرنين حوافز فعالة . فالمسرح الادبي يعاني في الواقـع سكرات الموت على الرغم من المساعي المبذولة لاعلاء شأنه لدى الجماهير عن طريق البـذخ في الاخراج : استعراض ٦٠٠ بغل في السنة ٥٥ لتمثيلية كليتمنسترا (*Clytemnestre*) و ٣٠٠٠ دن لتمثيلية « حصان طروادة » . وتخلت المأساة والمهزلة عن مركزهما لالوان قبلت اصلاً في آخر التمثيليات وحاول بعضهم عبثاً المحافظة على بعض ما اتسمت به من اعتبار وحشمة : فهناك ضرب من المهـــازل المضحكة ينحدر بسرعة الى الابتذال ، كما ان نصيب الكلمـــات المستعذبة يتلاشى تدريجياً في « التمثيلية الايمائية » التي يتوجب على ابطالها ان يكونوا ماهرين في الرقص والمزاح .

الفلسفة والشعر

لوكريس (*Lucrece*)

ولكن الشعر ، في الوقت نفسه ، يسلك طرقـاً جديدة : ومنها الفلسفة على الرغم من قصيدتين قصيرتين قلد فيهما اينيوس مؤلفات يونانية .

غدت بعض المذاهب الفلسفية اليونانية منذئذ مذاهب معترفاً بهـا في روما . فلنهمل البيثاغورية التي سمحت لها ارتباطاتها الايطالية بالدخول قبل غيرهـا : فبعد ان برزت بعض وجوهها الاولى ، نراها آنذاك في روما حيث أسس نيجيديوس فيغولوس *Nigidius Figulus* جمعية دينية حقيقية في عهد قيصر ، هي أقرب الى الديانة منها الى الفلسفة . وقد سبق لنا ورأينا ان المعتقدات الاخرى قد صادفت لدى « كاتون » واصدقائه مزيداً من المقاومة في النصف الأول من القرن الثاني . ولكنها تغلبت على هذه المقاومة : اذ كيف يمكن العزوف عن افكار اعتبرها الاغريق أثمن زينة عقلية للانسان ؟ وكان لتعليم الفلسفة في رودوس واثينا الشهرة نفسها

التي كانت لتعليم البلاغة ، وقد استهوى ، على غراره ، الشبيبة الرومانية . وأُلقيت محاضرات عديدة في روما نفسها . وتجدر الاشارة هنا الى افتقار روما الى مدارس فلسفة يوزع التعليم فيها باللاتينية على غرار مدارس البيان: فليس من موجب عملي يرغم على ذلك ، وليس ايضاً – وهذا ما يفسر طموح شيشرون – من مذهب متميز نشأ في الغرب يفرض مفرداتـــه الخاصة وتقدمه العقلي .

ان الرواقية ، بين المذاهب المنتشرة في العالم اليوناني قد احرزت في روما أعلى درجة مـــن النجاح . وقـــد خدمها في ذلك اقامة اهم ممثليها في روما الذين كان لهم من قوّة الفكر ما جعلهم يطبعون آراء اسلافهم بطابعهم الشخصي : بانايتيوس ، صديق شيبيون اميليانوس في القرن الثاني ؛ وبوزايدونيوس الذي برع في أكثر من حقل من الحقول الفكرية ، في القرن الاول . ومنذ البداية ايضاً ، اقله في ما يعود للنزعات الادبيـــة ، تجمعت ظروف عديدة وقدّرت « للرواق » الانتشار : فهو يوصي بالعمل الذي يتوجب على الروماني الا يحيـد عنـه ؛ ويدعو باسم العقل الى التحلي بالفضائل العابسة ، العدل والشجاعة والقناعة ، التي تطابق المثل القومي التقليدي ؛ لا بل ان الخضوع نفسه للنظام الإلهي في العالم قد انطوى على بعض ما يأخذ بمجامع القلب في مدينة تنهض بواجب تنظيم الامبراطورية التي سلطها عليهـا القدر . اجل لن يتم الفوز العظيم إلا في عهـد لاحق ، أي في العهد الامبراطوري ، ولا يمكننا الاستشهاد إلا باسم كاتون الأوتيـكي حتى نحاول آنذاك ، ولو ببعض التكلف العقائدي وبعض الخور الذي تمحوه عظمة موته ، التوفيق بين سلوكه والمعتقد الذي اعتز بالمناداة به . ولكن وجود الرواقية امر راهن منذ الآن ، وهي على اتم استعداد للتسرب بعيداً الى النفوس التي سيثيرها الاستعباد .

على نقيض ذلك ، وقبـل اعصار الحروب الأهلية الطويلة ، يبدو ان الأبيقورية ، في ظاهر أنانيتها اللامبالية ، وفي حقيقة نبل تجرّدهـــا على السواء ، لم تستمل سوى عدد قليـل من المشايعين في رومـــا : فهي أبعد من ان تثير اعجاب نخبة متعطشة الى العمل . ولكن فخرها ، الفريد من نوعه آنذاك بين كافة المذاهب ، انها قد ألهمت شاعراً كبيراً هو لوكريس .

ان لهذه الملازمة وزنها ، ولكن ليس ، لسوء الطالع ، ما يوضحها : فالرجـل غير معروف إلا بقصيدته التي لا تتضمن أية دلالة على حياته . لا ريب في انـــه تألم أقله من المشهد الذي وفره له معاصروه . ولكنه تباهى بأنه اكتشف تهدئة لآلامه في حكمة ابيقور ، فأخذ عـلى نفسه تعليمهـا . فتميّزه من ثم ليس في المعنى ، بل هو ، فكرياً ، وفي الدرجة الأولى ، في شغف علمي متأجج يحمـــله ، بعد عرض نظرية ديموكريت المادية والذرية التي سبق لابيقور وتبناها ، على درس عدد كبير من الظواهر بغية تقديم الدليل على انها كلها قد تقبل تفسيراً ، او تفسيرات احياناً ، لا تمت الى ما فوق الطبيعة بصلة . فلم يتراجع في هذا الصدد امام أية جسارة وحذا حذو أكـــثر من اغريقي . واذا نحن لم نستطع اليوم تقدير أهمية إسهامه الشخصي حق

قدرها ، فالاحترام الذي يوجبه مدى ونشاط هـــذه المحاولات لا يقبل أي تحفظ . ان تميزه ، — وهو يبدو بذلك ذا طابع روماني اعظم — يقوم ايضاً في تصميمه على الانشاء التعليمي وفي طابع البرهان العقلي الذي يطبع به اسلوبه . فهو يريد اقناع القارىء بأن العالم ليس سوى مادة ، وان كل شيء فيه ، حتى النفوس ، مركب من ذرات يتنوع جمعها وفاقاً لمصادفة التقائها ويحررها الموت حتى تجمع بعده جمعاً اتفاقياً جديداً . ان هذا اليقين وحده سيخلّص الانسان من رعبه حيال الموت ، الذي لا تعقبـه أية مكافأة او اية عقوبة ، وحيال الآلهة الذين لا اثر لهم في العالم والذين « يقضون في هدوء دائم اياماً دون اضطراب وحياة دون غمام » . وان تمـــيزه اخيراً وخصوصاً تميز ادبيّ قوامه الجمع العجيب بين قوّة هذا المنطق وانفعال الشاعر الحاد . فمن حيث انه يفيض شفقة على البشر بسبب ألمهم المادي وآلامهم الادبية الناجمة عن مخاوفهم ، يشعر برغبة جنونية في اشراكهم في حقيقته وفي احلالهم معه في « المناطق الصافية » : غير ان هـــذه اللهجة الحادة في كافة اجزاء قصيدته تناقض ، بهذا الصدد ، الهدوء الذي يدعي تلقين سره . اضف الى ذلك انه يهتز اعجاباً ببهاء الطبيعة العظيم ويعبر عن اعجابه بنبرات يغذي حرارتهـــا شعور زاخر . فهـــل ينمّ مؤلفه « طبيعة الاشياء » عن « فن كثير » كما كتب شيشرون الذي يعتقد بأرجحية نشره بعد وفاة لوكريس ؟ اجل قد ينمّ قدم اللغة والنظم عن تقليـــد مقصود للملاحم القديمة . ولكن لا يمكننا والحالة هذه ان نتصور اتفاقاً أكمل بين المقاصد الجمالية وقوّة مزاج الفنان .

الشعر الغنـــائي
كاتولوس (*Catulle*)

في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه شعر لوكريس الفلسفي ، ظهر في روما الشعر الغنائي الذي سيتمثل فيها بسلسلة اطول من الشعراء . نشأ في الأندية المجتمعية التي لم ينقصهـــا سوى شخص « الفاسيلفس » حتى تشبه ، حتى بالتأثيرات النسائية ، بلاطات الملكيـــات الهلينية ، لا سيما بلاط الاسكندرية ، اعظمها رقة وذوقاً سليماً . ويصبح من ينتمي اليها « احدث سناً » ، باعطاء هذا التعبير معناه المزدوج ، الحقيقي والمجازي ، والجدة الجمالية والسن على السواء . وعلى من ينتمي اليها ان يتحلى بثقافة رفيعة اقتناعاً بان نظم القصيدة جدير بالعناية نفسها التي يتطلبها العمل السياسي ، الذي لم ينصرف بعضهم عنه بعد ، او بالعقدة الظريفة التي غالباً مـــا تداخل كلا من القصيدة والعمل السياسي : فاذا لم يزل هناك قسوة في الحملات ، حتى المنظومة منها ، فهنالك ظرف في الغزل ، وكثير من التصنع المقصود ، وعـــلم ميثولوجي واسع ، ووزن في النتاج الادبي ، وقد وفرت المدرسة الاسكندرية امثلة كثيرة على ذلك .

كاتولّوس هو الوحيد بين هؤلاء الكتاب الذين وصل الينا منهم مجموعة قصائد غير كاملة على كل حال : حوالي مائة قصيدة بعضها لا يتجاوز البيتين ويبلغ اطولهـــا ٤٠٨ أبيات — وقد أدركته المنية قبل الخامسة والثلاثين من سنه — ؛ وهي قصائد مختلفة الاوزان والالوان ، طرق فيهـــا الهجاء والمجون والنشيد الديني ، والرواية الاسطورية . وينمّ كل ذلك عن ادراك لكمال

المبنى ومهارة في اللغة ، وجموح مرن وسهل ، تمثل ، على ما نعلم ، ما يقابلها من تقدم حديث العهد وجليل الفائدة . ولكن صدق الشعور المتواتر لأثمن قيمة ايضاً . أحب كاتولوس تلك التي يطلق عليها اسم « لسبيا » (*Lésbie*) التي ليست سوى شقيقة المهيّج كلوديوس . كان باستطاعته ان يختار افضل منها ، ولكن كان من شأن اختياره ، لو فعل ، ان يدعو الى الاسف ، لأنه تألم من خيانات عشيقته ، فوفرت له هذه الآلام نفسها ، بانماء وإعماق شعوره ، ظروفاً جديدة للتعبير عنه . اجل لقد وجدت « صافو » من قبل ، وعرف كاتولوس مؤلفاتها ومؤلفات الاسكندريين الذين نقل عنهم الى اللاتينية عدّة تمثيليات ، « كشعر بيرينيس » مثلاً (*La Chevelure de Bérénice*) لكلّيماخوس. ولكن التعبير عن الهوى الذي يعمي البصيرة ، تلك الشرّة الهائمة والالم الصارخ ، نادر في ادب العصور القديمة اليونانية والرومانية . فقد وجب ، للاقدام على ذلك بمثل هذه القساوة ، قوّة نضرة يتمتع بها شعر في شرخ الشباب ، لم تصل اليها الكلفة بعد . غير ان خلفاء كاتولوس ، الذين سيدينون له بالكثير من مهارتهم التقنية ، لن يسيروا وراءه في هذه الطريق .

الخلاصة

تأيّد اذن ، حتى قبل نهاية العهد الجمهوري ، نجاح روما ونضجها الادبيان على نقيض ارتباطها الفني وجمودها العلمي . فما اعظم الشوط الكبير المقطوع منذ ترددات الادب الاولى في النصف الثاني من القرن الثالث ! فان هلينة روما قد انبتت فيها ادباً يتمتع بكيان مستقل وينتج روائع لا تتأخر أبهى الحضارات عن الاعتزاز بها . ولم يحدث شيء من ذلك تلقائياً : اذ ان اختيار القدوات قد وفر تسهيلات نادرة جداً . اضف الى ذلك ان النجاحات كانت بطيئة ، وشاقة في أكثر الاحيان ، يتخللها التسكع والاجهاض . كان للعقل اليوناني الفضل في انه خلق ، وخلق بسرعة ، في قرنين او ثلاثة قرون ، ما قد صرفت روما أربعة قرون في ادراكه وتقليده وتطبيقه على مواردها وعلى نزعات عبقريتها الخاصة . ولكن الانطلاقة قد حدثت ، وباستطاعتها ان تسير طريقها حتى ولو قطعت جسور الاتصال بينها .

ثم ان مثل كاتولوس يتيح لنا ان نحدّد ببعض الوضوح المرحلة التي بلغتها آنذاك النخبة الادبية الرومانية . فهي ، من حيث احساسها المرهف بالجمال وتعودها لذة الابحاث الفنية ، تستسيغ في جوهر كيانها كل الحضارة اليونانية منذ العهد القديم حتى المدرسة الاسكندرية ؛ وهي لا تزال تنهل منها وتنقلها الى اللغة اللاتينية ولكن غايتها الوحيدة هي التمرّن والممارسة . فهي في الوقت نفسه قد استعادت بعض الميزات الاصيلة او حافظت عليها ؛ فلم تذهب بالاناقة حتى التصنع ؛ وبرهنت على قدرتها على نظم « اشعار قديمة » في موضوع « الافكار الجديدة » ، وعلى

التعبير ، في صيغ لا يغرب عنهـــا أي سرّ من اسرارها ، عن آراء ومشاعر طبعتها هي بمفارقاتها الخاصة .

وباستطاعة كاتولـّوس ان يرمز الى شيء آخر ايضاً ، فهو قد أتى الى فيرونا (*Vérone*) في ايطاليا الشمالية ، البلاد الغاليّة ، الى روما التي سبق لها واستقبلت في القرن السابق تيرنس مـن افريقيا . وهكذا فان روما التي دانت بيقظة ادبها لايطاليين جنوبيين مستغرقين قـــد أمّنت تعبئة حاجتها منهم في الغرب ، فنقلت الى هـــذا الاخير الثقافة التي تلقتها من الغير وكيفتها . ولكنها اجتذبت اليها وضمت الى مجدها القوى الحية التي برزت فيه . وان هذا الدور ينبىء ، من زاوية هذه المظاهر المختلفة بالدور الذي ستلعبه طيلة العهد الامبراطوري الاول .

فهي قد عقدت منذ الآن ، على طريقتها ، ولمصلحتها ايضاً كما هو بديهي ، خيوط شبكة العلائق المختلفة التي أمسكتها بيديها . واحتلت منذ الآن ايضاً ، بفعل تقبلها واعطائها وتحويلها ما تتقبله ومحاولة رقابـــة تحويل ما تعطيه ، مركز حضارة ناشئة ستشمل الإطار الاقليمي والبشري الذي اوجدته فتوحاتها – تلـــك الحضارة التي هي المصدر الأهم والمباشر للحضارة « الغربية » الراهنة .